

الدراسات البينية للقرآن الكريم

في القرنين السابع والثامن الهجريين

مكتبة

السبد عبد السميم حسونة

أستاذ ورئيس قسم البلاغة والذك الأبي المساعد

كلية دار العلوم - جامعة عدن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّحْمَنُ * عَلَمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَمَهُ الْبَيَانَ﴾

صَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ الرَّحْمَنُ [٤ : ٦]

إِهْدَاءٌ

إِلَى أَسْتَاذِي الَّذِي أَدِينَ لَهُ بِالْكَثِيرِ
إِلَى الأَسْتَاذِ الدَّكتُورِ مُحَمَّدِ زَغْلُولِ سَلامٍ

حِيَا

وَتَقْدِيرًا

وَوَفَاءً

المقدمة

وتشمل العناصر التالية :

- أ - سبب اختيار هذا البحث.
- ب - المصاعب التي واجهتني خلال البحث.
- ج - الدراسات السابقة علي.
- د - خطأة البحث.
- هـ - منهجي في كتابة البحث.

المقدمة

لم تحظ الدراسات البينية للقرآن الكريم باهتمام كبير من عناية الباحثين وجهودهم في الدراسات الجامعية يقدر ما حظيت به بحوث الأدب شعره ونثره ، وبالرغم مما أسداه الباحثون في هذه الدراسات من فضل عظيم للبلاغة من جوانبها الأدبية ، إلا أنها لم تول كل وجهها شطر القرآن وبيانه في بحث متكامل ، وانشغلوا عن القرآن الكريم الذي لا جدال في أنه كتاب العربية الأكابر ، ومعجزتها البينية الخالدة ، وذروتها العليا في البيان .

وعلى الرغم من تعدد الدراسات البلاغية لم ينهض أحد من الباحثين المحدثين - فيما أعلم - حتى الآن باستخلاص الدراسات البينية للقرآن الكريم في مجموعة من خلال ما توصل إلى أسلافنا من البلاغيين ، أو يوضع بشكل تفصيلي إضافتهم الأصلية ، أو ما يوجه لعملهم من نقد ، أو أن يقدم عناصر البيان في صورة بنا ، متماساً مستقل ملتزم بكل ما يربطه من نصوص قرآنية قريبة منه .

ومهما يكن من شيء فقد بقيت هذه المعانى في حاجة ماسة إلى دراسة مستفيضة تجمع شتاتها ، وتبرز خصائصها الفنية الكامنة في النص القرآني ، وتضييف الكثير مما لم يتمتع بالمحدثون ، وتقتضي مجالات أرحب لدراسات أخرى تجلي بعض آسوار البيان القرآني .

وقد تعترى الدعشة المهتمين بالدراسات البلاغية حين يجدون المكتبة القرآنية قد خلت من مثل هذا البحث المتكامل : لأنه يسد ثغرة كبيرة في نشأة البيان وتطوره ومدى تطبيقه على القرآن الكريم .

وتكلم هي المهمة التي انتدنا للوفاء بها في بحثنا - بقدر ما تطيقه وسائلنا - وللحق نقول : إن العصر الذي نتناوله عصر له خطره في تاريخ البيان القرآني إن لم يكن في تاريخ البيان العربي كله .

وقد درستنا البيان - هنا - دراستين ، دراسة تاريخية تقوم على تتبع البيان وتطور معناه إلى أن استقر في آذهان علماء القرنين السابع والثامن الهجري ، وما صورته كتبهم ، ودراسة أخرى فنية تحليلية تعالج فنون البيان مُثْبِطاً على أمهات موضوعات القرآن في شاذج قرآنية متعددة . وكانت غايتها في هذا الاتجاه إبراز قيمة النص القرآني البينية ، وإن أقارب ما استطعت بين المصطلح البيني والنص القرآني : حتى لا يكون البيان بمعزل عن التطبيق الذي خُلق له وهو تنطق النص وفهمه .

فضل الدراسات السابقة على بحثي :

ولست أدعى ابتداءً أن يخوض في أرض لم يرتدها أحد قبلني ، فإن بعض الباحثين من الرواد قد أعملوا قرائتهم منذ عهد مبكر حول هذا الموضوع منهم : المرحوم الاستاذ الوالد أمين الخولي ، ومن نسج على متواهه كالاستاذة الدكتورة عائشة عبد الرحمن «بنت الشاطئ» في التفسير البياني للقرآن ، والمرحوم سيد قطب في كتابه «التصویر الفنی في القرآن» ، والمرحوم الاستاذ الدكتور أحمد بدوي في كتابه «من بلاغة القرآن» ، وأستاذنا الدكتور محمد زغلول سلام في كتابه «أثر القرآن في تطور النقد العربي» ، وأستاذنا الدكتور / فتحي عامر في كتابه «المعانى الثانية في النظم القرأنى» .

ومن المؤسف أن هذا النوع من الدراسات البيانية القرأنية الذي يُعد منارة أمام الدارسين ، وأساساً أولياً في سبيل إعداد المواد لتشديد صرح البيان القرأنى لم يعُقده ما يقتضيه من أبحاث متالية تهدف إلى إعلاء الصروح . ومع ذلك فلابد أن أعترف بفضل أولئك الرواد من النقاد والأدباء الذين تناولوا أسلوب القرآن تناولاً مشرقاً في معالجة قطوف من بيانه ، وأقر كذلك - بأنه لم يخصص أحد - فيما أعلم - بحثاً يعالج فيه فتوح البيان مُعنىًّا على موضوعات القرآن ، وبخاصة في تلك الفترة من الزمان (في القرنين السابع والثامن الهجريين) .

أسباب اختيار هذا البحث :

أما الأسباب التي دعتنا إلى اختيار هذا الموضوع ، وتحديد هذا التحديد فيمكّتنا أن نوجزها فيما يلي :

- ١ - أن علماء القرنين السابع والثامن الهجري كانوا ذوي شخصية فذة تستحق الدراسة : لأنهم شملوا بمعنايتهم واهتمامهم القرآن وكشفوا عن بلاغته .
- ٢ - توجيه البحث لكشف عن جهود أولئك العلماء الذين أسهموا بتصنيف كبير في الدراسات البيانية القرأنية ، إذ كان اهتمام الدارسين في تلك الفترة موجهاً نحو القرآن .
- ٣ - تميُّز هذه الفترة عن غيرها بفرازه الاستشهاد من القرآن الكريم .
- ٤ - كون مؤلفات تلك الفترة مصادر أصلية للدراسات البيانية عامة ، وللدراسات البيانية القرأنية بصورة خاصة .
- ٥ - يمثل هذا العصر اتجاهًا في وضع المصطلحات البلاغية ووضعها الأخير ، ومنها البيان الذي أردنا التعرف على ملامحه في تلك الفترة ، لنرى إلى أي مدى سار وكيف استقر ، وأثر أولئك العلماء على تطوره .

ولذلك كله - وغيره من الأسباب - بدا لنا من الضروري أن نتناول البيان القراء في القرنين السابقي والثامن الهجريين لنعيد ربط الدراسات البيانية بالقرآن بعد أن انفصلت عنه في الدرس البلاغي ، وملئ هذه الفجوة في المكتبة البلاغية والقراءية .

وذلكم - في الواقع - هو هدفنا الأساسي من هذا البحث ، ونحن إذ نطرق هذا المجال من جديد - في الدراسات القرائية لتأمل أن تتدفق أفلام لتعانق أهدافنا في مواصلة البحث وأمتداد الجهد .

المسعويات التي واجهتني خلال البحث :

ولقد واجهتني مشكلات وصعوبات - وما يخال منها بحث - وصعوبة هذا البحث ترجع إلى التالي :

١ - ضخامة المؤلفات البيانية التي تناولتها ، وأنه لو أراد الباحث استقصاء جميعها لاستغرق عمره ثم لم يحكم أمره ، وبهذا اقتصرنا من كل مؤلف على أصوله ، والرمز إلى بعض قصصه .

٢ - ورود المباحث البيانية في هذه المؤلفات مختلفة ، فالبيان القرائي مبني على تضاعيف كتبهم ، ومنتشر في إثنانها ، وضال بين الأمثلة ، لا يوجد إلا بالتأمل الطويل والتصفح الكبير .

٣ - يجمع البحث بين طوائف متعددة قامت عليها دعامة البيان القرائي من نقاد وبلغيين ونحوين ومتكلمين وفسرسين وأصوليين وكتاب وشعراء وأدباء ، وذلك يستلزم من الباحث الإطلاع على مصادر متعددة تشمل البلاغة والنشوة واللغة والأدب والتفسير والفقه والأصول : لاستخراج بيان القرآن من بطون تلك المصادر .

٤ - ويُحتمّ علينا البحث كذلك - الرجوع إلى مصادر القرنين الستة الأولى التي كانت زادًا من جاء بعدم ، ومعيناً لا يتضمن لما وضع من مصنفات أخرى في القرنين السابع والثامن الهجريين .

٥ - تداخل آراء علماء القرنين السابع والثامن وتداخل اتجاهاتهم ، بسبب اختلاف مشاربهم ، وتعدد ثقافاتهم ، ف منهم من يسعى لإبراز الجمال في النص ، ومنهم من يلتقي بقلقه في تحديد القواعد وتشعب المسائل ، ومنهم من يجمع بين جمال النص وأثره في النفس ، وتنوع التفسيرات .

٦ - قد يجد الباحث شيئاً من العنت حين يطالع على كتب أولئك العلماء من تلك الفترة ليجني منها ما يفيد ، وقد يبذل الجهد العظيم ، ثم لا يحظى إلا بشيء زهيد لا يتحقق وما بذل من

جهد .

٧ - وتمتد صناعة البحث أيضاً - إلى الفترة الزمنية الممتدة طولاً في التاريخ على مدى قرنين من الزمان ، والواسعة لساحة جغرافية تشمل الشرق والمغرب . وهذه الفترة الزمنية الطويلة التي تناولتها بحكم هذا الطول والامتداد التاريخي ، بها كثير من الجهود البينية التي تحتاج إلى طاقة هائلة ، وجهد متصاعدة كبيرة ، وعلوم شتى لرسم الخبط الرئيسي للبيان القرآني في تلك المرحلة ، وإبراز شخصية الآية البينية في ذلك الوقت الخروج بقراءة جديدة لتراثنا .

خطة البحث ومنهجي في الكتابة :

وقد استطعنا بعد دراسة مصنفات علماء القرنين السابق والثامن - المطبوعة منها والمخطوطة - أن نحصر البحث في تمهيد وبيان :

أما التمهيد فينقسم إلى قسمين . تحدثنا في القسم الأول منه عن تاريخ كلمة «بيان» وتطورها منذ نشأتها في الاستعمال اللغوي ، ومدلولها القرآني إلى أن استقرت في الاصطلاح البلاغي ، وبيننا أن البيان في المصادر السابقة كان واسعاً فضفاضاً ، يتناول ما في القرآن من المعاني والبيان والبعد ، ثم انحصرت أصوله في أساليب التشبيه والمجاز والاستعارة والكتابية ، وذلك على يد السكاكيني (ت ٦٢٦ هـ) الذي خصّمن البيان ، وجعله قسماً مستقلاً من أقسام البلاغة .

ونحن ندور في بحثنا في جانبيه النظري والتطبيقي على هاتيك الأساليب ، ولم نسمح لبحثنا أن يتناول البيان بمعناه العام الذي يجمع بين البلاغة ككل ، ولكننا اقتصرنا على المعنى الضيق الذي وضعه السكاكيني ، ولستنا بذمّة في ذلك ، فهذا هو المنهج المعمول به في قاعات الدرس حتى وقتنا الحاضر .

وقد اقتضينا هذا التمهيد أن تتبع في قسمه الثاني الدراسات البينية المبكرة للقرآن منذ القرن الثاني الهجري حتى أواخر القرن السادس الهجري ، عرضتنا فيها لنتائج السابقين في الدرس البيني القرآني من غير استقصاء لما فيها ، ولكننا اكتفيت باختلاص النتائج المتعلقة بالبيان .

وقد جاء البيان في تلك المؤلفات البينية المبكرة شاملًا يتناول فنون البلاغة جميعها .

وهذه المؤلفات البينية المبكرة جاءت على الترتيب التالي : مجاز القرآن لابي عبيدة (ت ٢١٠ هـ) ، ومعاني القرآن للفراء (ت ٢٠٧ هـ) ، وتأويل مشكل القرآن لابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) ، وإعجاز القرآن للواسطي (ت ٣٠٦ هـ) ، والنكت في إعجاز القرآن للرماتي (ت ٣٨٤ هـ) ، وبيان

إعجاز القرآن الخطابي (ت ٢٨٨ هـ) وأعجاز القرآن البالغاني (ت ٤٠٣ هـ)، وتألخيص البيان في مجازات القرآن للشريف الرضي (ت ٤٠٦ هـ)، ولائل الإعجاز لعبد القاهر (ت ٤٧١ هـ)، والجمان في تشبيهات القرآن لابن ناقيا البغدادي (ت ٤٨٥ هـ)، والكتشاف الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ). وقد جاء البيان في هذه المؤلفات شاملًا بتناول فنون البلاغة جميعها مُنفِّذًا على ما في القرآن من شواهد.

وكان الهدف من هذا القسم من التمهيد ما يأتي :

- ١ - أن ترى أين وقف السابقون في موضوع بيان القرآن.
 - ٢ - رصد المناهج البيانية التي سلكها السابقون في كتابهم.
 - ٣ - وليتضح لنا أي تلك المنهج ارتكبها ذوق علماء القرنين السابع والثامن الهجري.
 - ٤ - ول يكن هذا القسم من التمهيد - كذلك - مقدمة لدراسة المؤلفات البيانية في الفترة التي حدثناها لموضوع بحثنا ، فتواصل مسيرة البيان من حيث توقف السابقون ، حتى يكون للبحث قيمة في ساحة البيان فيه بما توصلنا إليه من نتائج.
- وبعد أن تكلمت في التمهيد عن تطور علم البيان ، وتاريخ الكتابة في البيان القرآني ، رأيت من اللازم على أن أعرّف بالشخصيات البيانية في القرنين السابع والثامن ، وذلك من خلال مؤلفاتهم التي تناولت البيان القرآني ، مبيناً أهميتها وقيمتها الأدبية ، وقصدت من وراء هذا العرض الموجز بيان أمرين :

الأول : بيان مساهمتهم في تطوير البيان القرآني ، والطريقة التي سلكوها في معالجته.

الثاني : وضع صورة واضحة عن اتجاه علماء هذين القرنين ، وبيان الصيغة التي يشعرونها لنظرية البيان ، ومدى ارتباطها بالقرآن الكريم.

وهذا هو دور :

الباب الأول :

المؤلفات البيانية في القرنين السابع والثامن الهجريين ومنهاج مؤلفيها،
وهذا الباب قسمته تقسيمًا نوعيًّا يطوي كل قسم مجموعة من العلماء ذوي المزاج الواحد ،
تحت موضوع واحد يضمهم ، وإن اختلف الزمان أو المكان : لأن تناولهم تنتشر من نوع واحد ،
وهي كما تدرجت في أقسام الباب ليعلم أثر كل طائفة أو مجموعة من تلك الأقسام على البيان
العربي عامه ، والقرآن يوجه خاص . وانتهينا في هذا الباب إلى أن البيان مما وازدهر على

أيدي البلاغيين ، والملكتين ، وحمد وتقى على أيدي الشراح والملخصين ، ثم يَعْثُثُ في الحياة من جديد الأدباء والنقاد .

ويقع هذا الباب في خمسة فصول :

الفصل الأول في : الإعجازيين والبلغيين ، ويضم ستة مؤلفات لخمسة علماء هم : الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) صاحب كتاب «نهاية الإيجاز في دراسة الإعجاز» ، و«التفسير الكبير» المعروفة بـ«مفاتيح الفيسبق» ، والسكاكني (ت ٦٦٦ هـ) صاحب كتاب «مفتاح العلوم» ، وأبي ميثيم البحرياني (ت ٦٧٦ هـ) صاحب كتاب «تجريد البلاغة» ، والطبيبي (ت ٧٤٣ هـ) صاحب كتاب «البيان في علم المعانٰي والدبيع والبيان» ، والعلوي (ت ٧٤٩ هـ) صاحب كتاب «طرائق المتنفسين لأسرار البلاغة وعلوم الإعجاز» .

أما الفصل الثاني : فتكلمنا فيه عن الشرح والملخصين ، وهم : الخطيب القزويني (ت ٧٣٩ هـ) صاحب كتاب «اللخين في علوم البلاغة» ، والإيضاح في علوم البلاغة ، والسيكي (ت ٧٧٧ هـ) صاحب كتاب «عروض الأفراح» ، والباجري (ت ٧٨٦ هـ) صاحب كتاب «شرح اللخين» .

أما الفصل الثالث : فتحددنا فيه عن مؤلفات اللغويين والنجاه ومنها : كتاب «البيان في علم البيان المطلع على إعجاز القرآن» لابن الزمكاني (ت ٦٥١ هـ) ، و«رسالة الفصاحة» لزين الدين محمد بن أبي بكر الرازي (ت ٦٧٦ هـ) ، و«إشارات والتبيهات في علم البلاغة» لمحمد بن علي الورجاتي (ت ٧٢٩ هـ) ، و«البحر المحيط» ، و«النهر المادر من البصر» لأبي حيان الأنداسي (ت ٧٤٥ هـ) والدر المصنون في إعراب الكتاب المكون «السمين الحلي» (ت ٧٥٦ هـ) .

أما الفصل الرابع : فتكلمنا فيه عن جهود الأدباء والنقاد ومنها : «المثل السائِر في أدب الكاتب والشاعر» لابن الأثير (ت ٦٣٧ هـ) ، و«بديع القرآن» ، و«التحرير والتقوير» لابن أبي الإصبع (ت ٦٥٤ هـ) ، و«الانتصاف من الكشاف» لابن المظير (ت ٦٨٢ هـ) ، و«وجه الركن» لابن الأثير الحلي (ت ٧٣٧ هـ) .

أما الفصل الخامس والأخير فتناولنا فيه – قدر الاستطاعة – جهود المفسرين والأصوليين ومنها : كتاب «التسهيل في علوم التنزيل» لأن جزى الكلباني (ت ٦٩١ هـ) و«تفسير أنوار التنزيل وأسرار التأويل» للبيضاوي (ت ٦٩١ هـ) ، ومدارك التنزيل وحقائق التأويل النسفي (ت ٧٠١ هـ) ، وبالباب التأويل في معاني التنزيل» للخازن (ت ٧٤١ هـ) ، و«تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (ت ٧٧٤ هـ) ، وكتاب «الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع الجاز» لابن عبد السلام (ت ٦٦٠ هـ) ، و«القواعد المشتركة إلى علوم القرآن وعلم البيان» لابن القيم (ت ٧٥١ هـ) ، و«البرهان في علوم القرآن» للزركشي (ت ٧٩١ هـ) .

وهذه الكتب التي تناولها البayanين في القرنين السابع والثامن الهجري عليها ملحوظ ، وهو أن معظمها تناول مباحث البيان تناولاً مختلفاً ، وكانت ترمي كلها إلى بيان ما في القرآن من صور البيان وجوه الإعجاز ، فلا عجب إذن – أن نورد ضمن هذه المؤلفات كتاباً فيها الكلية للبحوث النقدية ، وأخرى فيها الكلية للبحوث اللغوية ، وثالثة فيها الكلية للبحوث الفقهية بالأسوالية ، إذ أنها جميعاً ترمي إلى دراسة هذا الجانب البayanى الممتاز في القرآن الكريم .

ونحن حين تناول البيان في هذه الكتب لم نتفق عند حدود العرض ، وإنما أردنا أن يكون ذلك سبيلاً إلى الدراسة والتحليل ، وركزنا على الملحوظات البayanية التي انصببت على شواهد القرآن ومعالجتها من خلال تحليلنا تلك الكتب ، مع التعريف بحياة أو لفظ المؤلفين ومخالفتهم ، بختلف جهودهم وأثارهم المتصلة بالقرآن ، وإبراز أهم المعابر الجمالية التي اصطبغوها في معالجتهم للنص القرآني .

كما أن دراستنا لهذه المؤلفات تعتمد فيما تعتمد على أسلوب الموازنة بين السابق واللاحق ، ومدى التوافق والاختلاف فيما بينهم ، وحظ كل منهم من الابتكار أو التقليد ، ومدى تأثره بمن سبقة ، والتأثير فيما بعد ، مع التركيز على كل مساعدة مبتكرة أدت إلى تهضئة الدراسات البayanية والقرآنية . وفي كل ذلك كان رأيي يطل في تقييم تلك الجهود ، والإشارة بما يستحق الإشادة ، وفقد ما رأيت فيه يُعدّ عن طبيعة البحث البayanى من غير تعصب أو هوى .

ويقيناً أن المؤلفات التي تناولت الدراسات البayanية للقرآن في القرنين السابع والثامن كانت كبيرة وكثيرة تأخذ أبعاداً هائلة ، تجعلها أكبر من أن يتم بها باحث ، أو تطوى بين دفتري رسالة ، بذلك حرصنا أن يكون هذا الباب – الأول – أقرب إلى الشمول ، فوجهت وجهي شطر الشخصيات التي تحمل أسماء كبيرة ، وتمثل البيان بعناصره المختلفة ، وتملك أكثر من غيرها على النقاد إلى الأعمق ، فتركت بصماتها الباقية في تاريخ البيان القرآني .

واستبعدت كل ما هو جانبي ، وغير أصيل حيث لا يشكل خطراً ، ولا يترك آثراً في تاريخ البيان القرآني ، فقد يكون العالم قمة في التفسير أو النحو غير أنه في التوجيه البayanى للنص القرآني صدىً لغيره من العلماء السابقين – كالنسفي مثلاً الذي كان صدىً للزمخشري – نحرىً بنا إلا يدخل نطاق بحثنا إلا دخولاً هامشياً .

وقد يكون الرجل ذات منزلة في تاريخ البادئات العربية ، غير أنه لا ينتبه إلى الشواهد القرآنية ، لاحظني منه باهتمام يذكر كالقرطاجمي صاحب كتاب « منهاج البلقاء وسراج الآباء » (ت ٧٣١ هـ) فاستبعده من البحث على الرغم من أنه ابن تلك المرحلة موالداً أو نسبياً .

وقد يكون الرجل معدوداً من علماء النحو والبلاغة ، غير أنه في آراء البلاغية لم يكن

يُعدى دور الناقل البردُ لآراء السابقين دون إضافة تذكر له فافتنته ، كجدر الدين بن مالك (ت ٦٨٦ هـ) صاحب كتاب «الصباح في تلخيص المفتاح» الذي اتخد سمة المدون في إيجازه ، وقلة ما يقدمه من الأمثلة القرآنية . ومن ثم لم يضم نطاق البحث إلا من كان له أثر في تطور الدراسات البيانية القرآنية ، والارتفاع بها نحو النضج والكمال .

هذا وإن يكون تناولنا للشخصيات على مستوى واحد ، فقد تطول دراستي لشخصية من الشخصيات ، وتقتصر مع آخر ، والمغول في هذا أو ذاك التي أميل إلى الإطناب في تناول الشخصية التي لم تسبق دراستها ، أو لم تحظ بعناية فائقة من الباحثين ، وكذلك الشخصية المبتكرة في المجال البياني ، بينما فضلت الإيجاز مع الشخصية التي سبق تناولها .

فالطبيعي والعلوي وابن القيم يملئن حيزاً أكبر من السكاكي والقرزيوني والتقتذاني ، والزركشي يستوعب أوراقاً أغزر من ابن عبد السلام : لأن الزركشي لم يبحث من قبل ولم يدرس بعناية ، وأبو حيان الاندلسسي وتلميذه السمين الطبّي ظلا منهجاً ممنفاً ومحظياً حتى اليوم ، ولم يقصد باعتبارهما بالغرين ، فاستحقا منا العناية والتقصيل مما استحق غيرهما كالسيكي أو الرازي لكترة الدارسين لهما ، وتعدد الدراسات التي عرضت لهما . وابن أبي الإصبع ، وابن الأثير ، وابن المنير أطلنا الحديث عنهم لدورهم الإبداعي وأسلوبهم المبتكر في تناول البيان القرآني .

ويذلك تكون قد درستنا كثيراً من الكتب والشخصيات البيانية التي لم تعرف لدى كثير من الباحثين ، وحللناها تحليلًا هادئاً مستقيضاً ، واستخلصنا وجهات النظر البيانية لأصحابها ثم طبقنا ذلك كله على النص القرآني وهذا ما سيظهر في الباب الثاني .

وكان الباب الثاني في : «موضوعات البيان في القرآن الكريم»

وهو الجزء التطبيقي من البحث . ويجمع هذا الباب أمهات الموضوعات التي ركز حولها القرآن ، وأفاض في ذكرها من عقيدة وتوحيد وعبادات ونبوات وقصص وعِداد ، وهذه الموضوعات ركائز أخرى كثيرة تتدرج تحتها ، وهي محاولة لاستجلاء البيان القرآني في وصف هذه المسائل في إطار من الوحدة المؤسورة . وما دعاني لذلك هو أن البلاغيين لم يقفوا عند هذه الموضوعات الوقفة البيانية الواعية المنشودة ، بل ذهروا بعالجون البيان القرآني معالجة جزئية ، دون أن يبسطوا نطاقات البيانية الكبرى ، ويستمدو منها المعانى التي يهدف إليها القرآني .

وقبل استخدام هذا المنهج وضعته في اعتباري أعمال السابقين ، ولكنني لم أتوقف عندها بل انطلقت منها لأصل إلى منهج قادر على اكتشاف ظواهر جديدة موجودة في النص القرآني .

وجاء هذا الباب في خمسة أصول :

الفصل الأول في : الله جل جلاله والكون ، وقد تكلمنا فيه على محاور ثلاثة : الله صفاتاته وأفعاله ، والكون الدال على قدرته ، وتصور المشركين الفاسد عن الخالق والرد عليهم ، وقد فصلنا القول في هذه المحاور من خلال التصورات القرآنية وتوجيه العلماء لها ، وانتهينا إلى أن القرآن صور صفات الله تصویراً بيانيّاً حتى يقرب لحضرتكم عظمة الخالق ، ويشعرنا بقوته وهيمنته على الكون الذي يحمل في طياته دلائل قدرة الله ، والذي جعل القرآن عناصره حية شاحنة أمام الأيسار ليثير عواطف المثني وذاته ليقبل على توحيد الله .

أما الفصل الثاني ففي الحياة الدنيا ، وقد أفصنا الحديث فيه عن تصوير القرآن الدنيا على أنها مجرد زينة ومتاع ، وذلك حتى لا تقتصر بالرّيّوف منها وتنطلي إلى الآخرة ، ف تكون الدنيا ممراً لآخرتنا . ولم ننفل ما في الحياة الدنيا من نماذج وصور بشريّة منها : المؤمنون والكافرون والمنافقون واليهود والمرأة وقد تم هذا التناول تحت ظلال البيان القرآني .

أما الفصل الثالث ففي ميدان التربية والتشريع ، وتحدثنا فيه عن ثالث أقسام هي : العبادات وما فيها من صلاة وصيام ، والأذاب والسلوك ، ومسؤولية الإنسان القربي وخطورة الكلمة التي ينطق بها ، والمثال في القرآن ، وبيننا أن عرض التكاليف في أسلوبها التربوي والبيان يجعل المستمع أكثر إدراكاً واستجابة لطلوب الله منه .

أما الفصل الرابع ففي التخصص القرآني ، وقد تكلمنا في هذا الفصل على قصص الأنبياء من آدم إلى محمد عليهما السلام ، وقصص أخرى كقصة صاحب الجنة وأصحاب الجنة ، وقد لاحظنا في هذا الفصل أن القرآن يمزج بين الهدف الديني والهدف البياني فيما يعرض من صور بيانية ، وأنه يستخدم البيان في التخصص ليؤثر في الوجدان ، وانتهينا - كذلك - إلى أن التخصص في البيان القرآني سبق للتاكيد على كثير من القضايا الدينية كأهمية التوحيد والبعث ، وليس مجرد تسلية أو قتل أوقات الناس .

والفصل الخامس والأخير جاء بعنوان « الدار الآخرة في البيان القرآني » ، وقد تحدثنا فيه عن وقوع أمر الله ، ومرحلة الدمار الكوني ، ومرحلة البعث والنشر ، وأحوال الناس النفسية والجسدية يوم القيمة ، ودقة الحساب وعدلة الجزاء ، ومرحلة المصير الأبدي من نعيم الجنة وعذاب النار ، وانتهينا إلى أن كل ما جاء في هذا الفصل من صور بيانية ، فإنما جاء على سبيل التقرير ، فيقدر كل إنسان لنفسه ويختبر أحسن السلوك في الدنيا وبين أعماله ، ولا يغفل عن حصاد سينجنيه في الدار الآخرة .

اما المنهج الذي استخدمناه لإخراج هذا الباب بهذه الصورة ، فقد كان منهجه شافعاً ، ذلك

لأنني قمت بمنهج استقرائي تتبع في الشواهد القرآنية لاستخلاص موضوعات البيان في القرآن ، فجمعت الشواهد القرآنية التي تناولها البayanيون ، ثم قمت بتصنيفها تصنيفاً موضوعياً في موضوعات لم تزل حظها من الدراسات البayanية القديمة أو المعاصرة ، وربتها حسب النزول قدر الإمكان ، وأحاطت احاطة تامة - قدر الإمكان - بكل جوانب الموضوع كما ورد في القرآن بهدف الوصول إلىغاية المرجوة من وراء البيان القرآني ، وإخراج الموضوع في صورة تامة للناس والحكام .

ثم قسمت الآيات إلى مجموعات ، كل مجموعة منها تدرج تحت عنوان يشتملها جيمعاً ، وهذه المجموعات تكون بحثاً مسلطاً متيناً عن غيره ذات موضوع واحد وهدف مشترك . ثم حاولت أن استكشف أراء البياتيين المختلفة في الآية الواحدة ضمن الموضوع الواحد ، وأوزان بين كل موقف وتأثير اللاحق بالسابق ، أو ما أبديه اللاحق على السابق ، وبين من وافق ومن خالف ، وإذا اتفق الجميع على رأي أقول : أجمعوا ، وإذا اضطربوا قلت : اضطربوا

وحاولت ما وسعنتي المعاولة الكشف عما في الآيات من صور بيبانية متعاوية بما لديها من إمكانات فنية لرسم لوحة شاملة للبيان في نص قرائي متكمال ، وذلك في سياقها العام من الآيات السابقة واللاحقة : حتى لا تكون الآية منفصلة عن جاراتها ، لأنها لا يمكن فصل الآية عن سياقها العام الذي توجد فيه – كما فعل القدماء – فالسياقان معاً يتفاعلن ، ومحصلة هذه التفاعلات تتৎکس على الصورة البينية ، واستيعاب النص ككل : ذلك لأن الصورة تستند علاقاتها بجاراتها من الكلمات السابقة واللاحقة ، فتكتسب شعاعات ، اضافات جديدة .

وما دون ذلك من المصطلحات البالغة لا يشققنا كثيراً : لأننا لانضبعها في المنزلة الأولى ، وإنما نكتفي فقط بمجرد الإشارة إليها فحسب ، لغير من فوتها إلى الفرض الأهم من التعبير بالصورة البالغية ، مبيناً ما فيها من تطرق جمالي أو تأثير نفسى أو شحنة انتفاعية .

ولقد حاولت تجنب المزالق التي وقع فيها بباينور تلك الفترة ، من حيث إغراقهم في الشكليات وتقطفهم الذي يلوى عنق الآيات ، واقتصرارهم على الدراسة الجزئية وتجاوز ذلك إلى عملية الكشف عن أفكار النص وحملاته ، ذلك لأن طريقة علماء تلك الفترة في تناول البيان القرآني لم تعد قادرة على الاحتياط بجميع حقوقها منها كانت ذات حظ من النكaka والاشمولي : لأنها مشروطة بعصرهم ، ولو سرنا على نفس الطريق الذي سلكوه أغلبظننا أنتا سوف تكرر ما قالوا ، وإن نتنبه إلى آفاق جديدة سماها عصرنا المعاشر .

أما البيان الذي ننشده فهو الذي يمكننا من رؤية التفاصيل والجزئيات في شكل كلٍّ

موضوعي يعطي مذاً جديداً لانتشار تعاليم هذا القرآن في وحدة موضوعية ، ذلك لأن التوفّر على موضوع واحد معين ، وتنبع موارده في القرآن كله – مكية ومدنية – لتجليّ جوانبه كلها يهيء له من البيان والدراسة ما ليتهيا له لو ذُرّ مجزئاً ، أو التقطت صوره من الآيات لتكون مجرد شاهد كقاعدة من قواعد البيان – لا غير – كما أن هذا النوع من التناول في نظرنا يفسّح المجال أمام الدارسين لتجليّ عناصر البيان القرآني بصورة أعمق مما لو تناولناها مفككة ، وأعتقد أن إخراج البيان بهذه الصورة يستلزم من الباحث تكتيرً من الجرأة والشجاعة ، والقدرة على الجمّ بين النص والمصطلح والضرب بعصمه في المجهول للوصول إلى نتائج جديدة .

وأخيراً جاء دور الخاتمة التي لخصتنا فيها ما في البحث من أفكار ، وأبرزنا ما فيه من النتائج التي توصلنا إليها ، وما اقتربت من توصيات لمواصلة الجهود حول الدراسات البليانية للقرآن الكريم . وفي أثناء البحث ضبطت الآيات القرآنية من المصحف الشريف ، وخرجتها ، ودلالت على مواضعها من القرآن ذاكراً السورة ورقم الآية ، وخرجت الأحاديث النبوية ، ونبضت الشعر إلى أصحابه ، وغيره من الأقوال المأثورة : ليسهل الرجوع إليها في مطانها ... هذه هي الخطوات الكبرى لموضوع البحث ومنهجه ، وهو متنه أملته علينا طبيعة الموضوع .

أما عن المصادر فهي كثيرة ومتعددة تبعاً لطبيعة البحث ، وكانت كتب الملاحة والتقدمة في المصادر ، وقد طبقنا بمعظمها ، ولكن المادة الرئيسية لبحثنا فهي الكتب البيانية في القرنين السابع والثامن الهجريين - المخطوطة منها والمطبوعة - ولم نعتمد على غيرها إلا عند الضرورة والتوجيه .

ووجهات كتب التفسير واللهم والأدلة لتكون عوناً على فهم أوجه النظر في جهود المفسرين والأصوليين في الدراسات البينية للقرآن الكريم ، ثم ذلك التراث الشامخ الذي تركه البلاغيون أنفسهم في البيان خالصاً له .

واستعنا بكتب التاريخ والترجم في تصوير تاريخ الشخصيات اليابانية وسيرتهم وأثارهم ، كما حُمِّلَ على البحث أن أرجع إلى الرسائل الطبيعية المخطوطة التي تُثْبِتُ بصلة إلى هذا البحث من قريب أو بعيد ، حتى ننتهي إلى نتائج مليدة ، ويخرج البحث في صورة جديدة .

ولم يستغنِ البحث عن الاعتماد - كذلك - على بعض معاجم اللغة . وكتب الأعلام ، وأساليب النزول ، وقصص القرآن ، بالإضافة - إلى لمحات من بعض كتب النقد الحديثة ، كان فيه

ويعد ...

فلاعنى أكون بهذا البحث قد رسمت الخطوط العريضة للدراسات البayanية في القرنين السابع والثامن الهجريين ، ووضعت يدي على بعض المقاييس البayanية والجمالية التي أبرزت التعب القرائي في تلك الفترة من الزمان ، وما أنا إلا مجتهد يُخاطب ، ويصيّب ، والكمال لله وحده .

«**وَمَا تَرْدِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَرْكِلْتُ وَإِلَيْهِ أَنِيبٌ**»

السيد حسونة

التمهيد

* لحة عن تطور مصطلح البيان في تاريخ البلاغة العربية

* الدراسات البيانística المبكرة للقرآن الكريم .

المؤود

[١]

لحة عن تطور مصطلح «البيان» في تاريخ البلاغة العربية

نحاول في هذا التمهيد أن نتتبع كلمة «بيان» في أثناء سيرها في تاريخ البلاغة العربية ، حتى نقف بها عند المعلم الرئيس والمدلالة الاصطلاحية المفهومها ، ووضعها العلمي الأخير ، ويقتضي هنا تمثيل معانٍ لفظية «البيان» ، وتجسيد مدلولاتها لغة أن نلتعم أصول حروفيها وصيغ اشتراقها .

وردت صيغة الفعل الماضي الثلاثي المدادة أجرف ، عينه في الماضي ألف ، وفي المشارع ياء ، باء ، بان : بين ، بياناً : اتضاع ، وهو بين ، جمعه أبيانا ، وبينته ، وبينته ، وأبنته واستبنته : أوضحته ، وهرقته ، قيابان وبين ، وبين ، وأيابان ، واستبيان ، كلها لازمة متعددة (١) . واستخدمو «البيان» في معنى الفصاحة والحسن وكلام بين فصيح ، والبيان : الإقصاح مع ذكاء ، والبيان من الرجال : السمع للسان الصريح الطريف العالي الكلام ، القليل الرتج ، وقللن أبين من قلدن : أي أفصح منه ، وأوضح كلاماً ، ورجل بين . فصيح ، قال الشاعر : قد ينطّقُ الشّعرُ الْغَيْبِيُّ وَلَاتَسِيْنَ * على البَيْنِ السَّفَاكُ وَهُوَ خَطِيبٌ (٢) قلبيان - إذن - في معناه النوي لا يخرج عن الكشف والإيضاح ، واظهار المقصود بابلغ لفظ وهو من حسن الفهم وذكاء القلب مع الحسن ، وأصله الكشف والظهور ، لأن مدار الأمر والغاية التي يجري إليها القائل والسامع إنما هي الفهم والإيقاف فبأى شئ يلتفت الإفهام وأوضحت المعنى بذلك هو البيان . (٣)

والرغم من أن هذا المعنى يقترب من الاصطلاح البلاغي غير أنه ليس واضحاً ، لأن البيان لم يأخذ صورته الأخيرة إلا في القرن السابع للهجرة على يد السكري ت ٦٢٦ هـ ، وذلك لأن العاجم لا تعني إلا بدلالة الانفاظ الوضعي في كثير من الأحيان .

مدلوا «البيان» بين يدي القرآن والمحدث الشريف :

يذكر الباحث لفظ «البيان» في أي الذكر الحكيم ثيناً وبخمسين ومائتي مرة بصفتها المختلفة ، في الماضي والمضارع ، والمفرد والجمع (٤) وتزد لفظة «بيان» في القرآن بصورة مستالة ثلاثة مرات ، في قوله تعالى **﴿هَذَا بَيْانٌ لِلنَّاسِ، وَهَذِهِ وِعْدٌ مُؤْكِدٌ﴾** (٥)

(١) انظر : القاموس المحيط للغيريوس أبيدري : مادة بين من ١٤٢٦ . ط مؤسسة الرسالة - بيروت سنة ١٩٨٧ . وسان العرب لابن منظور المصري ط دار المعارف مصر .

(٢) يعني : يحيط من الكوى ، والبيان السفاك : البليغ المادر على الكلام .

(٣) الأثر : مواد البيان لعلى بن خلف من ١٩٦ ، ومن ت تحقيق د. حسين عبد الطيف ، ط : جامعة الفاتح طرابلس سنة ١٩٨٧ .

(٤) الأثر المجم المهرس للفاتحة القرآن الكريم . وضع محمد فرازد عبد الباطن مادة : بين : مد : بيروت .

(٥) سيرة آل عمران آية [١٢٨] .

وتوله تعالى : « خلق الإنسان علّمه البيان » (١) ، و قوله تعالى « ثم إن علينا بياناً » (٢) .

وينعقد رأي المفسرين على أن الفعل « بين » هنا يقيد الظهور والوضوح ، وهو نفس المعنى الذي ترسّخ بناؤه ، واستوى مدلوله في معاجم اللغة العربية . وإن كانت المادة قد وجدت متنفساً في رحاب القرآن الكريم عنه في معاجمنا القديمة .

أما البيان في الحديث الشريف فهو إظهار المقصود وكشفه بقوة الحجة ، والقدرة على الإقناع ، وإثارة الإعجاب ، وشدة وقع الكلام في النفس ، ويزكى ذلك ما رواه ابن عباس عن النبي عليه السلام : « إن من البيان سحر ، وإن من الشعر حكمة » وروى لحمة .

فبعض البيان هنا قدُّم من السحر ، ولما كان معنى السحر كشف الشين في عين الإنسان ، وليس بقلب الأعيان ، فإن مدلول كلمة البيان اصطلاحاً في هذا الحديث الشريف هو ما يمتاز به فن القول من التأثير ومهارة أسلوبه وتلون عباراته ، حتى يصرف القلوب إلى قوله فكانه سحر السامعين بذلك وهو وجده قوله عليه السلام : « إن البيان سحر » (٣) .

ومنه قوله عليه السلام : « الباء والبيان شعبتان من النفاق » ، أراد أنهما خصلتان متضمنة النفاق ، أما الباء - وهو الفحش - فظاهر ، وأما البيان فزاد منه بالذم التعمق في النفاق والتناصح وإظهار التقدم فيه على الناس ، وكذلك نوع من العجب والكثير ، وإن ذلك قال في رواية أخرى : « الباء وبعض البيان » : لأنه ليس كل البيان مذموماً (٤) .

ومن خلال التتبع الدقيق لمصطلح « البيان » في معاجمنا العربية ، وفي القرآن الكريم ، والحديث النبوي ، لاحظنا أنه ياتي مرادفاً لمصطلح البلاغة ، وظل معنى « البيان » على هذه الصورة زماناً طويلاً ، بدءاً من الجاحظ في « البيان والتبيين » ت ٢٥٥ هـ : (الذي عرف البيان بقوله : « البيان : اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى ، وهتك الحجاب دون الضمير حتى يفضم السامع إلى حقيقته ، ويجهل على مخصوصه كائناً ما كان ذلك البيان ، ومن أي جنس كان ذلك الدليل ، لأن مدار الأمر ، والغاية التي إليها يجري القائل والسامع إنما هو الفهم والإيمان ، فبأي شئ يلتفت الإيمان ، وأوضح المعنى ، ذلك هو البيان في ذلك الموضع) (٥) .

والبيان عند الرمانى يلتقي مع وجهة نظر الجاحظ ، فيرى أن البيان هو الإحساس لما يظهر به تميز الشين من غيره في الإدراك ، وقسمه على أربعة أقسام : كلام ، وحال ، وإشارة ،

(١) سورة الرحمن آية / ٤ . (٢) سورة القيامة آية / ٦ .

(٣) انظر : لسان العرب ج ١ من ٤٠٧ ، والنهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير / ١ / ١٧٥ ، ١٧٦ / ١٧٧ ، وبناء الصورة اللغوية في البيان العربي - د . كامل حسن البصيري من ٢٦٦ - ٦ . المجمع الطعنى العراقي سنة ١٩٨٧ م .

(٤) انظر : النهاية في غريب الحديث : ١ / ١٧٥ . (٥) انظر : البيان والتبيين للجاحظ .

وعلامة ، وقسمُ الكلام على وجهين : كلام يظهر به تميّز الشيئين من غيره فهو بيان ، وكلام لا يظهر به تميّز الشيئين فليس بيان كالكلام المخاطط والحال الذي لا يفهم به معنى (١) .

ويأتي ابن رشيق (ت ٤٦٢ هـ) بعد الرمانى ، ينقل عنه ، ولكن أضاف إليه ، ولم يتوقف عنده ، وهو هو تعريفه للبيان : « الكشف عن المعنى حتى تدركه النفس من غير عقلة ، وإنما قبل ذلك ، لأنَّ قد يائى التعقيد في الكلام الذي يدل ، ولا يستحق اسم البيان » (٢) .

ولم يقتصر البيان عند عبد القاهر الجرجانى (ت ٤٧١ هـ) عن ذي قبل ، ولا يزال المقصود منه معنى الكشف والإيضاح عما في النفس ، والدلالة عليه : لأنَّ فعل الفصاحة والبلاغة ، والبراعة ، والبيان ، تدل على معنى واحد متقابِل ، وهو التعبير عن فضل بعض القائلين على بعض من حيث شطقاً أو تكلماً ، وأخبروا السامعين عن مقاصدهم وأغراضهم وراموا أن يتعلّمون ما في نفوسهم ، ويكتشفوا لهم عن ضمائري قلوبهم » (٣)؛ وهو بهذا لم يخرج البيان عن سبيقه .

وظل هذا المفهوم الواسع للفظ « البيان » حتى شاق عنده وانحصر أصوله في معظم كتب البلاغة المتاخرة على أساليب : التشبيه والمجاز ، والاستماراة ، والكتابية ، والبلاغة العربية لم تعرف تلك الأقسام ، ولا ذلك الحصر إلا على يد السكاكي (ت ٦٦٦ هـ) ، الذي خصّص « البيان » ، وجعله قسماً مستقلاً من أقسام البلاغة (المعانى والبيان والبداع) .

وفرق أبو يعقوب السكاكي من الناحية النظرية والتطبيقية بين مباحث البيان والمعانى ، وليس صحيحاً ما ذكره بعض الباحثين من أن الزمخشري أول من ميز بين مصطلح علم المعانى والبيان (٤) ، لأنَّه لم يذكر عنه ذلك، فضلاً عن أنه اكتفى فقط بمجرد الترديد لمصطلح المعانى والبيان ، وجعل البراعة فيما شرطاً لآراءه أن يتصدى لتفسير القرآن ، والغوص على حقائقه (٥) .

(١) انظر : النكت في إعجاز القرآن الرمانى من ٩٨ . تحقيق د . محمد زغلول سلام - ضمن ثلاثة رسائل في إعجاز القرآن . ط . دار المعارف - مصر .

(٢) انظر : المدة لابن رشيق ج ١ من ٢٥٤ . ط . دار الجيل لبنان سنة ١٩٨١

(٣) انظر : دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجانى من ٢٥

(٤) انظر : البلاغة طور وتاريخ ط . ١ . د . شوقى شريف من ٢٢٢ . ط . دار المعارف مصر . وخطوات التفسير للبيان د . محمد رجب البوسيمى من ٢٢٢ . ط . مجمع البحوث الإسلامية ، والبيان في شوه أساليب القرآن د . عبد الفتاح لاشين من ١١ . ط . دار المعارف سنة ١٩٧٧ م

(٥) انظر : مقدمة الكشاف لزمخشري منك .

فالزمخضري كان يطلق على مباحث البلاغة جميعها « علم البيان » ، كما يظهر ذلك من تفسيره^(١) وكثيراً ما يقع كلامه في الكشف تسمية علمي « البيان والدبيع » بعلم البيان ، وقد يسمى علم البلاغة الثلاثة بعلم « الدبيع »^(٢) ، وهذا يدل على خلط الزمخضري بين علوم البلاغة الثلاثة ، وأن ما ذكره عن علمي « البيان والمعنى » في كتاباته لا يعنو أن يكون مجرد تسمية أطلقها دون أن يوضح حدأ لها أو يفرق بينهما من الناحية النظرية والتطبيقية على نحو ما فعل السكاكي ، ويندك يحق لنا أن نقرر هنا أن السكاكي أول من حدد علم البيان وحصره في الصورة البيانية من تشبيه ومجاز وكتابية .

ونحن كذلك حين نردد البيان في هذا البحث نزيده مزيداً في جانبه النظري والتطبيقي لذلك « البيان » الذي وضع قواعده ، وضوابطه السكاكي في دراسة هاتيك الأساليب ، ومن هنا ترانا لا نتبع لبحثنا أن يستعمل البيان بمعناه الألين الراسع ، والشامل ، ولا نأخذ بهذا التعميم لمعنى البيان الذي يجمع فنون البلاغة كل ، ولكننا نقتصر على المعنى الضيق للبيان الذي وضعه السكاكي ، وجعله عنواناً لعلم له أصول وقواعد يمكن بواسطتها إبراز المعنى الواحد بطريق مختلفة بعضها أوضح من بعض ، مع مطابقة كل منها لمقتضى الحال ، واستدعاً في ذلك فمعظم من جاء بعد السكاكي سار على نهجه وردد آفوه ، وأخذ بذلك رواد البلاغة والنقد حتى عصمنا الحاضر^(٣)

وبعد فهذا هو مصطلح « البيان » في تاريخ الدراسة البلاغية ، أوجزنا معانيه في إطاره المتتابع ، لنعرف أين تتضاع بحثنا منها ، ولا يهون أحداً هذا التطاويف السريع ، إذ إن ذلك من شأنه أن يلقي ضرباً على معنى « البيان » بين القدماء والمتاخرين من وجهه ، وبعيداً اليبحث في التاريخ ومتتابعة حركة نمو البيان من وجه آخر ، فيتمكن من الوصول إلى أجل النتائج آخر الأمر .

واباً كان الأمر فإن رغبة الباحث تجتمع في دراسة البيان بشتي جوانبه النظرية والتطبيقية دراسة أصلية في مصادرها ، جديدة في مناهج دراستها وأهدافها ، لنحسن الأمر في موضوع البيان القرآني الذي جرّدنا له هذا البحث .

وإيماناً منا بأن الصورة الأخيرة التي وصلتنا عن البيان القرآني لا يحسن السكوت عليها ، أو الوقوف عندها : لأنها - من وجهة نظرنا - لم تتضاع بعد ، وهذا ما سنذكره خاتمة هذا التمهيد .

(١) انظر : الكشف ج ١/١٧١ ، ج ٤٢/٤ ، ج ٤/٨ ، ج ٢/٢ ، ج ٢٨٤/٢

(٢) انظر : عروس الأفراح السنكري ١٥١/١

-٢٤-

(٣) انظر الإيضاح وشرح التفسيس

الدراسات البيانية المبكرة للقرآن الكريم

أجملنا في الجزء الأول من هذا التمهيد تطور كلمة «البيان» منذ نشأتها في الاستعمال اللغوي، إلى أن استقرت في الاصطلاح البلاغي، دالة على أحد علوم البلاغة كما عرفها العرب، ذلك هو علم البيان الذي يبحث في إبراد المعنى الواحد بطريق مختلفة بازدياده في وضوح الدلالة والتقصيمان، ليحتরز بالوقوف على ذلك عن الخطأ في مطابقة الكلام ل تمام المزاد منه^(١).

ونريد في هذا الجزء من التمهيد، أن نجمل القول في تاريخ الدراسات البيانية المبكرة، ليكون مقدمة لدراسة المؤلفات البيانية في القرنين السابع والثامن الهجري في ظل مناخ واتجاهات مؤلفيها، يقيناً منها أن الدراسات البيانية المبكرة للقرآن الكريم، كانت عاملاً رئيساً بين العوامل التي استوت قوة فكرية وذوقاً فنياً، وسمة وضيّة في كيان البيان القرآني وتطور معناه.

ومما لا شك فيه أن القرآن الكريم في الذروة العليا من البلاغة، وأسلوبه مثلى أعلى للأسلوب العربي، وأنه يجب لذلك أن يقدم الشاهد القرآني على غيره من الشواهد الشعرية والثرية، والعجب أن ينذر أن يعيش باحث على كتاب ألم في المرحلة البيانية المبكرة، إلا وجد اسمه يتم عن ذلك، فهذا مجاز القرآن، وذلك معانى القرآن، وثالث تأويل مشكل القرآن وأخر إعجاز القرآن، إلى غير ذلك من التعاونين المعيرة عن الاهتمام بالقرآن وببيانه.

وهذه المؤلفات التي تناولت بيان القرآن في الفترة الزمنية من القرن الثاني إلى القرن السادس الهجري، جاءت لا شك بالمعنى الشامل لمفهوم البيان وهذا ما سنوضحه الآن.

ولستنا هنا - نريد الاستقصاء، فذلك غير ميسور في مثل هذا التمهيد الموجز، ولكننا سنقف عند النتائج والمعالم التي تثير السبيل أمام الباحث وتتهيئه لاستخلاص النتائج المتعلقة بموضوع البيان، مكتفين بمجرد الإشارة للنتائج في مواضعها لضيق المقام.

وأول محاولة بكر ثلقانا في هذا المجال:

(١) ملخص العلوم المكانية من ٧٧.

مجاز القرآن : لأبي عبيدة (ت ٢١٠ هـ) :

الله أبو عبيدة سبب باعث دين مشهور ، إذ سأله إبراهيم بن إسماعيل الكاتب عن قوله تعالى « طلعمها كثأة نقوش الشنياطين »^(١) وإنما يقع الوعد والإبعاد بما عُرف منه ، وهذا لم يعرف . فيجيب أبو عبيدة : بأن الله إنما كلام العرب على قدر كلامهم ، ويقول : أما سمعت قول أمرى القيس :

أيقتلنى والمشر في مضاجعى .. ومستونة زرق كاتيب أغوال

ولم يروا الفول قط ، ولكنهم لما كان أمر الفول ، يهولهم أن عدوا به^(٢) .

ويتضمن من هذه الرؤية أن الحافظ الأساسي على تأليف كتاب « مجاز القرآن » حافظ ديني ، وأن الفرض منه الكشف عما أشكل من معانٍ القرآن ، وتفسير غريبه ، وبين مجازاته في التعبير ، ووجوه نظمه .

وتنوّك لنا الرواية - كذلك - بما لا يتحمل الشك أن أبي عبيدة يهدف من وراء كتابه إلى بيان أن القرآن الكريم نصّ عربي ، يجري على شئن العرب في تعبيرهم ، وأن خصائص البيان العربي باردة في التعبير القرآني إذ يقول : « وفي القرآن مثل ما في كلام العرب من وجوه الإعراب والمعانٍ^(٣) .

وعلى أية حال فقد أثار عنوان الكتاب زوجة بين المحدثين عن تصدى أبي عبيدة من لفظة « مجاز » أيقصد المعنى الأصطلاحى المعروف أم المعنى اللغوى ؟ واختلفوا في الإجابة عن هذا السؤال ، وذهبوا مذاهب شتى^(٤) .

والتناظر في كتاب أبي عبيدة يلاحظ أن القضية الأساسية التي تشغّل باله ، وهي الشىء لها هي قضية المعنى ، وطرق تأثيره ، لأنّه لم يعن بالجاز بما هو قسم الحقيقة ، وإنما عن بمحاجز الآية ، ما يعبر به عن الآية^(٥) . وحيثما يعني بالجاز التقدير التحوى أو التقوى^(٦) ، وحيثما آخر يأتى بمعنى الكناية ، أو التشبيه^(٧) . وما اهتمى إليه أبو عبيدة من أساليب العبارة القرانية ، وأشار إليها : الجاز المرسل^(٨) ، والجاز المقطى^(٩) ، والكتابية^(١٠) ، والتشبيه^(١١) .

(١) سورة الصافات آية / ٦٥

(٢) انظر : وفيات الأعيان لابن خلكان ج ٤ من ٣٢٢ وما بعدها . نشر مكتبة التهفة المصرية .

(٣) انظر : مجاز القرآن لأبي عبيدة ج ١ من ٨ تحقيق د . محمد فؤاد سر��ن ط . مؤسسة الرسالة سنة ١٩٨١

(٤) ملخص الشخصية المصرية في الدراسات البينية د . مصطفى الجريني من ٢٨٤ ط : الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٠م ، والجاز في البلاغة العربية د . مهدى السامرائي من ٢٢ .

(٥) انظر : الإيمان لابن تيمية من ٧٣ ط . المكتب الإسلامي - دمشق .

(٦) (١١٠، ١٠٩، ٨، ٧، ٦) انظر : مجاز القرآن / ١، ١٧٤، ١١، ١٣، ٧٦، ٦٨، ١٥٥، ١١، ١٣، ٧٧ .

وأياماً كان فلقطة « مجاز » المستعملة هذه الاستعمالات المتعددة ، إنما تعنى معنى آخر غير معناها في الاصطلاح البلاغي ، فهي تعني أصل ما وضعت له في اللغة ، أي أنها المعبر ، والطريق الذي إلى فهم مجاز الآيات القرآنية ، وقرنها بمثيلها من كلام العرب .

وهذا وجده يحسب لأبي عبيدة ، لأنه يثبت عروبة البيان وأصالته ، ويدلل على أن نشأته الأولى كانت عربية شاملة ، مما يحسم الشبهة التي روج لها بعض الباحثين من تأثر البلاغة العربية في مهدها الأول بالثقافة اليونانية^(١) ، فضلاً عن أن ما أشار إليه أبو عبيدة من صور البيان في القرآن دعى العلامة من بعده إلى التتبّع إلى موضوع المجاز بمعناه الاصطلاحى وتحصيص حزءٍ من مؤلفاته للمجاز بصورة خاصة ، كما فعل عن الدين بن عبد السلام^(٢) ، وثاني ما نعرض له من دراسات قرآنية ببيانية – هنا – هو :

معنى القرآن للقراء (ت ٢٧ هـ) :

الذى يعتبر يحق امتداداً لأبي عبيدة في مجازه ، ومكملاً له ، غير أن القراء كان يغلب عليه الطابع التحرى ، ولكنه مع ذلك لم يخل من المسائل البيانية ، ومن أهم المسائل البيانية التي أشار إليها ، ويرهن على وجودها في القرآن : التشبيه^(٣) والمثل^(٤) ، والمجاز^(٥) ، والاستعارة^(٦) وأشار إلى أساليب أخرى كإطلاق اسم المفهول ، وإطلاق المصدر وإرادة اسم المفهول .

ولا يهم أن ينس القراء على هذه الأساليب صراحة ، فتفسيره يكشف عن معناها ، فضلاً عن أن هذه الفترة المبكرة من التاريخ لم تعرف المصطلحات البلاغية بمعناها الدقيق .
ويمتاز القراء عن سابقه بخبران موسيقى الناظق القرآن ، ونظمه وزنته ، وأثر ذلك في نقوس سامعيه ، وأنه يثير بالفاظه وأسلوبه وجاذبهم ، ويروع ثنوتهم^(٧) .

ولهذا يعتبر « معانى القرآن » للقراء ، من الدراسات المبكرة التي أشارت إلى المسائل البيانية في القرآن ، والتي كانت أساساً أثيم عليه صرح البيان القرائي بصورة خاصة ، والبحث البلاغي على وجه العموم .

وفي ضوء هذه الملاحظة نتمنى أن كتابي أبي عبيدة والقراء يعتبر النواة الأولى للدراسات البيانية ، فيما أول دراستي تحصلنا في الميدان اللغوي والبلاغي في القرآن الكريم ، كما يعتقدان

(١) انظر : البحث البلاغي في ظلال القرآن - الشحات أبو سفيان - الإيمان - القاهرة سنة ١٩٨٨

(٢) في كتاب الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز .

(٣) انظر : معانى القرآن للقراء ج ٢ / ٢٢ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٢٨ ، ٣٠ . تعلق : محمد على النجار - ط . الدار المصرية للتليف ونشر .

مِرْجِعًا لِكَثِيرٍ مِنَ الْدِرْسَاتِ الَّتِي تَتَهَمُّهَا ، وَظَهَرَتْ بِعْدَهَا ، أَمَّا ثَالِثُ الدِّرْسَاتِ الْبِيَانِيَّةِ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فَهُوَ :

تأویل مشکل القرآن : لابن قتيبة (ت ۲۷۶ھ)

لاحظنا فيما سبق من خلال دراستنا لكتابي ابن عبيدة والقراء ، أنَّهما يهدنان إلى ضبط معنى العبارة القرائية ، والتعرف على أساليبها ، والتي جاءت موزعة في الكتابين على غير نظام ، ولعل السبب في ذلك يعود إلى أمرٍ اثنين أولاًهما : أنَّهما قدما بذلك تفسير الآيات المشكلة ، وثانيهما : أنَّ الاصطلاحات البلاغية بمعناها الدقيق لم تكن قد تحدّثت بعد .

وأياماً كان فكتاب تأویل مشکل القرآن يضع أيدينا على دراسة أكثر تضيّقاً وتميّزاً من الدراسات السابقة ، وإن كان لا يختلف في طريقة معالجته للنص القرائي عن سابقيه إلا من الناحية التنظيمية المتمثلة في الشكليات ، وإطلاق بعض المصطلحات على مسمياتها الحقيقة ، فضلاً عن أنَّ جهد المؤلف الحقيقي ينحصر في الدفاع عن القرآن ، والرد على الطاعنين في بلاغته من المعتزلة والملحدين ، والذين اتبعوا ما تشابه منه ابتداء الفتنة وأيّنما توّرّفوا^(۱) .

ومن هنا كانت القضية الأساسية عند ابن قتيبة هي معرفة قصد القرآن ، وهذه المعرفة لا يمكن الوصول إليها ، إلا بإنعام النظر فيه ، والتعرف على معانيه ، وهذا لا يمكن إلا بالتعرف على مذاهب العرب ، وافتتاحها في الأساليب ، يقول : وإنما يعرف فضل القرآن من كثُر نظره فيه ، واتساع علمه ، وفهم مذاهب العرب ، وافتتاحها في الأساليب «^(۲) » .

وهذه لفتة طيبة من ابن قتيبة يتضمن من خاللها ، أنَّ حصر أساليب العرب ، وأفانيتها في القول وفهمها ، هي الوسيلة لفهم معانٍ القرآن ، وهذا الملحظ الذي - بعد بحق - نقطه أساسية تدور عليها جل الدراسات القرانية ، لأنَّ القرآن نزل بمذاهب العرب في القول والبيان .

ثم بينَ أنَّ بلاغة القرآن راجعة إلى التأليف والنظم ، وسلامة معانيه ، وعنتوية الفاظه ، وأثره في النفس ، وفوانده التي لا تنقطع ، حيث يقول : « وأيانه يعجب النظم - أي القرآن - عن حيل المتكلمين ، وجعله متلوا لا يُصل على طول الشلاوة ، ومسموها لا تُنجي الأذان ، وفضلاً لا يخلق على كثرة الرد ، وعجيباً لا تتقضي عجائبه ، ومفيدةً لا تنقطع فوانده ، وجمع الكثير من معانيه في القليل من لفظه ، وذلك معنى قول الرسول ﷺ « أتيت جوامع الكلم »^(۳) .

(۱) انظر : تأویل مشکل القرآن لابن قتيبة من ۲۲ وما بعدها تحقيق ، ۱ . السيد أحمد صقر - دار التراث ۱۹۷۷

(۲) المصدر نفسه من ۱۰ .

وَمَا يَدْلِيُ إِنْشَاعَ أَبْنَتْ قَيْمَةَ بِالْبَيْانِ فِي الْقُرْآنِ ، تَنَاهَىَ أَنْوَاعُ بِيَانِيَّةِ فِي الْقُرْآنِ ،
تَنَاهَىَ مُسْتَقِيقِيَاً ، كَالْجَازِيُّ الَّذِي صَرَحَ بِوَقْعِهِ فِي الْلُّغَةِ وَالْقُرْآنِ ، وَخَطَّاً مِنْ يَقْولُ بِغَيْرِ ذَلِكِ ،
وَرَفَضَ التَّعْسُفَ فِي التَّأْوِيلَاتِ الْمَجازِيَّةِ ، وَنَادَىُ بِالْاحْتِكَامِ إِلَى مَذَاهِبِ الْعَرَبِ فِي التَّعْبِيرِ
الْمَجازِيِّ وَعَدَمِ تَوْبِيلِ مَا لَا يَحْتَاجُ إِلَى تَوْبِيلٍ^(١) .

وَيَعْدُ أَنْ اَنْتَهِيَ أَبْنَتْ قَيْمَةَ مِنْ حَدِيثِهِ فِي الْجَازِيِّ ، اِنْتَلَى إِلَى أَبْوَابِ الْجَازِيِّ الْمُخْتَلِفَةِ ، وَمِنْهَا
الْاسْتِعَارَةِ الَّتِي تَكُونُ لَهَا أَمْثَالٌ كَثِيرَةٌ مِنْ الْقُرْآنِ ، بَعْضُهَا لَيْسَ مِنْهَا بِمُخْتَصَسِ الْمَعايِيرِ الْبَيَانِيِّةِ
الَّتِي وَجَدَتْ بَعْدَهُ ، فَكَلِّيَّرُ مِنْهَا يَدْخُلُ فِي الْجَازِيِّ الْمُرْسَلِ ، وَالْجَازِيُّ الْمُقْتَلِيِّ ، وَمِنْهَا مَا يَدْخُلُ فِي
بَابِ الْكَتَابِيَّةِ وَالْتَّشْيِيْبِ الْبَلِيْغِ^(٢) . وَهَذَا الْخَاطِلُ لَا يَعْبُدُ عَلَيِّ أَبْنَتْ قَيْمَةَ لِعَدَمِ تَحْدِيدِ الْأَصْطِلَاحَاتِ
الْبَلِيْغَيَّةِ فِي مُصْرِهِ تَحْدِيدًا دَقِيقًا ، وَجَسِيْبُهُ أَنَّهُ فَتَحَّ بِأَبْاً ، وَأَنَّهُ طَرِيقًا أَمَّا الْبَاحِثُينَ بَعْدَهُ .

ثُمَّ تَحْدِثُ عَنِ الْكَتَابِيَّةِ ، وَذَكَرَ أَنْوَاعَهَا وَمَوَاضِعُهَا ، وَهُوَ لَا يَقْرَنُ بَيْنِ الْكَتَابِيَّةِ وَالْتَّعْرِيفِ
وَالْتَّوْرِيَّةِ ، وَأَفْهَمَ إِنْسَانَةَ لَهُ هَذَا - إِنْشَارَهُ إِلَى أَنَّ الْكَتَابِيَّةِ وَالْتَّعْرِيفِ الْأَطْفَلُ وَأَحْسَنُ مِنَ الْكَتَفِ
وَالْتَّصْرِيفِ ، وَهَذَا مَا تَابَعَهُ فِي الْعِلَّمَاءِ مِنْ بَعْدِهِ ، وَمِمَّا كَانَتِ النَّتْائِجُ فَلَا يَسْتَطِعُ الْبَاحِثُ أَنْ
يَنْكِرَ جَهَدَ الْمُؤْلِفِ فِي بَيَانِ مَا فِي الْقُرْآنِ مِنْ أَنْوَاعِ الْبَيْانِ ، وَتَبَوَّبَهَا أَبْوَابًا مُنْظَمَةً ، وَعَرَضَهَا
عَرْضًا مُفْصِلًا غَيْرَ مُضطَرِبٍ .

ثُمَّ تَنَقَّلُ بِبَيَانِ الْقُرْآنِ إِلَى الْقَرْنِ الرَّابِعِ الْهِجْرِيِّ ، فَنَجِدُ أَنَّ رَوْيَةَ الْعَلَمَاءِ إِلَى الْبَيَانِ لَمْ
تَتَغَيِّرْ ، وَيُعَتَّبُرُ مَا أَنْتَوْا بِهِ بِتَكَارَأً لَمْ سَبِقْ ، اللَّهُمَّ إِلَّا فِي الْقَلِيلِ النَّادِرِ ، وَتَلَقَّى أَوَّلُ مَا تَلَقَّى فِي
أَوَّلِ هَذَا الْقَرْنِ بِكَتَابٍ : «إِعْجَانُ الْقُرْآنِ : لِمُحَمَّدِ بْنِ يَزِيدِ الْوَاسِطِيِّ (ت ٢٠٦ هـ) :

وَهُوَ أَوَّلُ كَتَابٍ مُخْتَصٌ بِشَرْحِ الإِعْجَانِ الْقَرَائِيِّ ، وَهِيَ فَكْرَةُ جَدِيدَةٍ سَيِّطَرَتْ عَلَيْهَا قَوْالِي
بَعْدَهُ مِنْ مَوْلَاتِهِ ، مُوجَّهَةٌ لِبَاحِثَتِهِ ، أَخْذَتْ مَكَانَهَا فِي الْبَحْرَتِ الْبَيَانِيَّةِ باِعْتِبارِهَا غَایَةَ حِينَها ،
وَشَوَّهَةَ حِينَآخِرِهِ .

وَقَدْ اهْتَمَ بِهِ الْقَاهِرُ الْجَرْجَانِيُّ بِكَتَابِ الْوَاسِطِيِّ فِي الإِعْجَانِ فَشَرَحَهُ شَرْحِيْنِ أَحَدُهُمَا
سَمَاءُ الْمُعْتَدِدِ ، وَشَرْحًا أَخْرَى أَصْفَرَهُ ، وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْكَتَابَ كَانَ عَلَيْهِ شَيْئًا غَيْرَ
قَلِيلٍ مِنَ الْأَعْمَيْةِ ، لَا هَتَّامَ عَبْدُ الْقَاهِرِ بِهِ وَتَنَاهَىَ عَنْهُ بِالْشَّرْحِ مِنْتَنِ^(٣) وَثَانِيَ الْمَحاوِلَاتِ
الْإِعْجَازِيَّةِ فِي الْقَرْنِ الرَّابِعِ : «النَّكَتُ فِي إِعْجَانِ الْقُرْآنِ : لِرَمَانِيِّ (ت ٢٨٤ هـ) :

(١) تَوْبِيلُ مُشَكِّلِ الْقُرْآنِ ص ٧٦ : ٢١٢ .

(٢) انْظُرْ : الْمَصْدِرُ نَقْسَهُ : ص ١٣٥ / ١٣٨ / ١٤٠ / ١٤٥ / ١٤٩ / ١٥٥ / ١٥٩ .

(٣) انْظُرْ : تَارِيخُ آدَابِ الْعَرَبِ لِمُسْطَبِيِّ حَمَادِ الْرَّافِعِيِّ / ٢ / ١٤٥ / ١٤٦ . مَدِيْنَةُ الْأَخْيَارِ . وَاثِرُ الْقُرْآنِ فِي تَطْوِيرِ
الْأَنْتَقِ الْعَرَبِيِّ لِإِسْلَامِنَا الْكَتَبُورُ مُحَمَّدُ زَنْقُلُ سَلَامُ ص ٢٢٤ . النَّاشرُ : مَكَتبَةُ الشَّيَابِيِّ سَنَةُ ١٩٨٢ م .

وأقى الله الرمانى بثبات فيه إعجاز القرآن عن طريق البلاغة ، وقسم البلاغة إلى مطبقات ثلاثة : عليا ووسطى ودنيا . فما كان أعلاها مطبة فهو معجز ، وهو بلاغة القرآن ، وما كان منها دون ذلك فهو ممكن كبلاغة البلقاء من الناس^(١).

وجعل الرمانى البلاغة على عشرة أقسام هي : الإيجاز ، والتشبيه ، والاستعارة ، والتلازم والتواصل ، والتجانس ، والتصريف ، والتضمين ، والبالغة ، وحسن البيان ، وهذه الأبواب من خلال حصر الرمانى لها تبدو مستقلة ومنظمة ومدرستة ، ومحددة بصورة لا تكاد تراها عند السابعين له ، وإن كان قد ورد الإشارة إليها عددهم ، إلا أن وضعها في أبواب مستقلة دراستها بهذا التحديد الاصطلاحي تراه لأول مرة عند الرمانى^(٢).

وتعتبر رسالة الرمانى أول بحث مختص يذكر البيان وجهًا من جهود الإعجاز القراءى ، مؤكداً أن القرآن كله في نهاية حسن البيان ، وما يدل على ذلك تناوله في بحثه للتشبيه جوانب هامة تعتبر أساساً لن درسوه بعده ، فعمره ، وقسمه باعتبارات مختلفة ، وبين بين التشبيهات ، وحلل كثيراً من أمثلته تحليلاً دقيقاً.

ثم عرف الاستعارة ، وفرق بينها وبين التشبيه ، وبين أركانها ، وذكر لها أمثلة كثيرة من القرآن ، ودل على موطن الاستعارة وأثرها في النفس في آداء المعنى ، محللاً لها تحليلاً دقيقاً على غير مثال سابق .

وإذا كان الرمانى في بعض أبواب رسالته كان مشغولاً بالتقسيم والتفرع ، فإننا نظرنا بتحليله الجمالى ونظرته الفنية في تحليل الآيات ، ولهذا فرسالته تعتبر من أهم مصادر البحث البينانى في ظلال القرآن .

ومما لا شك فيه أن الدراسات البينانية والنقدية الأصلية قد استفادت من نكت الرمانى ونقلت عنها تصريحاً أو تلميحاً ، وترددت تحليلاته للشوادر القراءية في مباحثهم وتقاسيرهم . وتنقل بمحاولة أخرى تعتبر متممة ومكملة لما بدأه الرمانى هي :

بيان إعجاز القرآن : للخطابين (ت ٣٨٨ هـ)

وتحدا الخطابين في كتابه حدو الرمانى ، ورأى أن بلاغة القرآن راجعة إلى جمال الفاظه ، وحسن نظمه ، وسمو معانيه ، ويعتقد الخطابين أن السبب الذي من أجله صار القرآن معجزاً هو أن بلاغة القرآن قد حازت من مطبقات الكلام أرفعها البليغ الرصين الجزل ، وأوسطها

(١) انظر : النكت في إعجاز القرآن للرمانى من ٦٩ .

(٢) انظر : أثر القرآن في تطور النقد من ٢٣٧ .

التصريح القريب السهل ، وأقصدها : الطلق الرسل ، وهذه أقسام الكلام الفاضل المحمود ، دون النوع الهجين المذموم ، الذي لا يوجد في القرآن شيئاً منه أليته^(١)

ولم يقف أمر الخطابين في تفسير بلاغة القرآن وبيانه على فضاحة الأفاظ ، ولا سلامة نطقه وحسن تأليف ، ولاوضوح معانيه ، بل تعمى ذلك إلى أثر القرآن في التقوس ، وعدّ هذا التأثير وجهاً من وجوه إعجازه ، فيقول : فلتلك لا تسمع كلاماً غير القرآن منظوماً ، ولا متوراً إذا قرع السمع ، خلص له إلى القلب من اللذة والخلوة في حال ، ومن الروعة والمهابة في أخرى ، تستثير به التقوس ، وتتشوش له الصدور »^(٢)

ويبدو أن فهم الخطابين ببلاغة القرآن قريب مما تفهمه تحن الآن منها ، لأن جمع في كلامه بين معانٍ سامية ، وأسلوب حكم ، وعاطفة قوية تؤثر في نفس سامعيه .

وتعتبر رسالة الخطابي متممة ومكملة لما بدأه الرمانى ^{غير أن الخطابي ركز في دراسته في الإعجاز حول النظم دون اللقط ، حينما نقرأ قوله :} « واعلم أن القرآن إنما صار معجزاً ، لأن جاء بأفضل الألفاظ في أحسن ننظم التأليف متضمناً أحسن المعانٍ »^(٣) .

ولعل هذا الملحوظ الدقيق هو المحور الذي أدار عليه عبد القاهر نظرته في النظم ، ومن ثم التوصل للإعجاز ، معتمداً في تعليل جمال الصورة البينية ، وكشف أسرارها على الخطابين ، وعلى الرمانى في كشف آثارها التفصية ، فقاد عبد القاهر من الرجالين إفاده غير مباشرة .

وحيث ننتقل بالبيان القرائى للقرن الخامس الهجرى يكنى لعلمائه شأن آخر ، لأنهم أصحاب جولات واسعة في بلاغة القرآن ، وهم القنطرة التي عبر عليها حديث بلاغة القرآن وبيانه ، من أفكار تدور على السنة العلماء والأدباء ، ينقلها واحد عن آخر ، وآراء متشعبية فردية إلى أفكار ثابتة ومنتظمة في أسلوب علمي سليم ، وطريقة واضحة ، حتى أصبح هذا القرن بحق - مدرسة تخرج فيها علماء البيان ومؤلفو كتب بلاغة القرآن ، وأول كتاب يمثل هذا القرن هو : « إعجاز القرآن : للباقلانى (ت ٤٠٢ هـ) » .

والباقلانى يرجع بلاغة القرآن إلى أسلوبه ونظمها ، وأثره في نفس سامعيه ، فيرى أن أسلوب القرآن خاص به ، لا يشارقه فيه غيره ، كما أنه خارج عن الأساليب المعروفة ، ويعتبر القرآن « بديع النظم ، عجيب التأليف ، متناهٍ في البلاغة ، إلى الحد الذي يعلم عجز

(١) انظر : بيان إعجاز القرآن للخطابي من ٢٣ وما بعدها - ضمن ثالث وسائل في إعجاز القرآن .

(٢) انظر : للصدر نفسه من ٦٤ .

(٣) انظر : بيان إعجاز القرآن للخطابي من ٢٤ .

الخلق عنه «^(١) ولذلك فالباقلاس يعتبر من أوائل الذين حاولوا تبيين الإعجاز في القرآن من ناحية النظم على هذا النحو العريض^(٢).

ويدل الباقلاس على جودة نظم القرآن ، وسمو بلاغته بأخذ كلمة منه ، واستعمالها في شعر أو نثر ، فتصسيز كالدبة في وسط العقد ، تسترعى الانتظار ، وتدفع العقول ، وتثير الآيات^(٣) كما يدعى المؤلف إلى تردد النظر في القرآن ، ومقارنته بغيره ، حتى يتوصل إلى معرفة ليهـما (بلغ ، ووجهـ جل عنـيـتـهـ إلىـ هـذـهـ المـقارـنـاتـ)^(٤).

ولم يقتصر جهد الباقلاس في كتابه على مجرد الحديث عن بديع نظم القرآن ، وعجيب تأليف ، وتناهيه في البلاغة ، بل تكلم عن أنواع بيانية كالاستعارة ، والتشبيه ، والتضليل ، ويرى أنه يلتئم إعجاز القرآن من هذه الآبواب ، فخرفها وبين أساليبها عند العرب ، مقارناً بينها وبين أساليب القرآن الكريم ، واكتفى في هذه الأنواع بمجرد إبراز الشوائد القرآنية من غير تحليل لقيمتها الفنية^(٥). ثم يدفعنا تيار الاهتمام بالدراسات البينية المبكرة أن نلتقي في هذا القرن بكتاب : **« تلخيص البيان في مجازات القرآن »** : للشريف الرضي (ت ٤٠٦ هـ)

وهذا الكتاب يعتبر كتاباً رائداً في بايهـ ، حيث بنـاهـ الشـرـيفـ الرـضـيـ عـلـىـ التـطـبـيقـ لـالتـعـيـدـ فـاتـجـهـ إـلـىـ الـقـرـآنـ ، وـاسـتـخـرـجـ مـاـ فـيـ سـوـرـهـ مـنـ مـجاـزـاتـ ، وـعـرـضـ لـهـ بـالـشـرـحـ وـالـحـلـيلـ .

ويؤكد الشريف في مقدمته على أن المجازات في موقعها أحسن من الحقائق ، وأن اللحظة التي وقعت مستعارة ، لو وقعت في موقعها لفظة الحقيقة لكان موقعها نابياً بها ، وأن ورود المجازات في القرآن لم يكن لتحقق العبارة ، أو قلة الفاظ الحقيقة ، ولكن لأن المجازات أجمل وأظهر في أسماع السامعين^(٦).

ومنهج الشريف في تناول الآيات القرآنية يتلخص في التالي :

- يصـدرـ كـلامـهـ عـنـ الـآـيـةـ بـكـلـةـ اـسـتـعـارـةـ ، وـيجـرىـ اـسـتـعـارـةـ عـلـىـ طـرـيـقـ الـمـدـهـنـ ، وـلكـنهـ لمـ يـقـصـدـ بـهـ اـسـتـعـارـةـ الـتـيـ تـقـرـعـ عـنـ التـشـبـيـهـ ، وـلكـنهـ يـقـصـدـ بـهـ مـرـةـ التـشـبـيـهـ ، وـأـخـرـىـ :
- ـ الكـتـابـ ، وـثـالـثـةـ يـقـصـدـ بـهـ الـمـقـابـلـةـ ، وـهـوـ فـيـ الـكـثـيرـ الـفـالـبـ يـقـصـدـ بـالـاسـتـعـارـةـ مـطـلـقـ الـمـجاـزـ

(١) انظر : إعجاز القرآن الباقلاس تحقيق السيد أحمد صقر من ٦٠ ط دار المعرف .

(٢) انظر : الباقلاس وكتابه إعجاز القرآن د. عبد الرزق مختلف من ط. دار مكتبة الحياة - بيروت

(٣) انظر : إعجاز القرآن من ٦٧ .

(٤) انظر : المصدر نفسه ١٥٨ / ١٨٢ .

(٥) انظر : إعجاز القرآن من ٦٩ وما بعدهـ ، من ٣٦٢ وما بعدهـ .

(٦) انظر : تلخيص البيان في مجازات القرآن الشريف الرضي . تحقيق محمد عبد الفتى حسن من ٢٥ ط . عيسى الطيبى

ويقصد بالجزء المعنى الاصطلاحي البلاغي بعامة ، غير مدلوله عند أعين عبيدة ، الذي كان متسعاً شاملاً لكل طريق ينذر به إلى المعنى سواء أكان نحواً أو لغة أو بياناً ، ثم يأخذ البيان منهجاً جديداً في كتاب : « **دلائل الإعجاز : عبد القاهر الجرجاني** » (١٧٦ هـ) :

الذي لم يقبل كل أقوال السابقين ويسلم بها ، بل حاول أن ينماش ويوارن ، ويرفض ، ويتهم بذلك كله – تصوّراً للبيان أنفس من تصورات كثير من سابقيه ، وأكثر منها استناداً إلى أنسس واضحه ومحددة .

فأثبت بلغة القرآن عن طريق نظرية جديدة هي نظرية النظم . والجرجاني في هذه النظرية لا يرجع بلاغة القرآن إلى الألفاظ مفردة ، ولا إلى موازنة كلماته بكلام العرب كما فعل الياقلاхи وإنما رد إعجاز القرآن إلى خصائص في نظمها وراء جمال النظم والمعنى ، تطّرد في آياته .

وقدّر هذه النظرية (النظم) تفسيراً شافياً حتى ثبّت إليه دون سواه ، إنّ فالبيان عند عبد القاهر ليس مجرد الفاظ ترس أو صورة ترتّب ، بل هو مجموعة من العلاقات تتّباع فيّها الصور البنيّة مع غيرها من الصور ، وتعاصر الأسلوب ، ومتّهي في ذلك هو مذهب العالم السويسري المعروف « دي سوسير » ، ثم اللغوي الفرنسي « انطوان فابري » (١) . ولا يعني قسم عبد القاهر لإعجاز على نظرية النظم ، يجعلها أساساً ومحوراً له ، أنه يقتضي بالخرج ما في القرآن من الاستعارات ، وأنواع المجاز المختلفة من جملة ما هو معجز ، وذلك لأنها من مقتضيات النظم وبها يكون (٢) .

ومعنى عبد القاهر يستوفى الكلام في توقف النظم على التركيب التحوي ، ونظم الكلام ، ومكان التحوى منه ، ملتصقاً شوادده في ذلك كله من الشعر والنثر ، وقد يقدم بين الحين والآخر شاهداً قرأتنا على سبيل التقطير ، وكان الآليق بعد القاهر وهو يصدّق قضية إعجاز القرآن أن تكون شوادده أو معظمها من القرآن ؛ لأنّ النص الأعلى الذي لا يصح لنا نطق العربية بمعزل عنه .

والحق نقول إن منهج عبد القاهر أكثر شمولاً من منهج الشريف لدراسة بيان القرآن ، لأن الرضي يقصر البيان في القرآن على الاستعارات فيه ، وهو حصر نوع واحد فقط من أنواع

(١) انظر : النقد المنهجي د . محمد متذوّر من ٢٢٧ ، وفي الميزان الجديد لتفصيل المؤلف من ١٤٨ . ط : دار نهضة مصر سنة ١٩٤٤ .

(٢) انظر : رسالة الباحث في دراسة كتاب الإشارة إلى الإعجاز / ١٧٦ .

البيان ، أما عبد القاهر فقد أضاف في مسائل علم البيان باكتملها من تشبيه واستعارة ، وكتابية ومجاز ، وبخاصة في كتابه الآخر « أسرار البلاغة » .

وعلى أية حال فقد تفقر البيان قذرة عالية على يد عبد القاهر ، وصار ذا كيان خامس على يديه ، ولم يسلم بعد أن كان مبعثاً في كتب الأدب والنقد ، والوازنات ، ولعجان القرآن ، وحل شوادده الشعرية والثرية تحليلاً يصلح للحس ويعصى التلقي ، ويرى فينا ملكة النقد الصحيح . ومن الكتب التي اتخذت القرآن مجالاً للبحث البياني وتطبيقاته كتاب :

الجمان في تشبيهات القرآن : لابن نافع البغدادي (ت ٤٨٥ هـ) :

وموضوع الكتاب واضح من عنوانه ، وهو تشبيهات القرآن الكريم فذكر فيه المؤلف التشبيهات التي وردت في آيات القرآن مرتبة على السور ، وبدأ بمقدمة تصميرة تكلم فيها بإيجاز عن التشبيه وأدواته وقيمه فقال : « التشبيهات نوع مستحسن من أنواع البلاغة ، وقد ورد منه في كتاب الله تعالى ما نحن ذاكروه في هذا الكتاب ، وذاهبون إلى إيضاح معانيه ، والتبيه على مكان القضية فيه » (١) .

وبعد هذه المقدمة عرض ابن نافع موضوعات الكتاب ، فعرض لكثير من سور القرآن الكريم ، مبيناً بعض تشبيهاتها ، وعارضها لها بالشرح والتفسير ، ولكنه لم يتناول كل تشبيهات القرآن في كتابه ، فلم يذكر تشبيهات سورة النساء والمائدة .

وابن نافع في كتابه يعالج التشبيهات من ناحيتين : الفهم أولًا ، ثم الذوق ثانياً ، فهو يفسر المعنى القرآني في الآية ، ويتبعه بنظم الشعرا في هذه المعانى ، مكتفياً بمجرد الغرض من غير تحليل على طريقة الوازنة ، وبيان فضل التشبيهات القرانية عليها ، شأنه في ذلك شأن الباقلاتي .

غير أن ابن نافع كان أكثر توفيقاً من الباقلاتي في منهج الوازنة الأدبية ، لأنه كان أكثر حظاً من الناحية الأدبية ، وتجنبه التأثر بتطور الملاحة المعاذين القرآن .

والذي يلفت أن ابن نافع عرض النص القرآني على تصويم الأدب العربي في آرئه عصورة منذ الجاهلية حتى عصره في القرن الخامس الهجري ، ودل بهذا على ذوق أدبي أصيل ، فهو يختبر أنواع النصوص لوازناته ، بل وأندر هذه النصوص » (٢) .

(١) انظر : الجمان في تشبيهات القرآن لابن نافع البغدادي من ٦٣ - تحقيق د . مصطفى الجاوي .
ط . منشأة المعارف بالإسكندرية .

(٢) انظر : مقدمة تحقيق كتاب « الجمان في تشبيهات القرآن » د . مصطفى الجاوي من ٤٩ .

والذي يرثى على صاحب « الجمان » أنه كان كثير الاستطراد في الاستشهاد بالشعر ، لدرجة أخرجته عن الموضوع أحياناً ، ولو أنه بسط القول في التشبيهات القرآنية بمقدار ما يسطه في استطراداته لزاد فضلاً على فضل ، وحسبه أنه بدا الطريق ، وأتي بما في وسعه كما ذكر في هاتمة الكتاب^(١).

وإذا أضفنا جهد ابن ناقيا إلى جهد الشريف الرضي في تطبيق المجازات على القرآن ، وجدنا أن علماء القدامى ، لم يفرطوا في بحث البيان في القرآن ، وتناوله من جوانبه المختلفة وزواياه المتعددة ، وبعد هذا التضييق والاحتراق للبيان القرآني في القرن الخامس الهجري تنتهي بنا الوقنة في القرن السادس الهجري مع تفسير :

الكتشاف للزمخشري (ت ٥٢٨ هـ) :

يعطي الزمخشري الثقافة الأدبية والبلاغية المفسر أعمق الاهتمام ، إذ يعتبر علمي المعانى والبيان أهم عدداً من يريد أن يفسر القرآن الكريم ، ويتعين الزمخشري من عنوانه المفسرين بدراسة المباحث البينانية دراسة تطبيقية من خلال تفسيره لآية الذكر الحكيم ، وتحليله للتراكيب القرآنية ، وبيان لأسرارها .

وأهم صدور البيان التي تكلم عنها الزمخشري في تفسيره ، التشبيه ، والتضليل ، والاستعارة ، والمجاز ، والكتابية ، والتعريف ، ولهذا يمكننا أن نعد كتاب الكتشاف في الدرجة الأولى كتاب بلاغة : لأنه مليء بمسائلها ، ولا سيما مسائل علم البيان .

والزمخشري في تفسيره يسلك نفس الطريقة التي سلكها قبله عبد القاهر في بيان الأسرار البينانية للقرآن ، وإظهار إعجازه عن طريق تنظمه ، ودلالة علي المراد ، مع مراعاة مقتضيات الأحوال ، حيث تلقي الزمخشري نظرية عبد القاهر في التنظم ، وأخذ في تطبيقها عملياً على القرآن كله .

والمتتبع لتحليلات الزمخشري للأيات القرآنية ، يراه يعمس مبتداً دقة تنظمه ، مبرزاً عناصره البينانية ، ويطاول معانيه ، وجمال مبانيه بطريقة فذة لم توجد عند سابقيه ، واستحوذت على من جاء بعده من المهتمين بالدراسات البينانية للقرآن ، فترسم معظمهم طريقه وساروا على نهجه ، وأثر الكتشاف في البلاغيين بعده واضح جلي يظهر في تحليلهم للشوادر القرآنية ، وأخذهم برأيه في عدد من المسائل البينانية .

(١) انظر : الجمان في تشبيهات القرآن لابن ناقيا البغدادي من ٣٤٩ .

مما تقدم نرى أن بذلة القرآن وبيانه ، طورت من دراسة لغوية أدبية تهدف إلى مجرد الإفهام والتفسير ، كمحاجة ابن عبيدة ، ومجازات الشريف الرضي ، ومنها ما يهدف إلى دفاع كلامي أمام الملاحدة ككتاب مشكل القرآن لابن قتيبة ، ومنها ما اختلط فيه البيان بعلم الكلام كارهاني في نكته ، ويعضمهم خرج عن الدراسة القرآنية إلى دراسة الشعر كالباقلان ، وأiben ناقيا البغدادي ، ونرى عبد القاهر يستكثرون من الاستشهاد بالشعر في دلائله ، فيما عدا كله منهم جعلت للشواهد القرآنية المكان الأول في مباحثتها البيانية كارهاني مثلاً.

والذي يستوقفنا هنا - أن البيان القرآني أخذ في التمو والارتفاع في القرن السادس الهجري على يد الزمخشري الذي تميز البحث البياني في كتاباته ، وانضحت معانه إلى حد كبير .

وبعد أن تكلمنا في هذا التمهيد عن تطور كلمة « البيان » ومعناها اللغوي والاصطلاحى ، وتاريخ الكتابة في بيان القرآن الكريم وبلاعنه ، رأيت من اللازم على أن أعرف بالكتب التي تناولت بيان القرآن في القرنين السابع والثامن الهجريين .

ولأن عدداً غير قليل من علماء هذين القرنين يتناولون ما في القرآن من شواهد المعانى والبيان والبيان بصورة مختلطة ، فقد صار من الحق علينا أن تحمل القول في هذه المؤلفات التي تناولت بيان القرآن بهذا المعنى الشامل أيضاً .

وملحوظة أخرى نشير إليها من الآن ، هي أن مباحث البيان والتقى كانت ترد مختلطة في كتب أولئك العلماء ، وكانت ترمي كلها إلى بيان ما في القرآن الكريم من صور البيان ، ووجه الإعجاز ، فلا عجب إذن أن تورد - هنا - كتبًا فيها الكلية للبحوث النقدية والأدبية ، وأخرى فيها الكلية للبحوث البلاغية إذ إنها جميعاً ترمي إلى دراسة هذا الجانب البياني الممتاز في القرآن الكريم .

ولقد قصدت من وراء هذا العرض الموجز إلى بيان أمرين :

أولهما : مساعدة علماء القرنين السابع والثامن الهجري في تطوير المباحث البيانية القرآنية ، عن طريق الشواهد القرآنية التي ذكروها في كتبهم .

وثانيهما : بيان الطريقة التي سلكوها في معالجة هذه الشواهد ، وهي طريقة يختلف كل واحد منهم فيها الآخر . والغرض من ذلك كله هو أن أقدم صورة واضحة عن اتجاه علماء هذين القرنين ، وذلك قبل تناول الجانب التطبيقي من البيان على القرآن الكريم .

الباب الأول

المؤلفات البيانية ومنهاج مؤلفيها

ويشتمل على الفصول التالية

- الفصل الأول : البلاغيون والإعجازيون .
- الفصل الثاني : الشراح والملخصون .
- الفصل الثالث : اللغويون والنحاة .
- الفصل الرابع : الأديماء والنقاد .
- الفصل الخامس : المفسرون والأصوليون .

الفصل الأول

البلغيون والإعجازيون

- * الفخر الرازى
- * السكاكى
- * البحرانى
- * الطينى
- * الماوى

الفصل الأول

البلاغيون والإعجازيون

حين يتسلم الإعجازيون والبلاغيون زمام البحث في الدراسات البينية القرآنية يحق لنا أن نقول : أخذ القوس باريها ، لأنهم كانوا أبعد الموارف أثراً ، وأرقعها صوتاً في نشأة البلاغة وتطورها، ولأنهم اتخذوا دراسة البيان أساساً اعتمداً عليه في دراسة إعجاز القرآن ، وسيبدأ إلى تأويل كلمه .

والحق نقول : إن بيان القرآن ، وإدراك إعجازه ، ويلاعنه تما وترعرع على أيديهم ، حتى استقام واستوى على عوده ، فجعلوا ما تفرق في مباحث غيرهم ، وقصدوا قصداً إلى تلخيصه وتعميمه ليكون أول ركيزة في تأسيس علوم البلاغة والبيان .

وتقدير البلاغة هو البدنة الأولى في البناء البلاغي ، إذ به تتحدد هندسة المباني ، وتنبع التوصيات الخفية المتحكمة في النص من جهة التدق وعدمه ، فالقواعد البلاغية تعين الفرد على ترديد النظر : في جوهر النص ، ويرجع الفضل في هذا المجال إلى قطبين من أقطاب هذه المائحة هما : الرازى والسكاكى .

وأصحاب هذا الاتجاه في الغالب يتوجهون نحو النهج التقليدى العلمى ، ولا يعنون بكلفة الاستشهاد إلا قليلاً ، وهذا أمر طبيعى جداً ، لأنه قد سبق تقدير البلاغة في النشأة الاهتمام بظاهراتها الفنية والجمالية ، والاهتمام بالتركيب ، لأن جوهر العمل البلاغي ^(١) .

ومن ثم كانت هذه المائحة مصدر نشاط خاص في البلاغة العربية ، ووضع مصطلحاتها الأخيرة ، كما كانت كتاباتهم صورة للدقة في التفكير ، والدقة في التعبير ، والبعد عن الثرة واللغو الذى يلاحظ في كتابات غيرهم من الذين لم يتعرضوا لدراسة القرآن والسبب في ذلك أنهم كانوا يعرفون أنهم يعالجون نسطاً فريداً ، ومثلاً رفيعاً يحتاج في دراسته ، وفي محاولة الوقوف على أسراره إلى كثير من الجد والتعمق من القادرين عليهما ^(٢) .

وخل دراسات رواد هذه المائحة تقوم على إثبات الإعجاز للقرآن الكريم عن طريق بلاغته وبيانه ، فقد كانوا متكلمين من الدرجة الأولى ، وعلم البيان تما وترعرع في حجرهم ، وإن شئت قلت : إنهم استعمبوا إعجاز القرآن ويلاعنه درجة أن متاعون كثيرون تتطرق بذلك ، فهذا الرازى يسمى كتابه : نهاية الإيجاز في دراسة الإعجاز ، والطوى يسير على نفس النهج فيسمى مؤلفه « الطوان المتصمم لأسرار البلاغة وعلوم الإعجاز » ، والمكتوب - كما يقال - يُعرف من عنوانه .

(١) انظر : مقدمة كتاب « البلاغة عند السكاكى » د. سهير اللحامى من ١٦ ، من ١٢ .

(٢) انظر : البيان العروى د. بدوى طبانه من ٧٤ - ٤١ .

كتاب «نهاية الإيجاز في دراسة الإعجاز» للرازي (ت ٦٠٦ هـ)

تلقى أول ما تلقى في مستهل هذا البحث بغير الدين محمد بن عمر بن الحسين بن على الملقب بـ«بخاري الدين» رازي الولد ، طبر ستاني الأصل ، والمعروف بـ«بن الخطيب» ، لأن والده كان خطيب مسجد الري ، ولقد كان شاعرًا أشعرياً رافقًا لـ«أبو منذيب» السُّنَّة والجماعة ، جمع كثيراً من العلوم وتبخَّر فيها كالتفصير والكلام والفقه والأصول ، وتکاد كتب الترجم تُجمع على أنه كان أكبر مفكِّر إسلامي ظهر بعد حجة الإسلام الإمام الفزالي^(١).

ومن الواضح أن الرأزي قد طارت سمعته مفسراً وأصولياً ومتكلماً أكثر منه بلاغياً ، وهذا ما جعل سواد في دائرة الضوء البلاغية وتركه في عالم اللؤلؤ ، مع أنه لا يقل عن سواد إذا لم نقل : يفوق كثرين غيره من المشهورين بلاغياً في عصره ، وفي المضور التي توالى بعده^(٢).

ويتبين الرأزي في كتابه «نهاية الإيجاز في دراسة الإعجاز» بدقة التكثير ، وقوية الحجة والقدرة على تشعب المسائل وضبط أقسامها ، وهو يرمي من وراء ذلك إلى الكشف عن الفنون البلاغية في القرآن باعتبارها مدار الإعجاز فيه .

والكتاب كما يفهم من عنوانه يتجه نحو الاختصار والإجمال ، وهو واضح التأثير بما كتب عبد القاهر الجرجاني في كتابيه «دلائل الإعجاز» وـ«أسرار البلاغة» والذي أشاد بجهوده ويراعته في استنباط أصول علم البيان ، والكشف عن حقائقه ، ولا يقتضي عليه إلا أنه أهل رعاية ترتيب الأصول والأدوات وأمثلب في الكلام كل الإطناب^(٣).

وعلى هذا فالكتاب كما يعترف الرأزي في مقدمته محاولة من جانبه قصد بها تلخيص كتابي عبد القاهر ، وذلك بجمع ما فيهما من قواعد المعانى والبيان ، وتتسق بحوئهما ، وترتبيها ، وتتوسيها موضوعياً خالياً من الإطناب المطل بـ«الاختصار المخل» ، إذ يقول : «لما

(١) انظر ترجمته في : طبقات الشاعرية الكبرى للسيكين ١٠٤/١ ، والبداية والنهاية لابن كثير ٥٥/١٢
- السماعة - القاهرة سنة ١٢٥٨ هـ - وشذرات الثغب لابن الصادق الجنبي ٢١/٩/٥ / مكتبة
القدس / القاهرة سنة ١٢٥٠ هـ وقيات الاعيان لابن خلكان ٣٢٨١/٣ ، ٣٦٩/٢ ، ٣٧٦/٢ ، ٣٧٧/٢ / تحقيق محمد
محي الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٤٨ م ، حيث الآتيه في طبقات الآباء ، لابن أسميعه ٢٢/٢
، بيروت سنة ١٩٦٥ .

(٢) انظر : مقدمة تحقيق «نهاية الإيجاز في دراسة الإعجاز» د. يسري شيخ أمين ص ٤٧ . دار العلم
الملايين - بيروت ط ١ سنة ١٩٨٥ .

وتفتت الله لطالعه هذين الكتابين التقطت منها معاقد فوائدهما ، ومقاصد فرائدهما ، وراعيت الترتيب مع التهذيب ، والتحرير مع التقرير مع الإجتناب عن الإطناب الممل ، والاحتراز عن الاختصار المخل »^(١).

و الواقع أن الباحثين انقسموا إزاء محاولة الرازي قسمين :
قسم متحامل عليه يرى أن تقسيماته جاءت متزاجمة ، وغير دقيقة ، علاوة على أنها قضت على النزعة الأدبية ، وانحرفت بالبلاغة المعتدلة على التفوق والتحليل والموازنة ، وجعلتها إلى وجه آخر غايتها الضبط والتحديد والحصر المنطقى^(٢).

أما القسم الآخر من الباحثين فيعتبر هذه التفريعات والتسميات بمثابة المعالم الكاشطة للطريق ، أو رقائق أقلام البحث المطروق . أو هي كالكتارين المصفيرتين الجانبيتين التي قد تختلط في كتاباتنا لجذب القارئ من جهة ، والدلالة على النقاط الجوهرية من جهة أخرى ، وعلى هذا يكون الرازي قد نجح في تأليف كتابه منهجاً متسماً ليس فيه خلل أو اضطراب^(٣).

وقد بني الرازي كتابه على مقدمة وجمليتين ، وقسم المقدمة إلى فصلين أولهما في أن القرآن معجز ، وأن إعجازه في فصاحته التي يشتمل عليها نظم ، والثاني في شرف علم الفصاحة .

أما الجملتين ، فال الأولى خاصة بالفردات ، والثانية خاصة بالنظر والتاليف ، ويبحث في الجملة الأولى طائفة من المحسنات اللفظية بالإضافة إلى الصور البينية . ويبحث في الجملة الثانية مجموعة القواعد الخاصة بالنظم ، وهو في ذلك كله يتبع عبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز ، ولا يخرج عنها ذكره^(٤).

(١) انظر مقدمة تحقيق « نهاية الإيجاز في دراسة الإيجاز » من ٧٣ .

(٢) انظر : مناهج بلاغية د . أحمد مطلوب من ٢٤٤ ط الكويت ، والبلاغة عند السلاكين د . أحمد مطلوب من ٢٤٢ – والبلاغة تطور وتاريخ د . شوقي شريف من ٢٧٧ وما بعدها ، و من ٢٨٦ ط دار المعارف سنة ١٩٨٣ ، في تاريخ البلاغة العربية د . عبد العزيز عتيق من ٢٧ – دار النهضة العربية – بيروت . أحاديث في تاريخ البلاغة د . عبد الكريم الأسعد من ٤٧ ، من ١٤١ ط دار الطبع / الرياض سنة ١٩٨٥ م .

(٣) انظر مقدمة تحقيق كتاب « نهاية الإيجاز في دراسة الإيجاز » من ٤١ وما بعدها ، وانظر : البيان العربي د . بدوى طبانه من ٢٢٧ – مطبعة الأنجلو المصرية .

(٤) انظر : دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني من ٣٥ ، من ٣٩ وما بعدها . تحقيق د . محمد رضوان الداية ود . فائز الداية ط . دار لكتيبة سنة ١٩٨٣ وانظر : نهاية الإيجاز في دراسة الإيجاز من ٩٢ .

ثم يأخذ الرازى في بحث الجملة الأولى الخاصة بالفردات ، وهي مرتبة على مقدمة وقسمين ، أما المقدمة فتشتمل على فصلين :

الأول : في القسم دلالة النطق على المعنى : وهي إما وضعية (للألفاظ) ولما عقلية (للمعنى) ، وهو يفترض في هذا الفصل أيضاً ما كتبه عبد القاهر في دلاته والذى سعى الدلالة الأصلية للكلام بالمعنى والدلالة الفرعية بمعنى المعنى ، وذكر أيضاً أن فساحة الكلام لا ترجع إلى النطق وإنما ترجع إلى المعنى (١).

اما الفصل الثاني : فقد خصه بالدلالة الالتزامية العقلية التي تجري في المضاد البivalent ، موضحاً أنها تختلف عن الدلالة الوضعية ، وهذا التقسيم لم نعرفه عن أحد قبل الرازى ولعله كان من أوائل الذين تحدثوا في البالغة عن دلالة النطق على المعنى وقسمها إلى وضعية وعقلية ، ورأى أن الكثانية والمجاز ، والتثنيل لا تقع إلا في الدلالة العقلية (٢).

ثم قصر الرازى الفصول الثلاثة التالية على دحض الشبهات التى يدللي بها أصحاب النطق ورد عليهم بردوه مقحمة (٣) ، مؤكداً أن دلالة الكثانية والمجاز والاستعارة دلالة عقلية معنوية .

وينتقل الرازى إلىباب الثاني ليبحث فيه المحاسن الحاصلة بسبب الألفاظ وما يتبعها ، وفيه : مقدمة وثلاثة أركان ، أما المقدمة : فهى حصر أقسام تلك المحاسن ، وعلى هذا التحرر من التفصيات التى لا يكاد يدركها الحصر يعمس المؤلف إلى نهاية الشوط (٤).

أما القسم الثاني في الجملة الأولى من الكتاب فيحدثنا الرازى عن خمسة قواعد : الأولى فى الخبر وأحكامه ، والثانية : فى الحقيقة والمجاز ، ويقسمه على قدمى عبد القاهر إلى قسمين أحدهما : فى المثبت ، والأخر : فى الإثبات ، ويتبعه أيضاً فى تعريف الحقيقة والمجاز ، ويلاحظ أن المجاز فى المثبت (القولى) أعم من الاستعارة ، ويتحدث عن مجاز الحرف والزيادة ، مقتفياً فى كل ذلك أثر عبد القاهر .

وفي القاعدة الثالثة التى خصصها للتشبيه يجمع كلام عبد القاهر ، ويضعه فى قواعد متناظرة ، مستعيناً فى ذلك بقدرته العقلية الفائقة فى التقسيم والتفرع :

(١) انظر دلائل الإيمان : من ٤٢ - ٣٨ وما بعدها .

(٢) انظر : مناهج بلاغية من ٢٤٦

(٣) انظر : نهاية الإيجاز فى دراسة الإيمان من ٩٥ : من ١١٢ .

(٤) انظر : نهاية الإيجاز فى دراسة الإيمان من ١١٢ : من ١٢٥

ثم ينتقل إلى القاعدة الرابعة فيخصوصها الاستعارة ، وبهذا يتحدد الاستعارة ، ولا يرتكب تعرّف المانع لها ، ويتوقف قليلاً عند اضطراب عبد القاهر في عدم مجازاً عالياً أو لغورياً ، ويسأله عبد القاهر في كون التشبيه البليغ يهدى من باب الاستعارة ، إذا لم يحسن دخول آداة التشبيه عليه ، ثم يمضي نقشاستمارة إلى أصلية وتنعية ، ومرشحة ومجردة ، وحسنة وقبيحة ، مستحضرنا في ذلك بكلام عبد القاهر الجرجاني أيضاً .

أما القاعدة الخامسة فقد جعلها الكتابة ، وتتأثر في تصويره لها بالزمخشري وليس بعد عبد القاهر هذه المرة ، غير أن الطريق عنده أنه أخرجها من باب المجاز وتابعه في ذلك السكاكى ، وبعض البالغين والأصوليين ومنهم العز بن عبد السلام . وبذلك تنتهي الجملة الأولى من الكتاب^(١) .

أما الجملة الثانية فهو مشتملة على ستة أبواب : النظم : حقيقته وأقسامه ، والتقديم والتأخير ، والفصل والوصل ، والحدف والإسماح والإيجاز ، وما يتعلق به « إن » و« إنما » وبمباحث أخرى .

ثم ختم الرازى كتابه ببحث متفرقات ورُغمها على أربعة فصول ، تحدث في الفصل الأول منها عن وجه الإعجاز في سورة الكوثر ، حتى إذا انتهت منها عقد فصلاً للمناقشة في القرآن الكريم ، وغامضه ، وفي الفصل الثالث رد على بعض الملاحدة من يزعمون أن في القرآن تنافضاً ، ورد في الفصل الرابع على مطاعنهم في القرآن من جهة التكرار والتطور ، وبذلك ينتهي كتاب « نهاية الإيجاز في دراسة الإعجاز » .

واوضح من خلال هذا العرض الموجز للكتاب أنه ملخص من كتاب عبد القاهر سالفى الذكر ، ولو لا ما أخذ عليه من تلك التقييمات الكثيرة لكان مناقساً لكتاب عبد القاهر ، وحانوا تقدير العلماء والدارسين ، لأنه كان أشد إحكاماً وأكثر دقة ، وأقوى ضبطاً لجزئيات موضوعه من الجرجانى^(٢) .

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن ، هل - حقاً - اقتصر الرازى كما ذكر في مقدمته على كتابى عبد القاهر « دلائل الإعجاز » و« أسرار البلاغة » فقط ؟
ومن خلال الدراسة المتأتية والراعية وجدنا أن الرازى يذكر أسماء عدد من العلماء يورد ذكرهم ويشيداً من أقوالهم ، وافتقرم في بعضها وخالقهم في بعضها الآخر ومن هؤلاء العلماء :

(١) انظر نهاية الإيجاز في دراسة الإعجاز : ٣٧٨ .

(٢) انظر : مقدمة تحقيق « نهاية الإيجاز في دراسة الإعجاز » من ٤٧ .

النظام والخليل بن أحمد ، وسبيروه ، كما تجدها يُلم بتأطير من آراء الرماني ، والخطابي ، والباقلاسي ، وأبن جنى ، وأخرين .

والألاحظ كذلك – أن الرازي قد سرد طائفة من الآلوان البدوية نقلًا عن رشيد الدين القرى المعروف بالوطواط^(١) ، وهو ينقل عنه الآلوان البدوية بالشفرة العربية ، وهذا يدل دلالة قاطعة على أن الرازي قد اطلع على كتابه ، وقراءة قراءة متخصصة ، ولكنه لم يشر مجرد إشارة لصاحبها ، وفي هذا جهد لفضل العلماء ، لدرجة جعلت أحد محقق الكتاب يصف ما قام به الرازي بالنسيل والسليل ، يقول د . بكرى شيخ أمين : « لقد نسل الرازي كتاب الوطواط وأخذ معظم ما جاء فيه بالحرف الواحد بدلاً من عنوان الموضوع وعوراً بالشرح وانتهاءً بالشاهد الشعري أو الثنرى ، ولم يترك هذا الكتاب إلا بعد أن سلخ منه أكثره ، ولم يبق منه إلا ما لا يسمع ولا يفتن من جوع »^(٢) .

ومن المؤك أن ما جايه الرازي من كتاب الوطواط أحدث ضرباً من الاختلط ، والاضطراب حيث تداخل علم البيان مع علم البديع وعلم المعاش^(٣) بعضها في بعض على الرغم مما أشار إليه في المقدمة من أن هذه الأول في الكتاب هو تبويه وترتيب المادة البلاغية التي وردت في كتاب عبد القاهر ، ويبدو أن غرامه بكثرة التفريعات بدون مبرر قد أفسد عليه غرضه وصعب الأمر على الدارس من حيث أراد التحقيق عليه .

ويلاحظ عليه كذلك – خلو منهجه من التحليل الجمالي لنصوصه الأدبية على النحو الذي سار عليه عبد القاهر ، وبذلك تحول الكتاب في كثير من أحواله إلى قواعد جافة كقواعد النحو ، تعانقها التفاص ، وتتصرف عنها لخلوها من روعة التحليل الجمالي .

ومن المهم أن نبين هنا – أن يحيى الرازي البلاغية في كتابه « نهاية الإيجاز في دراسة الإيجاز » تندلأً البلاغة العربية عامة ، وعلم البيان خاصة من ساحة الأدب والذوق والجمال إلى ميدان الفلسفة والمنطق ، ولذا يعد الرازي أول من أشاع الطريقة التقريرية في دراسة العلوم^(٤) لأنه لا يستوحى ذوقه الأدبي ، بقدر ما يستوحى عقله ومنطقه وجنته ودليله ، فهو

(١) هو صاحب كتاب « حدائق الشعر في دقائق الشعر » وهو كتاب مؤلف في البلاغة الفارسية تولى سنة ٥٧٦ هـ ، نظره إلى العربية الاستاذ إبراهيم الشواربي طـ . لجنة التأليف والترجمة والنشر .

(٢) انظر : مقدمة تحقيق كتاب « نهاية الإيجاز في دراسة الإيجاز » من ١٩٦ .

(٣) انظر : البلاغة تطور وتاريخ من ٢٨٦ ، المباحث البلاغية في ضوء قضية الإيجاز القرائي لاستاذنا الدكتور أحمد جمال القرى من ٣٧ . الناشر : كلية الفائز بالقاهرة سنة ١٩٩٩ م .

(٤) انظر : مقدمة ابن طفيل من ٤٠٠ . مراجعة لجنة من العلماء طـ بيروت ، والبيان العربي دـ . بدوى طباعة من ٣٣٨ . الناشر : مكتبة الأنجلو المصرية طـ ٦ سنة ١٩٧٦ م وكتاب : المباحث البلاغية من ٢٠١ .

أبداً مشغول بالإقتاع وتبني المسائة وتقسيمها ، وضبط القواعد وحصر المسائل ، فالكتاب إذن تنظيم وتبويب ، وجمع للأدلة البيانية في إعجاز القرآن ، وليس فيه جديد مما ذكر في كتب السابقين^(١).

ومع كل هذه الملاحظات المعايرة يبقى كتاب الرازى ذا قيمة ووزن في دراسة البلاغة وتطورها ، لأن الرجل الأول نحو حصر مباحث البلاغة ، وتحديد أدبها ومسائلها ، وبذلك يكون قد مهد السبيل أمام السكاكي الذى اعتمد على كتاب الرازى ، اعتماداً كبيراً ، وصالح بلاغته من وحيه ، لتأخذ البلاغة على يديه صورتها الأخيرة ، وتحصى في فنون ثلاثة : المعانى والبيان والبيديع^(٢).

ومما يعنى هذا الرأى ما قاله المرحوم الأستاذ محمد خلف الله أحمد : « وفي رأينا أن الاتجاه الذى اتجهت إليه البلاغة في ثناياها إلى التبويب ، والتقسيم ، وتمييز الظواهر الجمالية كان اتجاهًا طبيعياً علمياً دعت إليه ضرورة التخصص ، وضرورة التقدم الفكري ، ولكن العمق الذى أصاب الأدب العربى فى بعض مراحل تاريخه ، وانصراف الشعراء والكتاب عن الابتکار إلى التقليد ونسائهم جوهرو الإبداع الفنى ، وانشغالهم عنه باغراض الحلية اللفظية ، والصناعة التشكيلية ، كل ذلك سرت عدواه إلى البحوث النقدية البلاغية ..»^(٣)

وإذا كان الرازى قد ألبى بلاءً حسناً في المباحث البلاغية ، فإنه من جهة ثانية مستول إلى حد كبير عن الجفاف الذى أصاب الفن من جراء الأساليب المنطقية ، ويعده عن الصواب عندما ترك استفتاء النفس في تعرف سر البلاغة . كذلك فإن إهماله للشوادر الأدبية ، والموازنة بينها قد أحدث خسارة لفن البلاغة لا تُغوي ، ومهما قيل من أن الرازى كان بصدده تقني ، وترتيب للأصول أكثر من أي شيء آخر ، فإن ذلك لا يخله من التبعية ، ولا يعفيه من مسؤولية

(١) انظر : تاريخ النقد العربى من القرن الخامس إلى العاشر الهجرى لاستاذنا الدكتور محمد زغلول سلام من ٢٤٣ ط . دار المعرف . وكتاب « التكاليف ونظرية إعجاز القرآن بين المعززة والأشاعرة » دعثير سلطان من ١٩٥ ط . مشكلة المعرف بالاسكتدرية . وانظر : في تاريخ البلاغة العربية د. عبد العزيز عتنق من ٢٦٩ من ٢٧.

(٢) انظر : مقدمة تحقيق كتاب نهاية الإيجاز في دراسة الإيجاز من ٤٧ ، وأحاديث في تاريخ البلاغة د. عبد الكريم الأسعد من ١٤١ ، وانظر : غوص الأفواح والدرس البلاغي في مصر حتى القرن الثامن الهجرى د. محمود شبارك من ٣١ - رسالة دكتواراه بمكتبة كلية الآداب ببنها .

(٣) انظر : من الوجهة النفسية في دراسة الأدب للأستاذ محمد خلف الله أحمد من ١٧٤ ط - معهد البحوث والدراسات العربية سنة ١٣٩ .

اتجاه هذا الفن يرمي إلى استيفاء الأقسام ، وضبط الحدود على حساب اتجاهه الأساسى في
تلمس الجمال وتعرف أماكن التأثير في العبارة^(١).

وهذا القول يجعلنا نشير إلى نقطة هامة ينبغي التتبّع لها ، والأخذ بها في عين الاعتبار
بكل اطمئنان ، وهي أن الرازى يبرز جهده البيانى وتقديره لشهادته بصورة أكبر في تفسيره
الكبير عنه في كتاب « نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز » وإليه تنتقل بالحديث لإبران هذه السمعة
الجدية بالتسجيل والاهتمام .

(١) انظر : *الظرف الرازى والبلاغة العربية من ٢٥٨* - رسالة دكتوراه - كلية اللغة العربية / الأزهر
محمد جلال الشبيق سنة ١٩٧٤ مخطوط .

مفاتيح الغيب، التفسير الكبير، للرازي (ت-٦٠٦ هـ)

يعتبر تفسير الرازي قمة في الاتجاه في التفسير بالرأي^(١) ، وهذا يعني أن الرازي لم يقتصر دراساته في البلاغة والإعجاز على نهاية الإيجاز ، وإنما بثها في تفسيره ، الذي يقع في ستة عشر مجلداً كبيراً ، وهو مطبوع ومتداول بين الباحثين ، وتكاد تجمع الأقوال على أن الرازي لم يتم تفسيره^(٢) وإنما الذي أتته هو أحمد بن محمد بن أبي الحزم نجم الدين القمي^(٣) (ت ٧٧٧) ، وشاركه في استكمال ما تقصّ منه شهاب الدين الخوئي المشتكي^(٤) (ت ٦٢٩) ، والقارئ لهذا التفسير لا يكاد يلاحظ فيه تناقضات في المنهج والسلك ، بل يجري الكتاب من أوله إلى آخره على نسق واحد ، وطريقة واحدة تجعل الناظر فيه لا يستطيع أن يميز بين الأصل والتكلّل^(٥) .

وتحصّار الأراء في تحديد الموضع الذي انتهى إليه الرازي في تفسيره ، ومن أتمه بعده^(٦) ، ويطلق الشیخ محمد النجفی على هذا التحصّار بقوله « ولم يحصل أحد من القدماء أو المعاصرین هذا الاضطراب وجميعها مجرد حلول ثانية ، والذي استطاع أن قوله - والكلام ما يزال الذهبی - كحل لهذا الاضطراب هو أن الرازي كتب تفسيره هذا إلى سورة الأنبياء » فما بعده شهاب الدين الخوئی فشرع في تكملة هذا التفسير ، ولكن لم يتم ، فما بعده نجم الدين القمي^(٧) ، فاكمل ما بقى منه ، كما يجزئ أن يكون الذهبی أكمله إلى النهاية ، والقمی^(٨) كتب تكملة أخرى غير التي كتبها الخوئی ، وهذا هو الظاهر من عبارة «كتشف الظنون» .. ولكنه يعود فيقول : أقول هذا وأعتقد أنه ليس حلاً حاسماً لهذا الاضطراب ، وإنما هو توفيق يقوم على الطعن ، والطعن يخطئ ويفسّب^(٩) .

(١) وهو ما يعتمد فيه المفسر في بيان المعنى على لغته الخامن ، واستنباطه بالرأي المجرد ، والاجتہاد . وبعد معرفة المفسر لكلام العرب ومتناهיהם في القول ، ومنه الرأي الجائز[كتفسير الرازي] ، والپیشماری والپیشماری والخازن وابن حیان الاندیسی ، ومنها المذکوم[كتفسیر الفرق المبتدعة] ومنه الكشاف الریمشتری . انظر التفسیر والمفسرین للذهبی ج ١ من ٢٦٦ ، من ٢٧٤ ، من ٣٤٣ ، مباحث في علم القرآن للشیخ متّع الطنان من ٢٤٥ ، وبمثال النوع الآخر لاتجاهات التفسیر كالتفسیر بالتأثیر ، ومنه الطبری ، وابن كثير ، والتفسیر الصویی والاششاری ، ومنه : طافات الإشارات للتشیری .

(٢) انظر : شذرات الندب لابن العماد المتنبی ٢١٧/٥ ، وبيان الآیات لابن خلکان ٢٦٧/٢ ، والبرد الكافی في آیات المأكولات الثالثة لابن حمیر ٤/١ ، وكتشف الظنون لاجنی خلیله ٢٩٩/٢ .

(٣) انظر : التفسیر والمفسرین للذهبی ج ١ من ٢٧٦ ومباحث في علم القرآن للقطان من ٣٦٢ .

(٤) يضمهم يذكر أنه يصل إلى سورة الأنبياء ، وآخرين ذكروا أنه يصل إلى سورة البينة وقسم ثالث ذكر أنه يصل إلى سورة الواقعة . انظر كشف الظنون لاجنی خلیله ٢٩٩/٢ .

(٥) انظر : التفسیر والمفسرین ج ١ من ٢٧٩ . ومباحث في علم القرآن من ٣٦٢ .

ومن يتحقق من هذا التفسير ويقرره قرامة متنية غير بجل ، يرجع لديه أن يكون الرازي وقف في تفسيره عند سورة الراقة ، ولم يتجاوزها ، فعلى سبيل المثال لا الحصر نراه يقول في سورة النور ، قد ذكرنا ذلك في أول سورة البقرة ، وفي الشعراء . يقول : وأعلم أنا قد بينا ذلك في سورة الأنعام ، وفي الزمر يقول : قد ذكرناه في سورة الأنعام فمن أراد الوقوف عليه ... إلخ .

ويتوقف هذه اللهم من أول سورة الراقة ، فنلاحظ قول القائل : « وشي من هذا رأيتك في كلام الرازي على أني معترض أني أصبح »
وغير ذلك مما يذكره القاري أن هذا القول لمؤلف غير الرازي ، وأنه لأحد متهمي التفسير .^(١)

هذا ، وأن تفسير الرازي ليحظى بشهرة واسعة بين العلماء ، وذلك لأنه يمتاز على غيره من كتب التفسير بالأبحاث الفياسحة الواسعة في نواح شتى من العلم ، ولهذا يصفه ابن خلكان بقوله : إنه أى. الرازي جمع فيه كل غريب وغريبة ^(٢) ، وكذلك نجده يستطرد في ذكر المسائل الفقهية والأصولية ، وال نحوية والبلاغية ، وإن كان لا يتسع في ذلك توسيع في مسائل الطهوم الكوبية والطبيعية ، وهذه الناحية غالب عليه حتى كانت تقلل من أهمية الكتاب كتفسير للقرآن ، وجعلت بعض العلماء يصفون تفسيره بقولهم : « فيه كل شيء إلا التفسير » ^(٣) .

والحقيقة أن رأي العلماء في الرازي - إنما يرجع أساساً إلى اختلاف في التكوين العقلي بين الرازي ، وبين هؤلاء العلماء ، وهذا ما جعل بحوث القراءة تطبع بطابعه ، وتأثر بفكرة الفلسفية ^(٤) .

واهتمام الرازي في تفسيره ببيان المناسبات بين آيات القرآن وسورة ، وفي هذا دلالة واضحة على اهتمامه بنكارة النظم القرآني بمعنى شعولي جديد ، فهي عنده لا تقتصر على الألفاظ وحدها ، أو الألفاظ والمعانى معاً ، أو العبارة وحدها ، وإنما على السورة ككل ، وارتباطها بغيرها من سور القرآن الكريم ، وأزعم أن هذا المذهب لم يُسوق إليه الرازي ، وينسب له ويضاف إلى رصيده الضخم في مجال الدراسات البينية والقرائية .

(١) انظر : مفاتيح القلب للرازي ج ١٥ من ١٤ وما بعدها .

(٢) انظر : ولیات الأیمان ج ٢ من ٢٧٧

(٣) انظر : كشف النقين لمحاجن خالدة ج ١ من ٢٢٠ وما بعدها .

(٤) انظر : المباحث البلاغية ١ . د . المصري من ٢٩٢ .

ونكرة النظم عند الرازي بهذا المعنى جديرة بأن يتخصص فيها باحث لإبراز مناحي الجدة واستقرارها في تفسيره .

والملاحظ أن الرازي قد تأثر بالزمخشري في تفسيره ، على الرغم من اختلافهما في المذهب ، فالزمخشري متكلم معتزل ، والرازي متكلم أشعري ، وكلاهما يفسر القرآن تفسيراً عقلياً ، غير أن مناحي التأثير جاءت في المباحث البلاغية دون سواها ، ولا يعني هذا أن الرازي الذي شخصيته وصار تابعاً للزمخشري في كل ما يقول لا ، فله آراء قد لا يذكرها سابقاً (١) ويرد عليه كثيراً في مذهب وفهمه للنص القراء (٢) .

والمتبادر في تفسيره يرى مدى الجهد الذي تبذله الرازي لإبراز الجوانب الجمالية لآية ، التي قد يطول فيها نقشه لدرجة أن يُنسى الكلام بعده بعضاً ، وأنه يختلف تناوله للقرآن في تفسيره عن تناوله لنفس الآيات في كتاب « نهاية الإيجاز » (٣) ، وسبب هذا أنه كان في الكتاب ينقل عن العلماء السابقين ، ويعتذر أقوالهم ، إلا أنه في كتاب « مفاتيح القلب » تبرز شخصيته العلمية المستقلة ، ويبعد أنه ترك تحليل النصوص القراءية في الكتاب وحللها في التفسير ، لأنه كان في الكتاب مشغولاً بالتقنيات والتقطيم والتقويم .

وهذا الفرض من التعليقات البلاغية على نفس الآيات التي لم تحظ منه إلا بالاهتمام القليل في كتابه « نهاية الإيجاز » لتصل على أن الكتاب ربما يكون قد ألقى في مرحلة مبكرة من العمر ، وفي مقابل بياته العلمية ، وبيناء شخصيته البلاغية ، يدلل أنه قد أشبع شواده القراءية – التي حرمت من التعليق في الكتاب - بحثاً وبياناً وإيضاحاً في التفسير الكبير ، ولعل هذه النظرة المتغيرة هي التي حدث برأستنا الدكتور أحمد عبد العزzi أن يقول : إنه أي الرازي - كان له أعظم الأثر في الدراسات القراءية والبلاغية خاصة إذ أنه أخضع تفسير الذكر الحكيم للعقل وأرسى القواعد التقريرية في علم البيان العربي » (٤) .

ونكتفي هنا - ببعض النماذج الدالة على ما ذهبنا إليه ، فمثلاً في حديث عن أقسام المجاز ، ذكر الآيات من غير تعليق ، ومنها قوله تعالى : « قَمَا زَرِيتْ تِجَارَتْهُمْ » (٥) ، وفي التفسير يطيل الحديث عنها وتختصر منه الآية « قَمَا رَبِحتْ تِجَارَتْهُمْ » فالمعنى أنهم ما ربحوا

(١) انظر : تفسيره آية ٧٧ من سورة الرحمن .

(٢) انظر : تفسيره للآيتين ٢٢ ، ٢٣ من سورة الرسالات .

(٣) انظر : تعليله على آية ١٦ ، من البقرة ، وأية ١٥٩ من آل عمران . تفسيره ج ٢ من ٧٧ ، ج ٩ من ٦٦ .

(٤) انظر : مباحث بلاغية في شعر ، قضية الإعجاز القراء من ٢٩٠ .

(٥) سورة البقرة آية / ١٦ .

في تجارتهم ، وفيه سؤالان الأول : كيف أستد الخسران إلى التجارة وهو لأصحابها ؟
الجواب : هو من الإسناد المجازي ، وهو أن يسند العقل إلى شيء يلتبس بالذى هو في
الحقيقة له كما ثبست التجارة بالمشتري ^(١).

ولا يكفى الرازى في تفسيره بذكر علاقات المجاز المرسل المذكورة في مؤلفه البلاغي ،
والمأمور من كلام عبد القاهر ، ولكنه يضيف بعض علاقات المجاز المرسل ^(٢) هذا من ناحية ،
ومن ناحية أخرى فإنه يقف منها لبيان سر العدول عن الحقيقة وإثارة إبراد المجاز من ذلك ،
وأنه في أداء المعنى ، وأن البلاغة في محبته .

نرى ذلك في آثاره ، تفسيره لقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا تُنْهَا السَّفَهَةُ أَمْوَالَكُمْ الَّتِي جَعَلَ
اللَّهُ لَكُمْ قِيمًا﴾ ^(٣).

قال : قوله تعالى «التي جعل الله لكم قياماً» معناه : أنه لا يحصل قيامكم ولا معاشكم
إلا بهذا المال ، فلما كان المال سببا للقيام والاستقلال سماه بالقيام ، إطلاقاً لاسم السبب على
السبب على سبيل المبالغة ، يعني كائن هذا المال نفس قيامكم وابتناء معاشكم ^(٤).

و واضح أن التعبير عن المال وهو السبب باسم السبب وهو القيام فيه مبالغة في أمر هذا
المال ، وهذا وبالتالي ينعكس على معنى الجملة والمراد منها ، فإذا كانت الآية تنهى عن تكين
السفهاء من المال ، فإن التعبير عنه بالقيام والمبالغة في بيان أمره أدعى للامتثال ، وأحرى
بالإنذار لهذا النهي .

والرازى في التشبيه صولات وجولات تدل على تعبيره في هذه الفن ، ومن ذلك تصديقه
للمخضرى للموازنة التي قام بها بين قوله تعالى «إِنَّهَا تُنْهَا بِقَنْطِيرٍ كَالْقَسْرِ كَائِنَةَ
جِبَالٍ حَصْنٍ» ^(٥) ، وبين قول ابن العلاء المجرى :
حمراء ساطعة النواشر في الدجى * ترمسي بكل شراراة كطرف
وما زعمه صاحب الكشاف أن المجرى ذكر ذلك معارضته للأية ، ورد عليه يقره : كان
الأولى لصاحب الكشاف أن لا يذكر ذلك ، وإن قد ذكره فلا بد لنا من تحقيق الكلام فيه ^(٦).

(١) انظر : مفاتيح القيد الرازى ج ٢ من ٧٧ .

(٢) ومن هذه العلاقات : اعتبار ما كان ، واعتبار ما يكون ، والكلية ، والجزئية ، والمحلية . انظر على
الترتيب تفسيره للآيات الثالثة /٢١/ النساء ، ١٧ ، / المقى ، ١٩ / البقرة ، ٢٧ الرحمن ، ٣٦
 يوسف

(٣) سورة النساء آية / ٥ (٤) انظر : مفاتيح القيد الرازى ج ٣ من ١٤٤ .

(٥) المرسلات : ٣٢ ، ٣١

(٦) انظر : تفسير الرازى ج ٣ / ٢٨٦ / ٢٧٨ / ٢٧٩ - ٥٢ -

وحقق الرازي الكلام في ذلك ، وذكر وجهاً كثيرة لبيان فضل الآية على البيت والقبح فيه ثم عقب على ما ذكره من أوجه بقوله : « ولو طلبت من الله المزيد لأعطيك ، لكن هذه الوجه كافية في بيان الترجيح والزيارة عليها تعد من الإلتباب »^(١).

وخلال تفسير الآية آنـ - تعالى - شبه ذلك الشر بثنين : الأول : بالقصور العظام وشبه الشرر في القصور ، وفي اللون والكلورة والتتابع وسرعة الحركة بالجمادات الصفر وقيل أيضاً - إن ابتداء الشر يعظم فيكون كالقصور ، ثم يفترق ف تكون تلك القطع المتفرقة المتتابعة كالجمادات الصفر »^(٢).

وفي خبره ما تقدم يتبين لنا أن الرازي يقتضي المعانى من أغوارها السحرية لبيان جمال النص القرائى وإبراز تقوفه على كلام البشر .

ومن أبرز المعاصر البayanية التي وجدناها في تفسيره ، ولم تظر بحظ يليق بها في كتاب نهاية الإيجاز^(٣) الاستعارة التمثيلية ، وقد وقف عندها في آنـ تفسيره لقوله تعالى « لَأَخْذُنَا وَجِلْوَةً قَنْدِنَافِمْ فِي الْهَمِّ »^(٤) (١) ويلاحظ على الرازي في تفسيره للآية أنه وقف عند حد أجزاء التشبيه . وبعد هذا يستعمل المشبه به في المشبه إذ هذه استعارة ، وليس مجرد تشبيه تمثيلي قال : « شبههم استحقاراً لهم ، واستقلالاً لعدمهم ، وإن كانوا الكثير الكثير ، والجم الفقير ، بحصيات أخذنـ في كنه فطروحـ في البحر . ونحو ذلك قوله تعالى « وَالْأَزْفَنْ جَيْمِعًا قَبَضَتْ نِفَمْ الْقِيَامَةَ وَالشَّمَوَاتِ مَطْبُواَتِ يَبِيِّنَهُ »^(٥) (٦) ، وليس الغرض إلا تصوير أن كل مقدور وإن عظم ، فهو حقير بالقياس إلى قدرته »^(٧).

ويلاحظ على الرازي أنه قد أشار هنا إلى ما لم يشر إليه في كتاب نهاية الإيجاز ، وهو جوهر الغرض في هذه الاستعارة الذي هو تصوير المشبه بصورة المشبه به ، وهو لا ينظر إلى مفردات المشبه به مفتردة ، وإنما ينظر إلى ما يقيده التركيب جملة ، كذلك تلاحظ عليه أن كلامه في هذه الآية يكاد يكون اختصاراً لما قاله الزمخشري فيها^(٨) والغريب أن الرازي لم يشر إلى هذا التلل .

(١) انظر : تفسير الرازي جـ ٢ ، من ٢٧٤ ، من ٢٧٨ ، من ٢٧٩

(٢) انظر : تفسير الرازي جـ ٢ ، من ٢٧٤ ، من ٢٧٨ ، من ٢٧٩

(٣) انظر : نهاية الإيجاز من ٨١ .

(٤) القسم آية : ٤ .

(٥) سورة الزمر آية : ٧٧

(٦) انظر : تفسير الرازي : آية ، ٤ من سورة الرحمن

(٧) انظر : الكشاف للزمخشري جـ ٢ ، من ١٦٤

وتحدث الرازي عن الكتابة في تفسيره وجمع أشناتها ، وفرق بينها وبين التعریض على الرغم من أنه لم يفعل ذلك في كتابه - مخالفًا كثیراً من العلماء الذين لم يفرقوا بينها من جهة ، وكان أوضح وأكثر فهمًا من فرق بينهما من جهة أخرى كالزمخنري^(١) .

ويرى الرازي أن التعریض والتبریح شيء واحد^(٢) ، وأن التبریح والرمز للإشارة ترادف التعریض ، بمعنى أنها تفهم من القرآن والسياق ، وليس من الألفاظ .

هذا ولم يكن الرازي يدعا في هذا ، فالزمخنري نفسه قال بذلك ، وكان الرازي أثر واضح في السلاكى وصاحب المطران .

ونكتفي بما ذكره الرازي في تفسير قوله تعالى : « قَمْلَنَةً عَلَى آلَوَاجِ دَسْرِ »^(٣) ، لنجعل تفسير الرازي للكتابية وبالغتها . يقول : « ... أي سفينة ، حذف الموصوف ، وإنما الموصوف مقامه إشارة إلى أنها كانت من آلواج مرکبة موئلة بدسر ، وكان انتفاكه في غاية السهولة ، والرازي هنا يعطيها تفسيرًا للكتابية وبالغتها ، وسر العدول عن الموصوف ، وذكر أوصافه المتباينة عنه ، وهي في الواقع لحة بارعة منه ، لم تمهدها عليه في كتابه « نهاية الإيجاز» .

ونكتفي بهذا القدر مما أوردنا من تفسير الرازي ، من غير مناقشة أو استقصاء ، خشية الخروج عن موضوع البحث ، وعلى أمل اللقاء بأول رجل أمسك بالبلاطة بعد أن عبرت قطرة الرازي ، ولم تلتفظ أنفاسها بعد .

(١) انظر : الكشف للزمخنري : ج ١ ، من ٢٧٦ ، وتفسير الرازي : سورة البقرة آية [٢٧٢] .

(٢) انظر : تفسير الرازي : سورة النحل آية [١٢٦] .

(٣) سورة القمر آية [١٢] .

مفتاح العلوم للسكاكى المتوفى سنة ٦٢٦

يعد سراج الدين يوسف أبو يعقوب السكاكى التوارزمي المتوفى سنة (٦٢٦ هـ) (١) من أعيان رجال البلاغة في القرن السابع ، أكب على دراسة الفلسفة والمنطق وعلم الكلام والفقه وأصوله ، وعلوم اللغة والبلاغة حتى اتقنها ، وكانت شهرته في البلاغة تفوق كل شهرة .

ألف كتابه « مفتاح العلوم » وجعله ثلاثة أقسام : الأول : في علم الصرف والذي لا يتم إلا بعلم الاشتغال ، والثانى : لعلم النحو ، والذي لا يتم إلا بعلم المعانى والبيان .

أما القسم الثالث : فقد خصه لعلم المعانى وعلم البيان ، وجعل علم البديع تابعاً لهما .

وشهرة السكاكى العلمية إنما دوت من القسم الأخير من كتابه ، الذى أعطى فيه للمعانى والبيان والفصاحة والبلاغة والبياع الصيبة النهاية التي حكت عليها العلامة من بعده بالدرس والتأخيص والشرح مراراً وتكراراً ، وميله السافر إلى تحكيم المقولات الفكرية في شجون البلاغة (٢) .

وما أطعاه السكاكى لعلوم البلاغة ، ليس ابتكاراً خالصاً له ، وإنما هو تلخيص دقيق لشروح غيره من المقدمين في البلاغة ، وأضاف إليها ما استطاع أن يضيفه من أفكاره الخاصة التي يقلب عليها الحجاج المنطقى . وصاغ ذلك كله صياغة دقيقة محكمة تتم عن مقدرة منطقية عجيبة في التعليل والتقسيم والتشعيب .

وأهم الكتب التي اعتمد عليها السكاكى في الموضوع بهذا العمل كتاب « نهاية الإيجاز في دراسة الإيجاز » لعاصره الفخر الرازى ، وكتاباً « دلائل الإيجاز » و« أسرار البلاغة » لمعبد القاهر الجرجانى ، وكتاب « الكشف » للزمشري ، الذى استوعبه استيعاباً دقيقاً . وقد سبقه الرازى إلى تلخيص كتابى عبد القاهر ، ولكن تلخيص السكاكى جاء أدق وأشمل من تلخيص الرازى ، بسبب ضبطه وتنظيمه للمسائل مع ترتيب المقدمات وإحكام المقاييس .

ومع ذلك فقد خلا تلخيصه من تحليلات عبد القاهر ، التي تبرأ القارئ وتتأسى عليه له ، وتحولت البلاغة على يديه إلى مجموعة من القوانين الجامدة ، والتقواعد الجافة ، والتقسيمات المنطقية التي تشبه إلى حد كبير قواعد النحو والصرف والعروض وتقسيماتها (٣) أو الاتجاه نحو

(١) انظر ترجمته في معجم الآباء، لياقوت الحموي ٧/٢٠٦ ، وشذرات الذهب ٨/١٢٢ / الأعلام التزكي ٨/٢٢٢ .

(٢) أحاديث في تاريخ البلاغة من ١٦٩ .

(٣) انظر : المباحث البلاغية في شعر قصيدة الإيجاز الرازى ١ . د . أحمد المرى من ٣٢٤ ، والبلاغة العربية الدكتور / على عشري من ١٤٠

النوج التقني المنطقي^(١) على حد قول أستاذنا الدكتور المعرى . وطبقى على دعج البيان
ومضائه التي تمنع نفس القارئ .

ولا عجب في ذلك فقد كان هم المؤلف أن يكتنِّي البلاغة ويقتنِّها كسائر العلوم الأخرى ،
ولذا كان عبد القادر مهندساً عبقرياً بين مدينة فاسحسنا وأجملها ، فإن السكاكي هو الذي
وضع أسماء ميادينها وشوارعها ، ورقم قصورها ومنازلها ، فاكتمل للمدينة جمال الإنماء
وحسن التنسيق^(٢) .

ومن الحق أن نقول : إن تقسيم السكاكي للبلاغة ، وإفراد مباحثتها قضى على التشوش
والخلط الذي مر بنا عند الخير الرازي ، وإن كان هذا الرأي بعد مخالفة لبعض المشتغلين
بالدراسات البلاغية والتقدمة الحديثة ، الذين وصفوا منهجه بأنه قد جمد البلاغة بعد أن تحول
النقد إلى بلاغة^(٣) ، واعتبروه عائقاً لنوعها^(٤)؛ بسبب إخفاقه في تحقيق ذلك التوازن بين النوع
والقاعدة ، حيث طلب الجاحظ التقديمي على الذوق في كتابه طغياناً مبييناً^(٥) .

ولا نظن أن هذا الحكم يُقبل بهذه الصورة ، لأن الدراسة المستفيضة فيما كتب السكاكي
تجعلنا توافقه على تقسيماته تتماماً للمرحلة التي بدأها غيره^(٦) وما ضير عالم بذلك جهداً ، ثم
عكَّف عليه الباحثون من بعده يدورون حوله ، ويسيرون محظوظون دون أن ينطلقوا من حيث انتهى
هو !!

ومما يؤكد هذه النظرة ثناء بعض الباحثين على منهج السكاكي وتقسيمه الذي يسرّ
دراسة البلاغة لما في ذلك من منهجية تجعل القارئ يستسيغها ويتفهمها ويعيها^(٧) ، لأن
تقسيمه مع شروح غيره من المتقدمين في البلاغة توغان متكافئان ، وكل منهما يوضح الآخر ،
ويُعْنِيه ، وبهما تتفق الصورة البلاغية بين النظرية والتطبيق ، وإن كان التطبيق قبل النظرية
عند الذين سبقو السكاكي في الكتابة في البلاغة العربية^(٨) .

(١) المباحث البلاغية ١ . د . المعرى من ٢٤٧

(٢) انظر : في تاريخ البلاغة العربية . د . عبد العزiz عتيق من ٢٧٢ ، والجهاز في اللغة والقرآن
ال الكريم . د . عبد الطليم المطعني ج ٢ من ٢٢٩ - مكتبة ورقة - القاهرة ١٩٧٩

(٣) انظر : النقد الأدبي الحديث أصوله واتجاهاته . أستاذنا الدكتور / أحمد كمال زكي من ٤٨ /
المهنة العامة للكتاب / القاهرة سنة ١٩٧٢

(٤) انظر : البلاغة عند السكاكي . د . أحمد مطر من ١١٥ ، من ١٦ ، ومناهج بلاغية دعمت من ٢٤٨

(٥) انظر : البلاغة العربية وأثر الفلسفة فيها - الاستاذ أمين الزواوي ط ١٩٣٤ ، وبماهث بلاغية
أ . د . المعرى من ٣٢٤ .

(٦) انظر : المسورة البدوية بين النظرية والتطبيق . د . حفني شرف من ٢٦ - مكتبة الشباب /
القاهرة

(٧) نظرات في البلاغة والإستاند . محمود الكردي من ٧ . ط . المساحة / القاهرة سنة ١٩٧١

(٨) انظر : الصورة البلاغية عند بهاء الدين السبكي . د . محمد برకات أبو علي من ٦٠ . دار
ال الفكر / عمان سنة ١٩٨٣ م

ولذا كان العيب المروض في منهج السكاكي هو تمايزه في فصل أنواع البلاغة فصلاً تماماً، وإقامة الحاجز بينها حتى جعلتها علىًّا مستقلة ، فإنه خط بقلمه أدق منهج تفصيلي لكتلاب البلاغة وجزئياتها ، وأصولها وفرعيها^(١).

وقد قسمت مباحث البلاغة في القسم الثالث من المفتاح إلى شطرين شطر يتعلق بالنظم وسماء علم المعانى^(٢) وشطر آخر هذه التسمية من تعريف عبد القاهر للنظم ، وشطر يتعلق بالجاز والاستعارة والتشبيه والكتابية وسماء علم البيان ، وهو أول من أطلق على هذه الفنون هذا اللقب ، ولم يجعل البديع علماً مستقلاً بل جعله لاحقاً بهما ، ومكملاً لهما ، وهذا فهم قاصر منه^(٣) ، لأن البديع في الحقيقة ليس في يد الفنان حلية تقفس ولا زينة يستقني الكلام عنها ، ولا يجيء مكانه في المرونة الثالثة بعد استيفاء علم المعانى والبيان حقهما ، فإن الإنتاج الآخرين يبرر إلى الوجود في نظمه الخاص بالصورة البيانية والمحسنتات البدوية دفعة واحدة ليقوم بنصبيه من آداء المعنى^(٤).

وبعبارة أخرى يمكننا أن تعتبر السكاكي أول من حاول أن يميز في وضوح بين علوم البلاغة ، وأن يقدم بها خطة لتوزع مباحثها بين ثلاثة أقسام هي :

- مباحث الجملة وما يتصل بها ووضع لها اسم « علم المعانى »
- مباحث الصورة من حيث ثانية المعنى ، ووضع لها اسم « علم البيان » .
- سائر الأنواع يجعلها تحت اسم المحسنات التي قسمها قسمين : معنوية ولغظية ، وبقيت خطة صغيرة فجاء الخطيب وبخطا هذه الخطة الأخيرة ، فوقف عند ما سماه السكاكي بالمحسنات واحتفل له بذلك الاصطلاح القديم وسماه : « علم البديع » .

ويذلك أخذت علوم البلاغة وضمنها الآخرين فتحددت موضوعاتها وانفصلت أقسامها ، ووضعت أسماؤها : المعانى والبيان والبديع ، وعلى ذلك سارت الدراسة إلى الان^{(٥) ... (٦)}.

(١) انظر : المجاز في اللغة والقرآن من ٢٢٩

(٢) انظر : مفتاح العلوم السكاكي من ١٦١ : من ٢٢٨ / دار الكتب العلمية / بيروت .

(٣) انظر : المعانى في شعر ، أساليب القرآن . د . عبد الفتاح لاشين من ٣٦ . ط . دار المعرفة / مصر سنة ١٩٧٦ م . وكتاب « أحاديث في تاريخ البلاغة » د . الأسعد من ٧٠ . ومصطلحات بلاغية من ٨٧ ، والبلاغة عند السكاكي من ٦٥ .

(٤) انظر : من بلاغة القرآن الدكتور أحمد بدوى من ١٨١ . ط . دار تهذبة مصر / القاهرة / ١٩٧٧ م

(٥) انظر : مقدمة تحقيق بديع القرآن . د . حفظ شرف من ٢٩ . من ٣٠

(٦) يطلق اصطلاح البلاغة على علمي المعانى والبيان ، وإن كان كثير من البلاغيين يسمى الجميع علم البيان كما فعل ابن الأثير في المثل الساخر ، والبلاغة علم البديع ، كما فعل ابن أبي الأصبع المصري - انظر التلخيص في علم البلاغة . من ٣٧ .

وبيدا السكاكي كل قسم من أقسام البلاغة الثلاثة بتعريف جامع له فيقول في علم المعانى « هو تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ، ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضى الحال ذكره ^(١) ». ويرى بعض الباحثين أن السكاكي أخطأ في تصر تطبيق الكلام على ما يقتضى الحال ذكره على مسائل علم المعانى ^(٢) وال الصحيح أن ما ذكره السكاكي شامل لفتوت البلاغة جميعاً حتى أن فتوت البديع ينفي أن تتحرى المطابقة فيها بين الأساليب ومقتضى الحال ، لأنه لا قيمة لإيراد الفظ أو تزيينه إلا إذا كان في وسع القاريء أو الساعي فهمه وإدراك ما فيه ويبحث السكاكي في هذا الفن : الخبر والإشارة ، والتقدم والتأخير ، والمحذف والذكر ، والفصل والوصل .. إلخ ، وكلامه في هذه الأنواع لا يخرج عن حدود النحو ويدور بما في قضايا منطقية بعيدة عن هذا العلم ، وتتأثره في تقسيم علم المعانى بعد القاهر في « دلائل الإعجاز » واضح ^(٣) .

ثم يخرج بما السكاكي من علم المعانى إلى علم البيان فيعرقه بقوله : « هو معرفة إيراد المعنى الواحد في طرق مختلفة بالزيارة في وضوح الدالة عليه ، وبالنحسان ليحترز بالوقوف على ذلك من الخطأ في مطابقة الكلام ل تمام المراد منه » ^(٤) .

وقد حدد السكاكي في هذا التقسم أنواع البيان المعرفة ، وحصرها في أربعة أقسام : التشبيه والمجاز والاستعارة والكتابية ، وقبل السكاكي كان مفهوم البيان واسعاً يدل على البلاغة كلها ، حتى جاء السكاكي فحصر ما كان واسعاً ، ووضع للبيان أقسامه المحددة وبذلك أصبحت كلمة البيان عنواناً على له أصوله وقواعدة الخاصة ^(٥) .

وتتكلم في الباب الأول عن التشبيه ، وتوسيع فيه من حيث طرفاها ، وجده الشبه والغرض منه ، وأقسامه وأحواله في القرب والقرابة والقبول والرفض ^(٦) ، ولم يفتتنا - أن يبيدي رأيه في التشبيه التمثيلي ، مقرراً أن وجه الشبه فيه ينفي أن يكون مركباً ، وأن يكون وعمايا اعتبارياً ، وهو في ذلك يخالف عبد القاهر الذي يشترط أن يكون وجه الشبه في التشبيه التمثيلي مركباً ، وأن يكون عقلياً ، والعقلاني عنده الوهمي ^(٧) .

(١) انظر : مفتاح العلوم السكاكي من ١٦٦ (٢) انظر : البيان العربي . د . بدوى طبانه من ٢٤٣

(٣) انظر : تاريخ النقد العربي . ١ . د . زغلول من ٢٤٣ طبع : دار المعارف .

(٤) انظر : مفتاح العلوم من ١٦٢

(٥) انظر : البيان العربي . د . بدوى طبانه « بتصريف » من ٢٥٠ ، والبيان في شوه أساليب القرآن .

عبد الفتاح لاشين من ١٠ ، والباحث البلغية ١ . د . المعرى من ٣٤١ مكتبة الشاتكى / القاهرة

(٦) انظر : مفتاح العلوم السكاكي من من ٢٣٢ : من ٢٥٥

(٧) المصدر السابق من ٢٤٦

ثم ينتمي الباب عن مراتب التشبيه وهي منه كثيرة كأقسامه وأحواله ، وهذه الأقسام الكثيرة تدل على نظرية السكاكي المنطقية المعتمدة على الحصر والتقطيع من غير أن يلتفت إلى أنه يؤلف في البيان مما أفسد التدقق وعُقد الفتن ، وكذلك بإزاء مسائل رياضية صعبة الحل .

وهو في مبحث التشبيه يستمد حديته من الرأى ، ويستحضر بما كتبه في كتابه « نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز » ، وكان الأجرد به أن يكتفي بعد القاهر في تحليلاته الرائعة للتشبيهات المتنوعة بعيداً عن هذا الحصر العلمي الدقيق .

ويذكر ما نرسى إليه ملاحظتي أستاذنا الدكتور العمرى على هذا التقسيم، الأولى : قيامه على أساس منطقى ذهنى ، وليس على أساس فنية أو قيم بلاغية جمالية ، والثانى : جفاف الصياغة ومنطقيتها ، وخلوها من الحس الفنى الذى تفتقر إليه آية دراسة بلاغية (١) .

ثم عقد باباً للمجاز قسمه خمسة أقسام تضم الاستعارة ، وقبل أن يمضي في تقسيمه المجاز تعرض للمحدث عن الحقيقة ، لأنها تعد أصله ، وقد جره هذا إلى مباحثت علم الكلام ، ويجري في ذلك مجرد علماء الأصول ، ويرجع إلى كتبهم يستمد منها ، وبذلك يكون السكاكي أول من لفت انتظار البالغين للرجوع إلى كتب الأصوليين على نحو ما فعل .

وأخذ بعد ذلك يتحدث عن أقسام المجاز ، فقسمه قسمين أساسين : لفوى وعقلى ، لفوى ويكون في المفرد ، وقسمه إلى قسمين أيضاً : مجاز لفوى علاقته المشابهة وهو الاستعارة بكل أنواعها ، ومجاز لفوى علاقته غير المشابهة وهذا هو المجاز المرسل بعلاقاته المختلفة (٢) ، أما المجاز العقلى فيكون في الجملة أو الاستناد .

وفرز كل قسم منها إلى فروع وأصناف ، ميزاً مهاراته في التقسيم والتشريح وهو في هذا الباب يقتفي أثر عبد القاهر في كثير من مباحثه ، ومنها تقسيم المجاز إلى لفوى وعقلى وتقسيم المجاز العقلى إلى أربعة أقسام ، وبالاحظ في تقسيمه له شيئاً من التصور والاضطراب ، لأنه جرى في تقسيم المجاز إلى لفوى وعقلى بحسب رأي الأصحاب ، أما رأيه فالنقاوء ما سموه بالمجاز العقلى (٣) .

ومعنى ذلك أنه لم يكن مقتنعاً كل الاقتضاء بذكرة المجاز العقلى حين درسه وأجهد نفسه في مسائله وقضاياها ، وإنما فعل ذلك مجارة للأصحاب كعبد القاهر والزمخشري والرأى ،

(١) انظر : مباحث بلاغية من ٢٢٨

(٢) وهذا القسم خاص بالبالغين دون الأصوليين ، وسيظهر ذلك في الباب المخصص للأصوليين انظر من ١٩١ : من ١٧٢

(٣) انظر : مفتاح العلم من ٣٦٢ ، من ٣٩١

لذا نواجه حين فرغ من بحثه ، أى المجاز العقلاني « سرعان ما انقض عليه وأنكره » ، ووضع عليه شارة غير شارته ١١ وبالبسه ثواباً غير ثوبه ، ونحله تسمية غير تسميته ١٢ ، وإن في ذلك تكفاراً واضحاً وكان حقه إما أن يتابع الزمخشري وبعد القاهر في هذا المجاز ، أو يليق به إلغاء ، لأن حقته يعود إلى ضرب من التسامح في التبيير ١٣ .

أما الاستعارة فتقسمها إلى شاذة أقسام ، وهذه الأقسام من بنات (أفكاره ، وإن كان عبد القاهر قد مهد له ببساطته الضوء على تنوين من الاستعارة هنا : الاستعارة التصريحية ، والاستعارة الافتنة⁽²⁾).

ولم يقف بالاستعارة عند القاهر ، ولكنه استمد أحياناً من المختشري ، ويظهر عليه طابع أهل خوارزم فهو قريب في روحه من المختشري^(٤).

ويحدث السكاكي عن قسم آخر من أقسام المجاز هو الراجع إلى حكم الكلمة في الكلام

وخصص الباب الثالث للحديث عن الكثابة ، ويعرفها بقوله : « الكثابة هي ترك التصریح بذكر الشیء إلى ذکر ما يلزمـه ، ليتینقل من المذکور إلى المتروک ، كما تقول : فلان طریل النجاد لانتقامـه ، منه إلـى ما هو ملزمـه وهو طول القامة »⁽⁷⁾.

والكتابية تتفاوت عنده إلى تعریض وتلويح ورمي وإيماء وإشارة ، ويفرق الساكنان بين الكتابية والمجاز ، ويثبت أنها من التصريح بطريق اللف والدوران بين الملزم ، واللازم والملزوم ، وانتهى إلى حال الكتابة كحال المجاز من كون الشيء معها مدعى بيته مع أن الإفصاح بالذكر مدعى بغير بيته ، وذلك منه أن مبنى الكتابة على الانتقال من اللازم إلى الملزوم ، ويعنى المجاز على الانتقال من الملزوم إلى اللازم⁽⁴⁾ .

^(١) انظر : المجاز في اللغة والقرآن من ٢٤٤ - ٢٧٨ .
^(٢) انظر : البلاقة تطور وتاريخ من ٢٧٨ - ٣٠٣ .

(٢) انتداب: انتداب البلاقعة بعد القاهر من:

العنوان: مسرور الجعفرى سعيد العابد من... (١)

(٦) انظر : تاريخ النقد العربي ١ - د . زغلول سلام من ٤٤٢

(٤) انظر : مفتاح العلم ص ٣٦٩ : من ٤٠١

(٦) انظر: المصدر نفسه من ٣٩٩

(٨) انظر: المصدر نفسه من ٤٠٢ ، من ٤٠٤ .

ANSWER The answer is 1000. The first two digits of the product are 10.

ويقسم الكتابة إلى ثلاثة أقسام : أحدها : طلب نفس الموصوف ، وثانيها : طلب نفس الصفة ، وثالثها : تخصيم الصفة بالموصوف^(١).

وهذه الأقسام ذكر منها عبد القاهر قسمين : هما الكتابة عن صفة وعن نسبة وجاء الرشحري فاتم الكتابة عن موصوف ، ولكن السكاكي نظم هذه الأقسام ثم قسم بعضها إلى قريبة و بعيدة ، وحال تقييئها ووضع الخصائص التي تميزها عن غيرها ، ولا يقف عند تسميتها إلى قريبة و بعيدة فحسب ، ولكنه يقسم القريبة إلى واضحة و سانجة ، وهذه التقسيمات والتعريفات التي وقف عندها السكاكي وقف عندها المتأخرین ، ولم يحاولا الخروج منها أو الاجتهاد في ذلك^(٢).

ذلك خلاصة ما أورده السكاكي في كتابه عن أقسام البيان ، وإن كان في تقسيمه جاء مضطرباً بخلاف تقسيمه لعلم المعانى ، فقد كان دقيقاً ، إذ جعله في قوانين وتحت القوانين قانون ، أما في علم البيان فقد جعله في فصلين وتحت عن ثلاثة ، ثم جعل فصولاً تحت الأصول مع أنه ذكر أن علم البلاغة يقوم عنده على فصلين الأول : المعانى ، والثانى : البيان ، ولو سار على ما سار عليه في تقسيم علم المعانى إلى قوانين وقانون لكان أنساب من تقسيمه الذي ياهى به واقتصر على غيره من البلاعرين^(٣).

ثم ينتقل بنا السكاكي للحديث عن علم البديع وهو عنده علم يعرف به وجوه تحسين الكلام^(٤)، ويقسمه إلى قسمين : قسم راجع إلى المعنى كالتطابقة والمزاوجة والمشاكلة وغيرها ، وقسم يرجع إلى اللقط ، ومنه التجنيس ، والترصيع ولزوم ما لا يلزم ... الخ^(٥)، ولعل السكاكي أول من قسم المستفات البدعية هذا التقسيم ، لأن السابقين له كانوا يوردونها في صورة مختلفة ، وهذه المستفات جمعها السكاكي من كتابة الذين سبقوه من العلماء ، وليس له شيئاً من الجهد في استخراجها ولا الإشارة إلى جدواها وأثرها في تحسين المعنى أو تجميل المبني^(٦) وينهض في أقسام البديع الرئيسية إلى أقسام فرعية كثيرة كما فعل المطرنی ،^(٧) أوكل ما ذكره من قانون البديع مستمد بأمثاله من الرازي الذي استمدّها بيده من الوطواط كما أسلفنا .

(١) انظر : المفتاح من ٤٠٢ ، من ٤٠٣ ، من ٤٠٤ .

(٢) انظر : الكتابة أساساتها وموائفها في التصرير الجاهلي لمحمد الصسن على الأمين من ٧٠ / المكتبة الليبسانية / مكة سنة ١٩٨٥

(٣) المصادر السابق من ٧١

(٤) انظر : مفتاح العلوم من ٤٢٢

(٥) المصادر السابق من ٤٢٣ : من ٤٢٤ (٦) انظر البيان العربي بدين طبلان من ٣٤٨ .

(٧) انظر تاريخ النقد العربي ١ . د . زهير سلام من ٢٤٣

ثم يأخذ الساكتي بعد ذلك في عقد فصول في الكلام عن البلاغة والفصاحة يجعل لكل منها مجاله الخاص (١) ويرى أن البلاغة هي بلوغ المتكلم في ثانية المعانى حداً له اختصاص بتوفيق خواص التراكيب حقها ، وإبراد أنواع التشبيه والجاز والكتابية على وجهها (٢). واضح من خلال هذا التعريف أن البلاغة عنده إنما تشمل علمي المعانى والبيان فقط ، وجعل البلاغة حدوداً ثلاثة : أعلى وأسفل ، وبينهما مراتب تتراكم بتقاويم البلاغة ، وهو في ذلك يجرى مجرى الرانى (٣).

ومضى في إثر الزمخشري يجعل علمي المعانى والبيان الوسيلة لاكتساب النون الذى تدرك به مواطن الجمال البلاغى . وكشف بعض أسرار القراءة البلاغية .

ثم تحدث عن الفصاحة وقسمها قسمين : قسماً يرجع إلى المعنى ، وقسماً يرجع إلى النطق ، أما الذى يرجع إلى المعنى فهو خلوص الكلام عن التعقيد ، وأما الذى يرجع إلى النطق وهو أن تكون الكلمة عربية أصلية . وعلامة ذلك أن تكون على السنة الفصحاء من العرب الموثوق بعربيتهم ، لا مما أحدهم المولدون ، ولا مما أخطأه فى العامة (٤)

ذلك خلاصة ما جاء به الساكتي من مباحثات على علم البلاغة فى القسم الثالث من كتابه «مفتاح العلوم» الذى أكثر فيه من التقسيمات والتفرعات التى جعلته عرضة للاتهام والهجوم من قبل كثير من العلماء (٥) الذين وصفهم أحد الباحثين بقوله : «وكتيرون هم الذين هاجموا

(١) لم يكن يفرق عبد القاهر بين البلاغة والفصاحة ونائبة فى ذلك الزمخشري والرانى وبخالقهما الساكتي .

(٢) انظر : مفتاح العلوم من ٤١٥

(٣) انظر : المصور السابق نفس المسألة ، ونهاية الإيجاز من ٨٩ ، ٨٣ .

(٤) انظر : مفتاح العلوم من ٤٦

(٥) من هؤلاء العلماء من جمل الساكتي إنما أنه أول من منقى البلاغة وأسس دعائياً على مسخرة النطق والفصاحة ، ومنهم من يعتقد أنه لو لم يحاوراته هذه لكان البلاغة شأن غير الشأن الذى وصلت إليه ، ومنهم من يعتبرها محاولة لجنة قاصرة ، وهذه مستنداً من جفاف ورونق البلاغة والبحوث النقدية ، وإنصاف البعض لعناته بالتبسيط وأذكر عليه التحصل والإسراف فى التقسيم ، والاتزاء فى النتائج الذى يكى القلنون بغيره لاعتراض الطرقة الميدالية والمحاكمات اللقطية . انظر هذه الآخر، باستثناسه فى : (البلاغة تطور وتاريخ) د. شوقي شريف من ٣١٣ ، فى تاريخ البلاغة العربية د. عبد العزيز متنيق من ٢٧٧ ، مناهج بلاغية د. أحمد مطلوب من ٢٥٥ ، والبلاغة عند الساكتي د. مطلوب من ٢٩٢ ، والصورة الديجيمية بين النظرية والتطبيق د. حاتى محمد شرف من ٤٢٨ ، وبالذلة العربية تاريخها ومصادرها ، على العشرين من ٢٢ ، النقد الأدبي المذكر ، يوسف بيومى من ٧٦ مطبعة دار البيبل / القاهرة / ١٩٧٤ .

السكاكى هجوماً متعملاً تنتصبه النظرة العلمية وال موضوعية ، فالمناقشات العلمية لا تتم بالحكم مطلقاً^(١) ولكنها لا تتوافق الباحث فيما ذهب إليه لسيسين : الأول : خروجه عن حدود اللياقة الأدبية في المناقشة ، الثاني : لأن جل الذين هاجموا السكاكى ، واعتبرهم الباحث من وجهة نظره غير موضوعين – قد أفتوا أعمالهم في خدمة البلاغة والدراسات التقنية .

وإن كان أساس النقد الخلاف شيئاً لم نشا – على حد تعبير أستاذنا الدكتور أحمد كمال زكي^(٢) فإنه استبعى أساسنـى الأجلاء عذرًا لأقول :

إن رجالاً مثل السكاكى كان يجب أن يقدر جهده باعتباره جاء بشيء جديد مختلف عن سبقه في دراسة البلاغة . وللباحثين الحق في أن ياخذوا بنقسيماته أو يرفضوها ، ولكن أين البديل ؟ ومن نهض مما ليهـمـ ما بنـاهـ السـكـاكـىـ قـلـيـنـ علىـ اـنـقـاصـهـ شـيـئـاـ جـديـداـ .

والآخرـ بـنـاـ أنـ نـرـكـ جـهـودـنـاـ وـتـصـرـفـهـ فـيـ درـاسـةـ أـسـالـيـبـ الـبـلـاغـةـ بدـأـ مـنـ آـنـ نـشـفـلـ أـنـفـسـنـاـ بـالـرـجـلـ ،ـ وـمـاـ وـصـلـ إـلـيـهـ اـجـتـهـادـ ،ـ وـبـابـ الـاجـتـهـادـ مـاـ يـرـازـ مـقـرـحاـ لـمـ يـفـلـقـ السـكـاكـىـ .

وإن كان هناك جنـيـةـ -ـ حـقـاـ -ـ عـلـىـ الـبـلـاغـةـ فـيـهاـ لـيـسـ مـنـ السـكـاكـىـ وـإـنـماـ هيـ مـنـ يـشـغـلـونـ أـنـفـسـهـمـ بـعـنـ التـنـرـ وـالـبـحـثـ فـيـ أـسـارـهـ ،ـ وـإـذـ كـانـتـ مـسـنـةـ الـحـيـاةـ وـتـوـامـيـسـ التـنـرـ تـقـضـيـ بـتـنـيـرـ السـابـقـ فـيـ الـلـاحـقـ ،ـ وـقـاتـلـ الـلـاحـقـ بـالـسـابـقـ ،ـ فـإـنـ ذـاكـ لـاـ يـعـطـيـنـاـ مـنـ التـجـدـيدـ وـالـإـبـدـاعـ فـيـ مـجـالـ الـبـلـاغـةـ وـالـبـيـانـ .

وعلى أية حال فإن الناظر في كتاب المفتاح لا ي عدم وجود بعض اللمسات الفنية^(٣) لأن منهـجـ يـعـتـدـ الذـوقـ الذـيـ يـسـتـخـدـمـ الـفـلـسـفـةـ وـالـلـنـطـقـ ،ـ وـيـسـتـعـمـلـ بالـدـرـرـةـ وـالـرـاسـ بـالـسـلـيـبـ الـأـدـبـ الـفـصـيـحـ ،ـ وـيـهـذاـ يـكـونـ السـكـاكـىـ قدـ حـقـقـ ماـ وـصـلـ إـلـيـهـ التـنـادـ وـالـمـدـحـنـ منـ أـنـ الذـوقـ فـيـ الـأـصـلـ مـلـكـةـ تـنـرـكـ بـهـ طـورـ الـأـشـيـاءـ .ـ وـمـاـ كـتـبـهـ السـكـاكـىـ فـيـ الـبـلـاغـةـ يـصـدـقـ بـهـ ذـوقـهـ وـنـظرـهـ الـجـمـالـيـةـ إـلـىـ الـبـلـاغـةـ الـعـرـبـيـةـ .ـ وـيـهـذاـ يـصـدـرـ عـنـ ذـوقـهـ الذـيـ حـكـمـهـ فـيـ عـلـمـهـ .ـ وـلـيـسـ الذـوقـ الـفـنـيـ فـيـ تـهـاـيـةـ الـأـمـرـ سـوـىـ الـلـاقـنـاتـ تـحـوـيـ جـمـالـيـاتـ الـمـوـضـوـعـ النـاجـمـةـ عـنـ وـحدـةـ عـنـاصـرـهـ وـالـتـائـمـ بـمـادـهـ الـتـيـ تـعـطـيـهـ شـكـلـهـ الـفـنـيـ^(٤) .

(١) الكناية في الشعر الجاهلي ، محمد الصن على أحمد من ٧١ .

(٢) النقد الأدبي الحديث أصوله واتجاهاته من ٩ .

(٣) انظر : كتاب عيسى الأفراح والرس البلاغي في مصر حتى القرن الثامن . الدكتور محمود شبابيك من ٣١ . رسالـهـ دكتـورـاهـ يـاتـبـ بـهـ .

(٤) انظر : النقد الأدبي الحديث د . أحمد كمال زكي من ٣٩ ، ٤١ ، ٤٨ ، ٦١ ، ٦٣ ، والصورة البلاغية عند السكاكى د . محمد رياض من ١٢٢ . ومحاضرات في علم النحو العربي د . حلبي بن عيسى من ١١ . الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر .

وعلل من تمام الإنصاف أن يقول : إن السكاكي لم ينف التدقق وأثره في التفصيل والاستحسان نقياً مطلقاً ، بل يراه ضرورياً في بعض الأحيان . ويقر أن ملاك الآخر في علم المعاش التدقق السليم والطبع المستقيم ، فمن لم يرزقهما فعليه بعلوم أخرى . وينظر عن شيخه الحاتمي ذلك الإمام الذي لم تسمح بعثته الآدوار ما دار الفلك الدوار على حد قوله - أنه يحيطه بحسن كثير من مستحسنات الكلام إذا راجعه فيها على التدقق ، ويثنى على عبد القاهر من هذا الجانب أيضاً فيقول : وما هو الإمام عبد القاهر - قدس الله روحه - في دلائل الإعجاز - كم يعيد هذا^(١).

والسؤال الذي من حق البحث أن يثيره : هل طبق السكاكي ما دعا إليه تطبيقاً كاملاً ؟ ولكن نجيب إيجابه منصفة نقول : إن السكاكي أعمل كثيراً من مقاييس التدقق في بحثه ، بل سرعان ما نسي دعواه هذه ، وإشادته بالشيخين : الحاتمي وعبد القاهر ، ليبرر الجانب الذهني على حساب الجانب التدققي ، ويعرض معظم شواهده وأسلحته خالية من أي تحليل فني أو تدقق جمالي عقلي ، وهي لا تعنى عند الباحث أكثر من شاهد على القاعدة أو مثال لها . ولهذا فقد بلغ السكاكي ما يريد من تقديمه لعلوم البلاغة وتبويهها إلا أنه ضمن بالجور على حساب الشكل ، وإنما كان القانون والقاعدة لازمـين للبلاغة لزومـهما لـأـيـ علم ، فإن الإسراف في استخدامهما على حساب طبيعة العلم وجواهره لا يقل خطورة عن غيابهما . وقد أطلق السكاكي أن يتحقق ذلك التوازن بين التدقق والقاعدة حيث ملـىـ الجانب التـقـيـدي على التدقق في كتابه طرقـاناً مـبـيـناً^(٢) ولقد قرر أحد السائرين على منهجه أن الاعتماد على التدقق أجدى من هذا العلم^(٣).

غير أن أخطر ما في المنهج الذي ترسمه السكاكي لصورة البلاغة أنه لم ينتهـيـ بـانتـهـاتهـ ، فقد امتدـتـ تـأـثـيرـهـ فـيـمـنـ جاءـ بـعـدهـ منـ دـارـسـينـ الـبـلـاغـةـ فـاصـطـنـعـهـ فـيـ تـالـيـقـهـ وـمـكـنـتـهـ بـإـلـىـ الـحدـ الذيـ جـعـلـهـ يـنـسـونـ مـعـهـ أـنـسـهـ ، وـيـتـكـرـرـ لـكـاتـبـهـ إـيـثـارـ لـمـنهـجـهـ وـجـرـأـ فـيـ حـلـبـتـهـ ، دونـ مـحاـولةـ جـادـةـ مـنـهـمـ لـتـطـوـرـهـ ، أوـ اـسـتـكـمالـ مـاـ يـنـقـصـهـ مـنـ جـوانـبـ .

ولهذا ظل علمـةـ الـبـلـاغـةـ قـرـابةـ خـمـسـةـ قـرـونـ مـتـنـالـيـةـ اـبـتـادـهـ منـ الـقـرـنـ السـابـقـ الـهـجـرـيـ حتىـ الـحادـيـ عـشـرـ الـهـجـرـيـ - عـاكـفـ يـدـورـونـ فـيـ فـلـكـ يـشـكـلـ أـوـ يـاخـرـ ، إـماـ يـتـخـيـصـ لـهـ ، أوـ شـرـحـ

(١) انظر : ملتقى العلوم من ٨١

(٢) انظر : البلاغة العربية وأثر الفلسفة فيها الشيخ أمين الخولي من ٢٤ والباحث البلاغية ١ . د . المعرفي ٢٢٤ .

(٣) انظر : عروس الألواح في شرح تلخيص الملتقى ٦/١ . مـ السـعادـةـ /ـ الـقـاـفـرـةـ سـنـةـ ١٢٤٢ـ مـ

أو نظم ، أو شرح للتفصيـه ، وفي أفضـل الـحوالـ - شـيج عـلى مـنـوالـه^(١) . وـطـى سـبـيل المـثالـ لـ
الـحـصـرـ تـذـكـرـ - هـنـا - بـعـضـ منـ توـفـرـوا عـلـى شـرحـ أو تـلـخـيـصـ القـسـمـ الثـالـثـ منـ كـتـابـ مـفـاتـحـ
الـعـلـمـ ، فـعـمـنـ عـنـوا بـشـرـحـهـ : بـهـاءـ الدـينـ السـبـكـيـ (ـ ٧٧٢ـ) وـسـمـىـ كـتـابـهـ : عـروـسـ الـأـفـراحـ
فيـ شـرحـ تـلـخـيـصـ المـفـاتـحـ ، وـمـحمدـ الـبـاـبـرـتـيـ (ـ ٧٨٦ـ) فيـ شـرحـ التـلـخـيـصـ ، وـسـعـدـ الدـينـ
الـقـنـازـانـيـ (ـ ٧٩٢ـ) وـلـهـ شـرـحـانـ : الـمـطـولـ وـالـمـختـصـ ، وـغـيرـهـ كـالـشـيـارـانـيـ (ـ ٧٦٠ـ) ،
وـالـخـلـالـيـ (ـ ٧٤٥ـ) وـلـبـنـ كـمـالـ باـشاـ (ـ ٩٤٠ـ) ، وـالـسـيـدـ الشـرـيفـ الـجـرجـانـيـ (ـ ٨١٦ـ) ،
وـمـنـ عـنـوا بـتـلـخـيـصـهـ : بـدـرـ الدـينـ بـنـ مـالـكـ (ـ ٦٦٨ـ) وـعـبدـ الرـحـمـنـ الشـيـارـانـيـ (ـ ٧٥٦ـ) ،
وـالـخـاطـبـ الـقـرـيـشـيـ (ـ ٧٣٩ـ) اـخـتـصـرـهـ فـيـ كـتـابـ سـمـاءـ "ـتـلـخـيـصـ المـفـاتـحـ"ـ طـبـتـ شـهـرـهـ
الـخـالـقـيـنـ ، وـشـرـحـهـ فـيـ إـيـضـاحـهـ ، وـغـيرـهـ كـثـيرـ لـدـرـجـةـ جـعـلـتـ صـاحـبـ كـشـفـ الـظـلـونـ يـحـسـيـ
أـكـثـرـ مـنـ سـتـينـ مـوـلـفـاـ مـاـ بـيـنـ شـرـحـ وـتـلـخـيـصـ وـحـاشـيـةـ وـنـظـمـ^(٢) .

وـحتـىـ الـكـتـبـ الـبـلـاغـيـةـ الـحـدـيـثـيـةـ الـتـيـ الـفـتـ لـأـغـرـاضـ تـلـيمـيـةـ ، وـعـرـضـهـ أـصـحـاـبـهـ فـيـ صـورـةـ
أـدـبـيـةـ رـائـعـةـ ، حـافـظـهـ عـلـىـ مـنهـجـ السـكـاكـيـ ، وـاعـتـدـواـ تقـسـيمـاتـ ، وـمـنـهـ الـأـسـتـاذـ عـلـىـ الـجـارـمـ
(ـ ١٩٤٩ـ) وـزـمـيـلـاهـ فـيـ الـبـلـاغـةـ الـواـضـحةـ ، وـالـسـيـدـ أـحـمـدـ الـهـاشـمـيـ فـيـ «ـ جـوهـرـ الـبـلـاغـةـ »ـ وـعـلـىـ
ذـلـكـ سـارـ بـلـاغـيـ الـأـزـهـرـ وـلـعـامـ الـشـامـ فـيـ كـتـبـهـ^(٣) حـتـىـ جـاءـ رـجـالـ أـفـذاـنـ مـنـ مـدـرـسـةـ كـلـيـاتـ
الـأـزـارـيـ بـجـامـعـاتـ مـصـرـ ، فـسـلـكـاـ بـالـبـلـاغـةـ سـبـيلـهـ الصـحـيـحـ ، وـعـيـدـهـ لـهـ الـطـرـيقـ السـلـيـمـ مـنـ
أـمـالـ الـأـسـتـاذـ أـمـيـنـ الـخـوـلـيـ وـسـيـدـ قـطـبـ وـبـيـنـ الشـاطـئـ وـأـسـتـاذـاـ الـدـكـتـورـ زـغـلـوـلـ سـلـامـ وـمـنـ نـهاـ
نـحـوـهـ^(٤) .

(١) انظر : البيان العربي د - بـدـرـ طـبـانـ منـ ٢٠٤ـ ، وـمـباحثـ بـلـاقـيـةـ ، أـسـتـاذـاـ الـدـكـتـورـ العـمرـىـ
منـ ٢٤٦ـ ، منـ ٢٤٧ـ وـكتـابـ قـشـاـيـاـ الـنـقـدـ الـأـدـبـيـ وـالـبـلـاغـةـ د - مـحمدـ زـكـىـ المشـاـرىـ منـ ٣٥٧ـ ،
منـ ٣٥٨ـ ، دـارـ الـكـتـابـ الـعـربـيـ الـسـلـيـعـةـ وـالـشـرـقـ سـنـ ١٩٧٧ـ .

(٢) انظر : كـشـفـ الـظـلـونـ لـحـاجـيـ خـلـيـهـ جـ ١ـ منـ ٤١ـ .

(٣) وـمـنـهـ الشـيـخـ الـعـلـمـيـ ، وـالـشـيـخـ أـحـمـدـ الـفـرـدـيـ ، وـالـمـرـاقـيـ وـالـصـمـدـيـ ، وـعـبدـ الـعـزـيزـ عـتـيقـ ،
وـمـكـرـيـ شـيـخـ أـمـيـنـ .

(٤) وـمـنـهـ : أـسـتـاذـاـ الـدـكـتـورـ مـصـطـلـيـ تـاصـفـ ، أـسـتـاذـاـ الـدـكـتـورـ رـجـاءـ جـيدـ ، أـسـتـاذـاـ الـدـكـتـورـ فـتحـيـ عـامـرـ
وـالـأـسـتـاذـ الـدـكـتـورـ أـحـمـدـ مـطـلـبـ .

كتاب «تجريد البلاغة» للبحراني المتوفى سنة ٦٧٦ هـ

مؤلف هذا الكتاب الإمام العلامة ، والفليسوف المحقق ، والحكيم المدقق ، قهوة المتكلمين كمال الدين ميثم بن على البحراني ، وكان شيعي المذهب ، وتوفي سنة ٦٧٦ هـ^(١) شرح نهج البلاغة للإمام علي كرم الله وجهه ثلاثة شروح : السنفirs والمتوسط والكبير ، ومن أهم مصنفاته « تجريد البلاغة » ، ويسمي أيضاً « أصول البلاغة » شرحه المقادد بن الصبيح السبوي^(٢) (ت ٨٢٦ هـ) ، وسماه : تجريد البراعة في شرح تجريد البلاغة .

وهو كتاب في المعانى والبيان ، قدم له البحراني بمقمة إشافية معظمها ذو صلة كبيرة بالباحث البلاغية ، اعتبرها ضرورية لفهم مباحث شرحه ، وقسم فيها دراسة البيان على ثلاثة قواعد : الأولى مباحث الألفاظ ، والثانية : مباحث المعانى ، والثالثة : خاصة بموضوع نهج البلاغة ، وهو في الخطابة وأركانها^(٣) ، ومقدمته هذه شبيهة بمقمة المطرني بشرح مقامات الحريري^(٤) .

والظاهر أنه اتخذ من مقدمته أصلًا لكتابه « تجريد البلاغة » غير أن الكتاب جاء أكثر تهذيباً ووضوحاً ، ويتنظماً وإيجازاً من المقدمة ، علاوة على خلوه من الحشو والاستطرادات ، مع حذف للشوائب والزيادات ، لذا كان الكتاب ، أتفع لطالب البلاغة ودارسها ، ومن يريد أن يلم بأسرارها في زمن قصير وجهد يسير^(٥) .

وقد جاء الكتاب على مقدمة وجميلتين : أما المقدمة فتصف فيها كتابه ، والغاية من تأليفه : « فهذه أصول في علم البلاغة جردنها من المشوش المزوم ، وضيئتها بالحدود والرسوم ليسهل حفظها ، ويكثر تفعها »^(٦) .

والواقع أن الكتاب كما وصفه مؤلفه يخلو من الحشو والتلويل ، الذي لا يحتاجه باحث عصرى يريد الإللام بأشراف البلاغة ، ويرى شف من تابعيها في سويعات قليلة ، دون أن تغتربه السامة والملل .

(١) انظر : كشف الظنون لعامي خليفة ٣٥١/١ ، ومعجم المؤلفين لرشا كماله ٦٥٥/٤٩٠ . دمشق وإعلام الرزكي ٢٩٢/٨ .

(٢) انظر : مقدمة شرح نهج البلاغة - المطبعة الحيدرية - ط إيران - طهران سنة ١٣٧٨ هـ .

٢٤٥

ـ . زطول سالم من

ـ .

ـ .

(٣) انظر : مقدمة تحقيق كتاب « تجريد البلاغة » دكتور عبد القادر حسين من ١٨

(٤) انظر : كتاب « تجريد البلاغة » تعلق د. عبد القادر حسين من ٢٢ مـ . دار الشروق سنة ١٩٨١ مـ

تحدث البحرياني في المقدمة عن ثلاثة مباحث : الأول : على دلالة النقط الذي يأتي على ثلاثة أقسام : الأول : على تمام مساماه ، ويسمى مطابقه ، وعلى جزء مساماه ويسمى تضمنا ، وعلى لازم مساماه ، ويسمى التزاماً^(١).

أما المبحث الثاني والثالث : فذكر فيه مفهومي الفصاحة والبلاغة ، و موضوع كل منها ، ويرى أن الفصاحة وسيلة إلى البلاغة ، وأن الكلام الفصيح هو الذي يتوصل به المتكلم إلى أقصى مراده .

والفصاحة والبلاغة عند المؤلف شيتان مختلفان ، ويرى - من وجهة نظره - أن أكثر البلاغاء لا يكادون يميزون بينهما .

ثم يتكلم عن الأصول العامة التي ينبغي أن تتتوفر في اللغة المفردة لتكون فصيحة^(٢) ويقصد بها المحسن العائنة إلى أحد الحروف ، وتركتيبها ، وحال الكلمة ، ويشترط لها أنها منها : ألا تكون الأحرف متقارفة في مخارجها فتحصل القلق ، وأن تكون معدلة في حركاتها قدرتها ، وأعدلها حركتان وساكن ، وأخف أوزانها ، وأكثرها استعمالاً الثالثي ، لكنه لم يشر آية إشارة إلى تحكيم النون .

ومنها أن تكون عربية غير مولدة قد تواضع عليها أهل اللغة^(٣) وهذا الشرط من المؤلف يحتاج هنا إلى نظر لأن هناك الفاظاً كثيرة في القرآن الكريم لم تأت على مقاييس كلام العرب ، ويفيد أن المؤلف يوافق الباقيلان في إنكاره أن يكون في القرآن شيئاً من غير لغة العرب ، وهذا غير صحيح « لأنه قد ورد في القرآن الكريم استعمالها ، وحسن موقعها لما عرب واستعملها العرب كما ورد في « السجيل » و« الاستبرق » و« المشكاة » ، فإن هذه الألفاظ لا يمكن إنكار وجودها في القرآن ، ولا يسع جعلها من لغة العرب ، فإنها غير جارية على قياسها في الأوزان والأبنية »^(٤).

وبعد ذلك يحدثنا المؤلف عن الكلمات الركبة ، وهي التي يشترط لفصاحتها أن يتواافق فيها الوان من البديع ، أو ما يسمى بالمحسنات اللظبية ، كالتجنيس والقلب والسجع ... إلخ^(٥) وهذه ملاحظة جديدة بالتسجيل حيث خلت منها كتب البلاغة^(٦).

(١) انظر تجزيد البلاغة من ٣٠ .

(٢) والبحرياني يجري في ذلك مجرى ابن سنان النخاجي وشبيه الدين ابن الأثير وما تلقى عنهما عمار الدين ابن الأثير .

(٣) انظر : تجزيد البلاغة من ٤٤ .

(٤) انظر : المطران الطوسي ج ١ من ١١٢ .

(٥) انظر : تجزيد البلاغة من ٣٧ : من ٥٦ .

(٦) انظر : مقدمة تحقيق تجزيد البلاغة من ٣٦ .

وتشمل الكلمات المركبة منه الحقيقة والمجاز ، والتشبث والاستعارة ، والكتابية ، وبذلك ينتهي حديثه عن الجملة الأولى^(١)

ثم يخصص البحرياني الجملة الثانية لموضوع النظم ، ورأيه فيه كما رأى عبد القاهر أنه على النظم والتأثر فيما يقصد من أساليب الكلام مراجعة ما يقتضيه علم النحو .

فهو يعرّف النظم بقوله : « هو وضع الكلام على النهج الذي يقتضيه علم النحو والعمل بقوائمه وأصوله .. ويرى أن الكامل من النظم ما كانت النفس معه أسرع إلى قبول المعنى منه مع لذاته به^(٢) . وتأثر المؤلف بعد ذلك في نظرية النظم ظاهر من الوهلة الأولى^(٣) .

ثم يتحدث عن اقتزان الجملة الثانية بالأولى ، وتعلق إحداها بالآخر بآئون من البديع ، أو ما يسميه بالمحسنات المعنوية كالتطابقة والمقابلة ، والمزاوجة ، والالف والنشر ، وغير ذلك مما يدخل في علم البديع^(٤) .

وختم المؤلف كتابه بقوله في « إن وإنما » ونحوهما ، وهو في ذلك شبيه بالغloss الراري^(٥) أو يكثير البحرياني من الشواهد القرائية ، والأحاديث التبوية ، وشهادته في النظم قليلة وبيوجه عام فقد خلت شواهده من أي تحليل يتم عن توقي أديبي .

ومنهج البحرياني فيتناول البلاغة خالق فيه السكاكي ، وسلك طريقاً أجدى في الاهتمام بالمعنى أو العبارة ، وما يتبعه من تحديده من سمات ، فتستسينه الأسماع ، وتسرع التفوس إلى قبول معناه ، والانتداب عليه .

(١) انظر : تجريد البلاغة من ٦٧ : من ٦٦ وما بعدها .

٨.

(٢) واظن عبد القاهر هو تخوض معانى النحو في معانى الكلمة ، وليس المراد بمعانى النحو هو الإعراب ، لأن لا يدخل له في اللقضى والمزية ، وليس هو سبب الملاحة والبلاغة .. وإنما النظم مجموعة من العلاقات بين الكلمات وارتباطها بعضها ببعض في تماسك شديد ، بحيث تقتصر كل كلمة إلى ما يدخلها في انسجام وتناسق ، وهو ما عناه عبد القاهر بقوله : في بيان معنى النظم : « يان تتحدد أجزاء الكلام ويدخل بعضها في بعض ، ويشتد ارتباط ثان منها بأول ، وأن يكن حالك في الجملة حال اليائني يضع بمعنده هنا في حال ما يضع بمعنده هناك ، وفي حال ما يضر مكان الثالث ، ورابع يضمهمما بعد الأولين » .

انظر : دائل الإيجاز لمعبد القاهر البحرياني . من ٧٣ .

٧٤ .

(٤) انظر : تجريد البلاغة من ٨١ : من ٨٠ وما بعدها .

٣٥٢ .

(٥) انظر : نهاية الإيجاز في دراسة الإيمان من .

وهو بهذا المنهج يذكرنا بمنهج عبد القاهر البرجاشي الذى لم يفصل بين علوم البلاغة الثلاثة ، يجعلها تسير على قدم المساواة دون فصل ، إلا أن عبد القاهر كان أكثر زاداً ، وأوسع تحليلاً وأكثر عمقاً ، وأرق ذوقاً من صاحبنا .

والجدير بالذكر أن البحرياني قد أثر في بعض البالغين ، ومن أولئك الذين تأثرت منهجه ، عصام الدين الشهير بطاش كبرى زاده (ت سنه ٩٦٨ هـ) ، الذي نقل عنه تصوروه لعلم البيان لرسوحة ودنته ، وقارنه بتصور السكاكي الذي وصفه بالتكلف البارد ، والمبالغة في العبارة ، التي تتأتى عن الصواب .

ويعد أن ينتهي عصام الدين من نقل نص السكاكي يردف قائلاً : « والصواب في هذا المقام ما حققه بعض مشايخنا الشیخ کمال الدین میثم البحرياني .. ويصنف بالفاضل فيقول « وهذا کلام ذلك الفاضل بال تمام » (١).

(١) انظر : شرح المؤائد الفيائية . العصام الدين الشهير بطاش كبرى زاده من ١٩٤ ، وما بعدها .
وينظر : نظرات في البلاغة والإسناد . د . الكردى ط . المسادة من ١٥ . سنه ١٩٧١ .
٢٩٣

كتاب التبيان في علم المعانى والبديع والبيان
للعلامة شرف الدين حسين بن محمد الطيبى (ت ٧٤٣ هـ)^(١)

الطيبى منزلة رفيعة في البحث البلاغى يوجه عام ، وفي البحث البayan القرائى يوجه خاص ، فقد كان آية في استخراج الدقائق من القرآن الكريم ، لأن على حسب قوله أولى ما أعملت فيه القراءتح ، وعلقت به الأذكار الواقع ، وصرفت إليه الهم العالية ، وصدقت فيه العزائم الماضية. الشخص عن أسرار التنزيل ، أو الكشف عن أستار التأويل ... الذي لا يغوص على حقائقه ، ولا يغدو بشيء من دقاته إلا رجل يبحث عن فوائد المعانى ، وتظل في اختلاف دلالات البayan التي توقي كلام رب العزة في مذنة التفسير حقه . وتصون له في مظان التفسير ماء ورونقه^(٢).

و واضح من كلام المؤلف أن معرفة دقائق القرآن وتأويله لا يغوص عليها إلا علماء البلاغة والبيان ، والغريب أن الرجل لم يأخذ حقه في مؤلفات الذين أرثوا البلاغة العربية ، برغم الدور الراهن الذى أداه خدمة للدراسات البayanية .

ثم ينبهنا الطيبى في مقدمته إلى المصادر التي اعتمد عليها في تأليف كتابه « التبيان » واستقى منها أراءه ، فأعتماده الأكبر كان على الزمخشري في الكشاف ، والسكاكى صاحب المفاتح ، تارة يأخذ أقوالهما لفظا ، وتارة أخرى معنى ، ويرد ذكرهما كثيرا في الكتاب ، غير أنه كثيرا ما يرجع أراء السكاكى على أراء الزمخشري ، ويشى عليه في مواضع كثيرة من الكتاب^(٣).

ويوضح المؤلف كتابه « أيضاً - بكتابين » النهاية والمثل السائر لابن الأثير ، الذى لم يرد ذكره في الكتاب إلا مرة واحدة^(٤) في باب الفصاحة ، واقتبس كذلك من كتاب « المصباح » ليدر الدين بن مالك ، وكتاب الإيضاح للقردويني .

(١) انظر ترجمته في : الدر الكامنة ١٤٦/٢ ، شترات النهب ١٣٧/٦ ، طبقات الشافية من ٢٥٥ ، والبدر الطالع ٢٢٩/١ ، وكشف الظنون ٢٤١ .

(٢) انظر : التبيان في علم المعانى والبديع والبيان للطيبى من ٤٢ / تحقيق د . عادى عطية الهلاوى / ط مكتبة الهيئة العربية / بيروت / ١٩٨٧ .

(٣) المصدر نفسه ٢٧٨ - ٢٧٩

(٤) نفسه من ٤٦٧

والحق يقال : إن الطيبين لم يكن ثالقاً فقط عن المصادر التي ذكرها في مقدمته ، فهو صاحب جهود بيته واضحة في تبيانه ، وذكر عنه مترجموه أنه كان صاحب باع طویل في استخراج الدقائق من النظم والنشر على السواء^(١).

وها هو يصف جهده في كتابه بنفسه فيقول : « هذا وإن كاتبى بديع في إعرابه ، مفردأ في بابه ، لما خصنته من مباحث المفتاح ، ومتناقض الكشاف فيما رشحته من المصباح والإيضاح من التوارد ، وزينة النهاية والمثل المسائر^(٢) أو أشار إلى أنه نفع ما افتخاره من هذه المصادر ، ولم يأل جهداً في الترصيف ، والتقطيع مع التوضيح ، وأدرج في تضاعيف ذلك من لطائف لم تكن مبتذلة^(٣) فناء الكتاب بحق - كما وصفه مؤلفه « نوراً الحقة البيان ، ونوراً الحديقة البيان »^(٤).

ومنهج الطيبين في الكتاب يقوم على قتين هما : فن البلاغة ، وفن الفصاحة ، وهو في النون الأول يتناول علمي البلاغة الثلاثة من معانٍ وبيان وديع ، وهذا التقسيم لم يخرج عن منهجه السكاكي في تقسيم البلاغة ، ولا في تقسيم فنونها .

ويبدأ بعلم المعانٍ وعرفه بقوله : « هو تتبع خواص التراكيب في الإفادة ، تقادياً عن الخطأ في التطبيق^(٥) . وقسمه إلى ثلاثة أبواب : المستد والمستد إليه ، والتقدير والتأخير ، والفصيل والوصل ، والإيجاز والإطناب .

وينتقل المؤلف إلى علم البيان وهو معرفة إبراد المعنى الواحد في الطرق المختلفة الدالة بالخلاف ، على مقويمها تقادياً عن الخطأ في التطبيق ل تمام المراد^(٦) . والبيان عنده يعود إلى اعتبار المبالغة في إثبات المعنى للشين ، وذلك إما على طريقة الإلحاق أو الإطلاق وهو التشبيه ولاما إطلاق الملزم على اللازم وهو المجاز ، ولاما إطلاق اللازم على الملزم وهو الكناية .

ويبدأ المؤلف حديثه عن التشبيه فيمرره بقوله : « هو وصف الشين بمشاركة الآخر في معنى ، وهو مستدعى خمسة أشياء : الطرفين ليحصل ، والوجه ليجمع ، والفرض ليصلح ، والآحوال ليحسن ، والأدلة لتوصيل^(٧) . ثم يشرع في الحديث عما أجمله ، وهو بذلك ينفرد عن كثير من علماء البلاغة ، لأنه يوضح منهجه العام ثم يتناول التفصيات بعد ذلك .

ويفرق الطيبين بين التشبيه الحقيقي ، والتشبيه التكثيلي بقوله : « والتشبيه التكثيلي كثيراً ما يلبس بال حقيقي ، والفرق أن الحقيقي معانٍ مستقلة ، والتكثيلي مستندة إلى قصة

(١) انظر : كشف الظنون من ٣٤١ (بتصريف) (٢) (٣) (٤) : البيان الطيبين من ٤٤ ، من ٤٥

(٥) انظر : البيان الطيبين من ٤٩

(٦) المصدر نفسه من ١٧٩

(٧) المصدر نفسه من ١٨٠ - ٧١ -

متوجهة أو شبيهها ، بمعنى أن يكون الوجه متزعاً من عدة أمور متوجهة (١) ومثل ذلك بقوله تعالى « **وَمِثْلُ الَّذِينَ يُتَبَّعُونَ أَمْوَالَهُمْ أَيْقَادَ مَرْقَادَ اللَّهِ تَبَشِّرُهُمْ بِنَتْنَاهُ بِرَبِّيْهَا وَإِلَيْهَا** » (٢).

وجاء تحليل الطيبين على نحو دقيق فقال : « **وَمِثْلَ نَفْقَةِ هَزَّلَةِ فِي رِكَانِهَا عِنْدَ اللَّهِ كَمْثُلَ جَنَّةٍ** ، وذلك في حالة ما يكون الوجه واحداً . وحين يكون الوجه متزعاً من عدة أمور متوجهة ياتي توجيهه على النحو التالي بقوله : « **وَمِثْلَ نَفْقَةِ هَزَّلَةِ فِي رِكَانِهَا عِنْدَ اللَّهِ كَمْثُلَ جَنَّةٍ ، مِثْلَ حَالَمِ عِنْدَ اللَّهِ بِالْجَنَّةِ عَلَى الرِّزْوَةِ ، وَنَفْقَتِهِمُ الْكَثِيرَةُ ، وَالْقَلِيلَةُ بِالْوَابِلِ وَالظَّلِّ ، وَكَمَا أَنْ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الْمُطَرِّينَ يَضُعِّفُ أَكْلَ الْجَنَّةِ فَكَذَلِكَ نَفْقَتِهِمُ الْكَثِيرَةُ كَانَتْ أَنْ قَلِيلَةٌ بَعْدَ أَنْ يَطْلُبَ بِهَا وَجْهُ اللَّهِ زَاكِيَّةً عِنْدَ اللَّهِ ، زَانِدَةً فِي زَانِهِمْ » (٣).**

والطيبين لا يتمنى فقط بدقة في استبطان المعاني وتحليل الآيات فحسب ، ولكنه يغوص في الأعمق باحثاً عن « **الذَّلِيلِ** » النفيسي ، ويتفق على غيره بالبحث عن الفرض من التشبيه الذي يعود غالباً إلى المشبه فياتي لبيان حاله أو مقداره ، أو وجوده ، أو إمكان وجوده ، أو تقدير حاله أو تقوير تحقيقه .

وقد يعود الفرض من التشبيه إلى المشبه به ، وهو ما يسميه المؤلف « **بِالطَّردِ وَالْعَكْسِ** » ومرجعه إلى كون المشبه أتم من المشبه به في الوجه المبالغة ، لأن المشبه به حقه أن يكن أعرف بوجه التشبيه وأقوى ، فإذا عكس كان مبالغة كما في قول البهرى :

« **فِي طَلْعَةِ الْبَدْرِ شَيْئٌ مِنْ مَحَاسِنِهَا * وَلِلْقَضِيبِ نَصِيبٌ مِنْ تَنْثِيَهَا** »

فإن العادة أن يشبه حسن الطلعه بالبدر ، والقد بالقضيب ، فعكس تصصيلاً لحسن الطلعه على البدر ، والقد على القضيب . وعلى ذا ورد ما يحكىه عن علام عن مستحب الريا « **إِنَّمَا الْبَيْعَ مِثْلُ الرِّبَا** » (١) في مكانه « **إِنَّمَا الرِّبَا مِثْلُ الْبَيْعِ** » فجعلوا الريا في الحل أقوى من البيع وأعرف ، ومنه قوله تعالى « **أَفَنَّ يَخْلُقُ حَتَّىٰ لَا يَخْلُقَ** » (٢) بدل أفنن لا يخلق كمن لا يخلق زيادة للإنتكاري ، كقولهم في التربخ ، السلطان كالسوقى ؟ من قال بتشبيهه به ، أو المراد بمن لا يخلق العقاد ، تعريضاً على تشبيههم الأستان بالله تعالى » (٣).

ومهما يكن من أمر فقد كان للطيبين أثر كبير في تطوير النظرية إلى الكيفيات التي يحصل بها حسن التشبيه وقيمه ، وقبوله ورده ، كما كان له نفس الآثر في أغراض التشبيه .

(١) المصدر السابق من ١٩١ وما بعدها . (٢) سورة البقرة آية / ٢٦٥ .

(٣) **البيان الطيبين** من ١٩٢ .

(٤) سورة البقرة / ٢٧٠ . (٥) سورة النحل ١٧ .

(٦) **البيان الطيبين** من ٢٠١ .

فهو يجمع ملاحظاته حول كثيّر من التشبّيه وقيمه تحت ما يسمى بـ « الأحوال » وهي على وجهه منها : أن يكون التشبّيه تفصيلياً ، لأن المجل أسبق إلى النفس ، والشين بعد الطلب أمر من المنساق بلا تعب كالتشبيه التصليح في قوله تعالى **« مَثَلُ النَّبِيَّ إِنَّمَا كَانَ اتِّلَاقَهُ مِنَ النَّاسِ ، فَأَخْتَطَفَهُ وَتَبَاهَتِ الْأَرْضُ مَعًا يَأْكُلُ النَّاسَ إِنَّمَا كَانَ اتِّلَاقَهُ مِنَ الْأَرْضِ زَخْرَقَهَا وَأَتَتَتْهُ قَدْنَ أَنْهَا أَتَهُمْ قَادِنَّ عَلَيْهَا أَنَّهَا أَنْزَلَتْ لَهُ أَنَّهَا قَبَعَتْنَا مَعِسِيدًا كَانَ لَمْ تَقْنَ بِالْأَنْسِ »**^(١).

ويشرح الطيبين حسن التشبّيه في الآية فيقول : « فإنها تسع جمل متداخلة شبهت حالها العجيبة الشأن في سرعة تفصيلها ، وانصراف ذييمها ، واغترار الناس بها بحال ما نزل من السماء ، وأثبتت أنواع العشب ، وزين بزخرفها وجه الأرض كالعروض إذا أخذت الثياب الفاخرة حتى إذا طمع فيها أهلها ، وظنوا أنها سلسلة من الجواهر أثناها باس الله فجاة فكان كان لم تقن بالأنس ... وكلما كان التركيب أكثر تفصيلاً كان أدخل في الحسن كقول بشار :

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا * وأسياقنا ليل ثهاوي كواكبه ^(٢).

ثم يعقب الزمخشري بارد متعينا عليه توهّمه في بيت المعرى :

حمراء ساطعة الذواب في الدجن * ترمسي بكل شراره كطرافت ^(٣)

الذى يزعم فيه أنه ظفر بت شبّيه على الدين والعلم ، وزاد على قوله **« إِنَّهَا تَرْزِيزٌ يَقْتَدِرُ كَالْقُسْرِ كَانَهُ جِمَالٌ صَدَقَ »**^(٤) ، ويرفض هذا الكلام منه لسبعين : أولئما : أن الكلام ياتيه ، لأن الله تعالى شبه الشارة أولاً حين تتفق من النار بالقسر في العلم . والثاني :

حين يأخذ في الارتفاع والانبساط فتنشق عن أعداد لا نهاية لها بالجمادات في التفرق ، والثالث : والعلم ، والثلث ، وبخس الحيران لقصد الحركات . وكل ذلك مفقود في بيته ^(٥).

ويالرغم من دقة فهم الطيبين وحسن ترجيحهم ، ورده المقدم إلا أنه قتل الزمخشري ما لم يقله ، لأننا بالرجوع إلى الزمخشري وجدها يطلق على بيت المعرى بقوله « شبّيهها بالطراف - وهو بيت الأداء - في العلم والحرمة ، وكذلك قصد بخيته أن يزيد على تشبّيه القرآن ، ولتبينه بما سئل له من توهّم الزيادة إلى أن قال : فأبد الله إغراه في طرافه ، وما نفع شدقه من استطرافه » ^(٦).

(١) سورة يونس / ٢٤ (٢) التبيان الطيب / ٤ وفى بيان بشار « لحق بظاهرهم »

(٣) بيان المعرى « سقط الزند » من ٣٧ (٤) سورة المرسلات / ٣٢

(٥) التبيان الطيب من ٢٠٦ (٦) انظر الكتاب الزمخشري ج ٢ من ٦٨٠

والظاهر من موازنة النمطىلى بين تشبيه القرآن الكريم ، وتشبيه أبن العلاء ، حمله القرية على المعرى ، ووصفه بالتبجح والخبث ، لأنه لا يخفى على منه منزلة القرآن ويلاقته وقصود كلام البشر عن أن يصل إلى منزلته ، ولهذا نقول : إن الطيبين لم يتفق في فهم مقصود صاحب الكشاف ، إلا أن يكون قد فهم من عبارته الأخيرة شبهة معارضة المعرى للأية ، وكان الأولى لصاحب الكشاف أن لا يذكر ذلك .

وتحدث الطيبين عن أدوات التشبيه ، واعتبرها مجرد أدوات يتوصلا بها إلى وصف المشبه بمشاركة المشبه به في الوجه ، ويرى أن الأصل في هذه الأدوات أن تلي المشبه به ، ويزكى كذلك أنها قد تلي أشياء لا ينتمي منها التشبيه إلا على تقدير الحذف ، وينتهي في ذلك إلى ملاحظة دققة تعيين في توجيهه كثير من آيات القرآن الكريم ، وبخاصمة الأمثال منها ، يقول : « ولا يستعمل لفظة مثل إلا في حال وصفة لها شأن ، وفيها غرابة »^(١) وضرر لذلك أمثلة كثيرة من القرآن كقوله تعالى « مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمْثَلُ الَّذِي يَتَعَقَّبُ »^(٢) يقدر المساف . إما عند المشبه نحو : مثل داهي الذين كفروا كمثل الذي ينبع ، أو عند المشبه به نحو : مثل الذين كفروا كبهائم الذي ينبع ، ولا يستعمل لفظة مثل ، إلا في حال أو صفة لها شأن وفيها غرابة^(٣) .

ويبعد أن التشبيه والتتمثل عند الطيبين متراوحة ، لأنه يوجه آيات التمثل على أنها تشبيه ، وأيات التشبيه على أنها تمثيل ، ولم يجر للتشبيه المفرد ذكر على لسانه ، وما تعرض له شرحه على أنه تمثل كما في رده على الزمخشرى .

وما زلتنا نتابع مسيرة البيان عند الطيبين ، الذى تحدث في الأصل الثاني منه عن المجاز الذى قسمه إلى لفوى وعلقى ، فبعد أن عرف الطيبين المفهوم اللغوى ، وشرح تعريفها ، وبين أنواعها من لغوية وشرعية وعرفية عدد إلى تعريف المجاز اللغوى فقال : « هو اللقط المستعمل في غير ما وضع له بالتحقيق في اصطلاح التخاطب مع قرينة عدم إرادات »^(٤) .

وظاهر من كلام الطيبين في تعريف المجاز اللغوى الآخر بمذهب السكاكي دون غيره من المذاهب .

ثم قسم المزلف المجاز اللغوى إلى مجاز مرسل واستعاره ، لأن العلاقة إن كانت التشبيه فهو استعارة ، وإلا فمرسل ، وللسجاوز المرسل علاقات كبيرة عند الطيبين منها : السبيبية ، والمسبيبية ، وما يقول إليه واعتبار ما كان ، والمحالية ، والحالية ، والجزئية ، والكلية ، وتنمية

(١) انظر : البيان للطيبين من ٢٦٣

(٢) سورة البقرة آية ١٧٦

(٣) انظر : البيان للطيبين من ٢٦٤

(٤) المصادر نفسه من ٢٧٧

الشين بداعيه ، ووجهه ، ويجاوره ، وياسم الله ، وياسم حامله ، وقد أورد المؤلف شواهد لكل هذه العلاقات من القرآن الكريم . ك قوله تعالى **﴿فَقُنْ أَعْتَدْتِ عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدْنَا عَلَيْهِ﴾**^(١) سمي جزاء الاعتداء اعتداء لأن مسبب عنه ، قوله تعالى **﴿حَشْ يَعْطُونَ الْجِهَنَّمَ عَنْ يَدِهِ﴾**^(٢) أى يعطونها إياكم صادرة عن يد ، أى نعمة حاصلة منكم لهم ، وهي إبقاء أرواحهم ، وأخذ شيء قليل بدلها ، أو يعطونها إياكم صادرة عن يد استيلاء وقدرة وقوة لكم عليهم ، كما يأخذ القاهر المستولي من المستولي عليه ، أو يعطونها إياكم صادرة عن انتقام وطاعة .

والطيبين نقش طويل ، وعرضه محسن ، وتحليلاته رائعة لشواهد المجاز المرسل ، كما هو واضح من هذا المثال ، وغيره من أمثلة كثيرة ^(٣) .

ويعد فراغه من الحديث عن علاقات المجاز المرسل بعلاقاته المتعددة تناول الاستعارة ، فعرضها عرضاً جيداً محكماً لم يسبق إليه رغم استفادته من السكاكي والزمخشري .

وأول ما عرض منها هو تعريفها بقوله : « هي أن تذكر أحد طرق التشبیه ، وتزيد به الآخر مدعياً دخول المشبه في جنس المشبه به ^(٤) ، وذكر الطيبين أنه اختلف في الاستعارة نقيل : إنها مجاز عقل ، ومن أمثلته الخافته أدركنا أنه يجزم بأنها مجاز لغوى ، غير أنه لم ينافق شبه الذين ادعوا أنها مجاز عقل ، ويدو من خلال كلامه أنه متاثر بفكرة الخطيب الفزوي الذي كان أقوى منه في الرد على منكري لغوية الاستعارة ، والباحث أميل إلى أن الاستعارة تدرك مجازيتها عن طريق العقل واللهفة معاً وبيديننا في ذلك ما ذكره عبد القاهر عن الاستعارة أنها نقل معنى لا نقل لفظ ^(٥) . »

ثم أضاف المؤلف في بيان تقسيم الاستعارة فتقسمها إلى أصلية وتبديلية ، الأصلية هي أن يكون المستعار اسم جنس ، أما التبدلية فيكون المستعار أفعالاً ، أو صفات ، أو حروف ، ولا تكون هذه إلا مصريحاً بها ، والأصلية قسمها إلى تصريحية ومكتبة ، لأن الطرف المتروك إن كان المشبه به فهو المصرح بها ، وإنما فهو المكتوب عنها ، والمصرح بها على ضربين : تحقيقية وتبديلية :

التحقيقية : هي أن يكون المتروك شيئاً محسوساً أو معمولاً ، والتبديلية : هي أن يكون المتروك شيئاً متوضعاً محسساً ^(٦) ك قوله تعالى **﴿فَلَذَّاقُهَا اللَّهُ بِيَاسِ الْبَقْعَ وَالْقَبْقَ﴾** ^(٧) .

(١) سورة البقرة / ١٩٤

(٢) سورة التوبة / ٢٩

(٣) كتاب التبيان للطيبين من : ٢٢٠

(٤) المصدر نفسه من ٢٢٧

(٥) النظر الإيضاح الفزوي من ١١٤ وما بعدها ، والتبيان للطيبين من ٢٢٨ وما بعدها .

(٦) التبيان / ٢٢١

(٧) سورة النحل : ١١٢

فيحتمل أن تكون عقلية بان يستعار اللباس لما يغشى الإنسان ، والقبس به من بعض
الحوادث ، ثم أطلق اللباس وأ يريد به ذلك ، وأن تكون حسية بان يستعار اللباس لما يلبس
الإنسان عند جوهره من انتقام الالون ورثاثة الهيئة^(١) .

أما الاستعارة المكتبة : هي أن يذكر المشبه ، ويؤدي به المشبه به بالأعلى بقرنة نسبة
اللازم المسارى له إليه . أو إضافته على سبيل التخييلية وذلك بان توجه المشبه مشبهاً به توجهما
محضاً كما توجه اللازم في التخييلية، فيكتى باسم المشبه عن اسم المشبه به المعنى به التوجه .
ومن أمثلة ذلك قوله تعالى « خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ »^(٢) شبه قلوبهم بان لا تقبل الحق
بالشين: الوثيق المختوم ثم أثبت لها الختم . وجوز في الآية أن تنقل إلى المكتبة من المجاز
العقلى بان يقال على مذهب الشیع - يقصد السکاكى - وما ذهب إليه . وهو أن الشیطان أو
الكافر هو الخاتم في الحقيقة ، ويكون ذلك بتكميل الله وتقدیره جعل مستعاراً له ، والقرينة
المائنة ختم لتعالى من فعل القبيح^(٣) .

والواضح من خلال تعريف الطيبى للاستعارة المكتبة أنه تعريف مضطرب خلط فيه بين
الاستعارة المكتبة والتخييلية من ناحية ، ومن ناحية أخرى خلط بينها وبين المجاز عند توجيهه
الشاهد القرائى .

والاستعارة المكتبة والتخييلية مختلف فيها ناقشه البالغين نقاشاً مستقيضاً لم يتعرض
له الطيبى . قال صاحب المطول : « فهم معنيان وليسنا لفظين حتى يكوننا مجازاً ، لذلك أفرد
الخطيب الحديث عنهما في ذيل الحديث عن الاستعارة التي هي مجاز خالص ، وهي المصرحة
لأنهما - المكتبة والتخييلية - لا يدخلان في حد المجاز المتحقق فيها^(٤) .

ثم قسم الاستعارة - أيضاً - باعتبار الطرقين والجامع إلى ستة أقسام ، وهو تقسيم
ناشر أصلأ عن عبد القاهر ، وتابعه فيه السکاكى وأوصلها بهذا الاعتبار إلى خمسة ، أما
الخطيب فجعلها ستة بزيادة قسم لم يرد عند السکاكى ، وأقتبسها الطيبى عن الخطيب بنفس
الشهاد والأمثلة ، غير أن كلامه في هذه الأقسام أقصر وأوجز .

- استعارة محسوس لمحسوس بوجه حسى ، واستعارة محسوس لمحسوس بوجه عقل .
- واستعارة مقول لمقول ، واستعارة محسوس لمقول ، واستعارة مقول لمحسوس ، واستعارة

(١) انظر : البيان من ٢٢٤

(٢) سورة البقرة آية ٧

(٣) انظر : البيان من ٢٢٦

(٤) المطول السادس / ٢٨١

(٥) انظر : البيان الطيبى ٢٤٩ ; ٢٤٧ ، والإيضاح الفزوي : ٤٢٨ ، من ٤٢٦ .

محسوس لمحسوس بما يغضنه حسي ويغضنه عقلي ، وهذا القسم الآخر هو ما أعمله السكاكي ، وتبه عليه الخطيب ، وقد أورد الطيب شواهد قرائية لكل هذه الأقسام ، اعتمد في توجيهها اعتماداً كبيراً على القرويين ، كما اعتمد على الكشاف ، بالرغم من أن القرويين قد اعتمد في الأصل على ما فسره الزمخشري .

أما القسم الثاني من الاستعارة فهو (التشليل) وهو أن يكون الجامع في حكم الواحد ، وذلك بأن تأخذ صفة إحدى الصورتين المتنزع من أمره فتشبه بوصف صورة أخرى يشابهه ثم تدخل صورة المشبه في جنس صورة المشبه به مبالغة ، فتفسوها لعظ المشبه به من غير تغيير^(١) .

وهذا النوع هو ما ذكره البلاطيون باسم المجاز المركب^(٢) ويشمل نوعين : الاستعارة التشييلية ، والمثل ، وقد تحدث عنهما الطيبين من غير أن يذكراها بالمجاز المركب ، ولكن توجيهه شواهده يتم تماماً عن فهم دقيق لهذا النوع .

يقول : « والمستعار إذا كان قوله سائراً يشبه ماضيه بمورده سمعاً مثلاً ، وإن سمع تمثيلاً ، وأورد الأمثال على سبيل الاستعارة لا تجد للتغيير فيها سبيلاً^(٣) .

وذكر أن التمثل في القرآن ورد على ضربين :

الأول : أن يكون تحقيقاً كقوله تعالى: « رَاعْتُمُوا بِخَلْقِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَنْفَرُوا^(٤) »

شيء استظهار العبد بالله - تعالى - بروتقه بحماته ، والتتجاذبه من مكانه الدهر ، ومكانه النفس إليه بامتلاكه الواقع مهواً مهلكة بجعل وثيق مدلأً من مكان مرتفع يأمن انقطاعه^(٥) .

الثاني : أن يكون تقديرأً كقوله تعالى: « إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى الشَّمْوَاتِ وَالْأَرْضِ^(٦) » الآية مثلت حال التكليف في صعيديتها ، ونقل محملها بحالة مفروضة عرضت على السموات والأرض^(٧) .

وإذا كان المؤلف اهتمَّ كثيراً في هذا الباب بالقروي والزمخشري فإن ما يحسب له هو تلك اللاحظات المشينة التي ذكرها عن شروط حسن الاستعارة التي تكون برجوه منها :

(١) كتاب التبيان من ٤٣٨

(٢) كتاب التبيان من ٢٤٠

(٣) سورة آل عمران آية ١٠٢

(٤) كتاب التبيان من ٢٤١

(٥) سورة الأحزاب آية ٧٣

(٦) كتاب التبيان من ٢٤٢

(٧) كتاب التبيان من ٢٤٤

- ١ - أن لا تكون مطلقة بل تكون مجردة .
 ولم يقتطع الطيبين أن يوازن بين الترشيح والتجريد . فيحكم بتأنيث الترشيح على التجريد «الاشتغال على تحقق الاستعارة باللغة وجه ، وتناسق التشبيه ، وصرف النفس عن توهّمه ، حتى ينبع على علو القدر ما يبني على العلو المكاني وكلما بعثت الاستعارة في التفريح زاد حسنتها»^(١) .
- ٢ - أن لا تشم فيها من جانب النقط رائحة التشبيه .
 ٣ - أن تكون التخييلية مؤكدة المعنى المشاكلة كقول تعالى **«إِنَّ الَّذِينَ يَبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يَبَايِعُونَ اللَّهَ يَدَ اللَّهِ فَوْقَ أَنْبِيَاءِنَّمَا يَبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يَبَايِعُونَ اللَّهَ يَدَ اللَّهِ بَعْدَ التَّحْكِيمَ لِمَعْنَى الشَّاكِلَةِ فِي إِيمَانِهِمْ»**^(٢) .
 ٤ - أن تكون بعيدة الغرور لا تدرك في بدء الفكرة^(٣) .
 ٥ - أن تكون تصصيلية .
 ٦ - أن يجتمع في الكلام عدة استعارات ، كما في قوله تعالى : **«فَلَذِقَهَا اللَّهُ بِيَأسِ الْجُوعِ وَالْخُوبِ»**^(٤) استعار القرية للأهل على طريقة المكية والذئق للكسوة على التحقيقية ، وعدل عن كلامها ، لأن الإذاعة أقوى في الإدراك من المس والباب ، لما يخشى منه الجوع والخوف على الاحتمالين ، وعدل عن الطعام لبيان عموم الآخر^(٥) .
- وإنما نلاحظ هنا - أن تحليل الطيبين للأذية - يجمع فيه بين وجاهة العبارة ودقتها ، وصحة التوجيه البصري ، ولعل الطيبين هو أول من عد شروط حسن الاستعارة ووجهها مثل هذا التوجيه .

أما القسم الثاني من المجاز ، وهو المجاز العقلي فهو «الكلام المحكم فيه بخلاف ما عند المتكلم بالتأويل ، كقول الموحد : أتيت الريبع البقل ، أى أتيت الله البقل وقت الريبع»^(٦) .
 وهو يعتمد في شواهدته في المجاز العقلي على ما ذكره الزمخشري قال : قال جار الله للعقل ملخصات شتى يلخص الفاعل كقوله تعالى : **«خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ»**^(٧) ، والمفعول به **«عِيشَةُ زَاهِيَّةٍ»**^(٨) أو المصدر **«تَقْتَلُ أَكْلَهَا»**^(٩) أى يذبح الله الشجر ثمرها^(١٠) .

(١) انظر البيان الطيفي من TEV ، من ٢٥ .
 (٢) سورة الفتح آية / ١٠ .
 (٣) الكتاب ٢٥٢ ، ٢٥٢ .
 (٤) سورة النحل ١١٢ .
 (٥) كتاب البيان من ٢٥٤ .
 (٦) نفسه من ٢٥٥ .
 (٧) سورة البقرة / ٨ .
 (٨) سورة العنكبوت / ٢١ .
 (٩) سورة إبراهيم / ٢٥ .
 (١٠) كتاب البيان من ٢٥٦ .

ويعد أن قسم المؤلف المجاز العقل إلى أقسام مختلفة ، وبواهية ، عاد ينادى السكاكي والزنخشري في المجاز العقل ، وانتصر للسكاكي على الزنخشري - كعادته ، يقول : « وأما ما ذهب إليه الشيخ هو الحق وشرط هذا المجاز أن يكون العلاقة بين المذكور والمتردك التشبّه^(١) »

والمؤلف في شواهد القراءة التي أوردها للمجاز العقل يكتفى بمجرد سردتها من غير أن يقوس وراء معاناتها الدقيقة كمهدنا به في عرضه الوصياني للأيات ، ولعله كان مشغولاً بمطاردة الزنخشري وانتصاره لرأي السكاكي .

والمكتابة فمن فنون البلاغة عرض له الطيبين في تبيانه ، وعُرِفَ بها بقوله « هي ترك التصريح بالشيء إلى ما يساويه في المزدوج ليتغلب منه إلى المزدوج .. ويسعى كناتبة لما فيها من إخفاء وجه التصريح بالعلم^(٢) »

وتقسمها قسمين : مطلقة (وهي ما يطلب به نفس الموصوف) ، وغير مطلقة تتبع إلى رمز وظفيف وإيماء وتعریض^(٣) ، والمطلوب في هذا النوع نفس الصفة ، ومن الأسباب التي تدعى المتكلم إلى المكتابة : الاحترار عن بشاعة اللقط كما في كناتيات القرآن عن الجامع ، بالإفضاء والفتيا ، واللمس^(٤) .

ومنها : الاستهجان^(٥) كقوله تعالى : « أَجَلْ لَكُمْ لَيْلَةُ الصِّيَامِ الرُّثْقُ إِنْ يَسْأَلُوكُمْ »^(٦) تقبيحاً لما وجد منهم قبل الإباحة ، كما سماه اختياراته ، ومنه قوله تعالى : « قَدْ سَيِّطَ فِي أَيْمَانِهِمْ »^(٧) تصويراً لشدة ندمهم ، فإن من شأن المتدم أن يغضّ يده^(٨) .

وذكر المؤلف من الشواهد القراءية على الإيماء قوله تعالى : « زَوْقَ لِلثَّانِيِّ حَبَّ الشَّهْوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقْتَرِّةِ »^(٩) قال : جعل المشتميات عن الشهوات . قصدأ إلى تحسينها ، لأن الشهوة مستردة عند الحكماء^(١٠) .

(١) السابق من ٢٦٠ . (٢) نفسه من ٢٦١ .

(٣) الرمز : ما يشار به إلى المطلوب من قرب مع الغناء . والتعریض : هو ما يشار به إلى المطلوب من بعد مع خفاء ، والإيماء : هو الكلام المشار به إلى المطلوب من قرب لام الغناء . والتعریض : هو الكلام المشار إلى جانب وإيهام أن الفرض جانب آخر .

(٤) في قوله تعالى « فَلَا تَنْتَهِمَا ، الْأَعْرَافُ / ١٨٩ وَلَدَ أَنْفُسِ بِعْضِكُمْ إِلَيْهِ بَعْضُ النِّسَاءِ / ٢١ ، وَقَوْلُهُ : أَوْلَامْسَتِ النِّسَاءَ / ٤٢ النِّسَاءُ ، وَالْمَائِدَةُ / ٦ / ٤) وَيُسْمِي أَيْضًا المولى من اللقط القبيح .

(٥) سورة البقرة / ١٦٧ . (٦) سورة الأعراف / ١٤٩ .

(٧) التبيان للطيس من ٣٢٧ . (٨) سورة آل عمران / ١٤ .

(٩) التبيان للطيس من ٢٧ . (١٠) التبيان للطيس من ٢٧ .

وكما ذكر الطيبين الأسباب الداعية إلى الكتابة ، ذكر أسباباً تؤدي إلى التعریض منها :
إما لتبرير جانب الموصوف ، كقوله تعالى : « كُذَّلَعْ بِعَضْكُمْ فَقَقْ بَقْجَنْ تَرْجَاتْ » (١) أراد
محمدًا - إعلاه لقدره ، وقد ياتي ملاحظة بالمرصوف ، أو استعطافاً منه ، أو احتراراً عن
الخاشنة لقوله تعالى : « إِذَا الْمُؤْمِنَةُ سَبَّتْ » (٢) ، أو ياتي استدراجاً (٣) كقوله تعالى :
« إِنَّا أَقْ إِيَّاكُمْ لَعْنِي هَذِي أَوْ فِي شَكَلِ مَبِينِ » (٤) ويعلق الطيبين على الآية بقوله : « يبعثهم
على الفكرة في حال أنفسهم ، وما هم عليه من الbeit والفساد ، وبعبارة الأصنام ، وحال نفسه
والمؤمنين ، وما هم عليه من الإصلاح وبعبادة الملك العلام ، ليعلموا أن المسلمين على أعلى
عليين . وهو في أسلف الساسلين ، وأكثر مخاطبات الأنبياء مع القوى على هذا » (٥) .

ثم صرخ الطيبين بأن الزمخشري قد استتبط نوعاً غريباً من الكتابة وهي (أن تتمد إلى
جملة معناها على خلاف الظاهر ، فتتأخذ الخلاصة منها من غير اعتبار مفرداتها
بالحقيقة والجاز ، فتعبر بها عن مقصودك كما تقول في قوله تعالى : « الْجَهْنَمُ عَلَى الْقَرْشِ
أَسْتَقْنَعْ » (٦) إنه كتابة عن الملك ، فإن الاستواء على السرير لا يحصل إلا مع الملك فجعلوه
كتابة (٧) ويرى الزمخشري أن هذه الكتابة من نوع الإيماء ، واعتبر المذكوف عليه خشية أن
يفتح باب التأويلات الباطنية (٨) .

وابا ما كان الأمر فلن تضيق من شرداد القول : بأن الفضل في هذا البحث (الكتابية)
يرجع إلى الزمخشري والسكاكين مع تغيير طفيف ، وإضافات في طريقة العرض ، والتحليل
الناصع الذي لم تر مثله في السايقين أو اللاحقين .

ثم ختم الطيبين أبواب البيان بموجز مما أحمله خلاصته هذه النقطات :

- * أن التشبيه أوكد في طرق الترغيب والتغفير من سائر الصفات ، وأنه إذا جاء في أعقاب
المعنى أفادها جمالاً ، وزادها كمالاً .
- * والأمثال تزيد المعنى تصويراً وتخييلاً ، وتبلغ به نهاية المطلوب ، لأن الأمثال هي المطرق
إلى استخراج المعنى المحتاجة في الاستئثار .

(١) سورة الائتام : ١٦٥ . (٢) سورة التكوير / ٨ .

(٣) الاستدراج : هو إدخاء المغان مع الفحص ليظهر حيث يراد تبيينه ، وهو من مخادعات الأقوال ، حيث
تسمع الحق على وجه لا يزيد فحسب المخاطب .

(٤) سورة سبأ / ٢٤ . (٥) التبيان للطيبين من ٧٧٧

(٦) سورة طه / ٩ .

(٧) الكتاب الزمخشري ج ٢ من ٥٢ (المحقق) .

(٨) التبيان في علم المعانى والبيان والبيان من ٢٧٨ .

- والجاز أبلغ من الحقيقة ، لأنك فيه كمدى الشيء ببيته ، لشهادة وجود الملزم لوجود اللازم .
- والاستعارة أقوى من التشبيه ، لأن فيه اعترافاً بالنقصان ، وهو منتفق فيها ومن سائر المجاز للدعاء .
- والكتابية أقوى من التصريح ، لأن الانتقال من اللازم إنما يتم بشرط ، والفرق بين الجاز والكتابية هو أن الكتابية لا تتألف إرادة الحقيقة ، والجاز ينافي ذلك^(١) .

ثم ختم المؤلف هذا الموجز القائم ، واللاحظات الدقيقة المسحورة بالازلة المنطقية بأيه جمعت أصول البيان الثلاثة من تشبيه ومجاز وكتابية هي قوله تعالى : « أَنْ كَانَ تَبَيَّنَ لَأَغْنِيَتَنَا وَجَعَلَنَا لَهُ نُورًا يَنْتَشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظَّلَامِ لَيْسَ يَخْرُجُ مِنْهَا »^(٢) ، وجاء تحليله وجراً كخاتمه أيضاً فقال : فإن التشبيه فيه تمثيل ، وكلاً من التشبيه والتشبيه به استعارة تمثيلية ، ولقطع « مثله » ، كتابية عن ذات من شبه به ،^(٣) .

والطيبين في جميع أبواب الكتاب يكثر من شواهد القراءة ، وويجز في تفسيرها ببيان الأغراض البلاغية ، وأسرارها مستعيناً بالأحاديث التبرية أحياناً ، أو بآيات شعرية في الغالب يدعم بها آراءه ، وما يذهب إليه ، ومعظم شواهده الشعرية تتضمن حكمة أو حماسة حسنة الصورة بلية المعنى ، ويترفع في استشهاده عن الشعر المكشف أو المرزوقي .

ونلاحظ على المؤلف أن شرحه لعلم المعانى والبيان قد استغرق ما يقرب من نصف الكتاب والتنصيف الآخر خصصه لعلم البديع الذى تكلم فيه عن تحسين الكلام الذى أرجمه إلى اللقطة إلى المعنى ، أو إليها جمياً^(٤) ثم تكلم عن الفصاححة وهى الفن الثاني من الكتاب^(٥) ، ذكر فيه ما يتعلق بفصاحة الألفاظ وفصاحة التراكيب اللغوية ، وينحمد للمؤلف دراسته لفصاحة كأحد فنون البلاغة ، وليس مجرد مقدمة كما فعل الخطيب فى إيضاحه .

ومن ثانية القول أن نقول : إن الطيبين في تدوين الفضائل التي تقدمت اهتمى بتجزيئات السكاكي والزمشري وابن الأثير - كما ذكر في المقدمة - وقد أؤمننا بهذه المقاييس في مواضعها والذي نقوله هنا : هو إن أجاد حضم أفكار السابقين ، وأخرجهم لنا في لائن مضيئة .

(١) البيان في علم المعانى والبديع دالبيان من ٢٨٠ وما يليها .

(٢) سورة الانعام آية ٨٢٢

(٣) البيان في علم المعانى والبديع والبيان من ٢٨١

(٤) البيان من ٢٨٤

(٥) المصدر نفسه من ٤٦٧ .

والذي نذكر عليه في خاتمة مسيرتنا مع الطيبين أن كتابه لم ينطمس مع ما انطمس من
نقاشات الكتب ، ولكنه أثر في غيره من اللاحقين كابن معصوم في كتابه «أنوار البديع في
أنواع البديع »^(١) والزركشي في كتابه « البرهان » والسيوطسي في كتابه «الإتقان في علوم
القرآن » .

(١) - نظر : أنوار الربيع في أنواع البديع ، لابن معصوم تحقيق شاكر هادي شكر ٢٠٢٢٠ - ٢٠٠٢ / ٤٠٨١١ / ٢٧٢ مطبعة النصان / النيل سنة ١٩٦٩ م .

كتاب «الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم الإعجاز»، (ت ٧٤٩) هـ.

ومن المتكلمين المعترلة الذين أتوا في البلاغة أمير المؤمنين يحيى بن حمزه بن على بن إبراهيم الطري اليمني^(١) صاحب كتاب «الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم الإعجاز» ، وهو يقع في ثلاثة مجلدات ، وكان المأذن على تأليفه لهذا الكتاب هو أن جماعة من إخوانه شرعوا في قراءة كتاب «الكشف» للزمخشري ، ذلك التفسير الذي اعتمد على البلاغة ، وأسس على علم المائتي والبيهقي فساله بعضهم أن يعلي في البلاغة كتاباً يشتمل على التهذيب والتحقيق ، ويكون عوناً لهم في دراسة تفسير الكشف^(٢) .

فالغاية إذن – التي يرمي إليها المؤلف من الكتاب هي الاطلاع على حقائق إعجاز القرآن ، والوقوف على أسراره وأغواره ، وإن يكن ذلك إلا بإدراك علم البيان الذي أوضح شعرته بقوله «واعلم أنه يراد للقصددين : الأول منها مقصد ديني ، وهو الاطلاع على معرفة إعجاز كتاب الله ومعرفة معجزة رسول الله ﷺ إذ لا يمكن الوقوف على ذلك إلا بإدراك علم البيان ، والاطلاع على غزوه ، والمقصد الثاني : مقصد عام لا يتعلق به غرض ديني ، وهو الاطلاع على أسرار البلاغة والفصاحة في غير القرآن في منتشر كلام العرب ومنظمه»^(٣) .

واراد المؤلف أن يكن كتابه متيناً عن سائر الكتب المصنفة في علم البلاغة بأمررين أحدهما : اختصاصه بالترتيب العجيب ، والتتفق الأتيق الذي يطلع الناظر من أول وهلة على مقاصد العلم ، وثانيهما : اشتغاله على التسهيل والتيسير ، والإيضاح والتقريب ، لأن مباحث هذا العلم في غاية الدقة ، وأسراره في نهاية الغموض^(٤) .

أما المصادر التي اعتمد عليها العلوى ، وذكرها في مقدمته ، فهي أربعة مصادر لا غير هي كتاب «المثل السائر» لابن الأثير ، «والبيان» لابن الرملانى ، «ونهاية الإيجاز» .. للرازى والصياغ .. ليدر الدين بن مالك ، ولا تكفى هذه المراجع الأربعة لكنهن يحدوها تكاد لهذه الدراسة التي طالعنا بها العلوى ، ولذلك فقد ارتات كثير من الباحثين أن يكون العلوى قد

(١) انظر : ترجمته في «اليد الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع الشوكانى ٢٣١/٢

(٢) انظر : «الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم الإعجاز» ١ من «ط . دار الكتب العلمية - بيروت

سنة ١٩٨٢ م .

(٣) انظر : المصدر السابق ٢٢/١ وما بعدها .

(٤) انظر : المصدر السابق ٧/١ .

اقتصر في مراجعه على ما ذكره في مقدمته^(١) ، وليس لديهم ما يذكر نظرتهم هذه ، غير أننا يمكننا أن نضيف مصدرًا خامسًا إلى ما ذكره الطوى وهو كتاب « الكشاف » للزمخشري الذي كان باعً له على تأليف كتابه .

والطوى يبدو تناً كبيراً بازاء المنزلة في بيان القرآن ، وأسرار إنجازه .

ولقد برع المؤلف في دروس فنون البلاغة ، وحقق مراده ، من التسهيل والتوضيح ، واتبع منهجاً دقيقاً في شواهده التي جاءت في خاتمة كل موضوع وقسمها إلى قسمين :

- القسم الأول منها : آيات قرانية ، وأحاديث نبوية ، وكلام لإمام علي كرم الله وجهه .

- أما القسم الثاني : فهو كلام الآباء والبللغا ، وأصحاب المنزلة الرفيعة من شعراء العرب ، والشعراء الذين ذكرهم طبقات ثلاث : الأولى : المتقدمون من الشعراء في الجاهلية كاميئ القيس ، وزهير ، والثانية : المتسطون : كالفرندق وجبريل والأخطل ، الثالثة : المتأخرین كتابی تمام والبحتری ، والمتتبی .

ولقد جاء تحليله لشواهد أكثر توفيقاً من الشرح واللخصين ، لأنه غالباً تبهنا على مواضع الحسن والجمال في الشاهد ، بعيداً عن المحدود والمصلحات .

أما منهج الكتاب فيقوم على مقدمات ومقاصد وتكلمات ، وسمى كل جانب من هذه الجوانب فتاً :

الأول : في المقدمات : ذكر فيها تفسير علم البيان وما فيه ، وموضوعه ، ونزلته عن العلوم الأدبية ، والطريق إلى الوصول إليه ، وبيان ثمرته ، وتبيان معانى الفصاحة والبلاغة ، ومعانى المقتبة والمجاز .

وأنشار المذلول إلى منزلة علم البيان من العلوم الأدبية وقد وصفه بأنه أمير جنودها ، وواسطة عقوتها ... وهو المطلع على أسرار الإعجاز ، والمستوى على حقائق علم المجاز^(٢) .

ويعد أن تحدث المؤلف عن ماهية علم البيان ، ومعانى البلاغة والفصاحة ، أخذ في ذكر أسرار المجاز مبيناً أنه من أعظم قواعد علم البيان ، ومن مهمات علميه ، وسر جوهره لا يظهر إلا باستعمال المجازات الرشيدة ، وإغراق في طائفة الرائنة ، وأسراره الدقيقة الغالقة يقول : « أعلم أن أرباب البلاغة وجهادة أهل الصناعة مطبقون على أن المجاز في الاستعمال

(١) انظر : البيان العربي ، بدري طحانه ص ٣٦٨ ، والبلاغة تطور وتاريخ ص ٢٢٠ ، ونتائج بلاغية من ٢٧١ .

(٢) انظر : الطزان ج ١ ص ٢ .

أبلغ من الحقيقة، وأنه يلطف الكلام ويكتبه حلاوة ، ويكتسوه رشاقة ، كفره تعالى > فاصدح
يما تقرئ < (١).

ثم ينتقل بنا المؤلف إلى تعريف المجاز ، ويناقش من عرقوه ، ويطيل في الحديث عن
علاقة المجاز المرسل (اللغوي) ، والتي تصل عنده إلى أربعة عشر قسماً ، وتلحظ عليه في
أقسامه للمجاز أنه يستمد كلامه من علماء الأصول وبعض البلاغيين مثل : عبد القاهر
الجرجاني ، والرازي ، وأبن الأثير (٢).

ويسعني المجاز العقلي باسم المجاز المركب ، ويعتقب الرازي ويناقشه فيما ادعاه من كون
المجازات المركبة كلها عقلية ، وينند رأيه فيقول : « وقد زعم ابن الخطيب الرازي أن المجازات
المركبة كلها عقلية ، وهذا فاسد لأمررين : الأول : لأن المجاز ومعناه حاصل في المجازات
المركبة من كونه أفاد معنى غير مصطلح عليه ، لهذا كان المركب بالمعنى اللغوية أشبه .
والثاني : لأن المجاز المفرد لغوي فيجب أن يكون المركب أيضاً كذلك (٣).

ثم يعرض المؤلف القضية طالما شغلت علماء البلاغة والأصول ، ألا وهي جواز دخول
المجاز في القرآن ، منهاجاً على أن جمهور العلماء يذهبون إلى اشتغال اللغة والقرآن على المجاز
على أنهم في ذلك ليسوا سوا في اعتماد التأويل المجازي فنهم المكرر ، ومنهم المعدل ،
ومنهم المقل ، واختيار العلوى جانب الاعتدال بقوله : « اعلم أن في الناس من زعم أن اللغة
حقيقة كلها ، وإنكر المجاز ، وزعم أنه غير وارد في القرآن ، ولا في الكلام ، ومنهم من زعم أن
اللغة كلها مجاز ، وأن الحقيقة غير محققة فيها ، وهذا المذهب لا يخلوان عن فساد ، فإنكار
الحقيقة في اللغة إفراط ، وإنكار المجاز تفريط ... والمختار هو أن اللغة والقرآن مشتملان على
الحقائق والمجازات جميعاً (٤).

ثم يتحدث في المقدمة الرابعة عن الفصاحة ، فيعرفها اللغة وأصطلاحاً ، ثم يفصل القول في
مخارج الحروف ، وترتيبها ، وبين ما يجب مراعاته من حسن التركيب ، وطريق الإعجاب في
حسن تأليف اللقطة إنما هو الترقى السليم والطبع المستقيم .

ومعنى بعد هذه المقدمة إلى عرض الشخصيات العامة التي ينبغي أن تتوفر في اللقطة
المفردة لتكون فصيحة ، وعدد منها خمس شخصيات :

(١) آية ٩٤ / سورة العنكبوت .

(٢) انظر : الطراز ج ١ من ٦٩ وما يهدأها .

(٣) المصدر السابق ج ١ من ٧٦ .

(٤) المصدر السابق ج ١ من ٤٤ ، من ٤٥ ، وانظر : الفرز بن عبد السلام يكتبه « الإشارة إلى
الإيجاز في بعض أنواع المجاز » درسالة الباحث من ٢٢٢ .

- الأولى : أن تكون اللقطة عربية قد تواضع عليها أهل اللغة .
 الثانية : أن تكون جارية على العادة المأروفة ، ولا تكون خارجة عن الاستعمال .
 الثالثة : خفيفة على الألسنة لذيتها على الأسماء ، حلوة في النطق .
 الرابعة : أن تكون اللقطة مألولة في الاستعمال فلا تكون وحشية .
 الخامسة : أن يكون اللقطة متخصصاً بالجزالة والرقابة .

ونذكر العلوي أن القرآن الكريم وارد بهذه الأمور جميعاً ، مع بلوغه كل غاية من الفصاحة والبيان والظهور ، وقد وصف الله كتابه الكريم بذلك بياناً وبياناً (١) .

وما ذكره العلوي في مجال الفصاحة ، وخصائص اللقطة الفصحيحة يستحسن فيه بما كتبه ابن الأثير ، وأبن سنان الخفاجي ، وما نقله عنهما عmad الدين ابن الأثير .

ويختتم المؤلف حديثه عن الفصاحة بفصاحة الألفاظ المركبة التي يدرس فيها عظيم الشيه بابن الأثير ، غير أن العلوي لا يرتكب أن تكون الفصاحة مقصورة على اللقطة وحده ، أو المعنى وحده ، ويلاحظ من فصل بين اللقطة والمعنى يقوله : « فاما من زعم ان الفصاحة متعلقة باللقطة لا غير فقد أبعد ، فإن الألفاظ لا ترق لها ، ولا يمكن الإصمام إلى سماعها إلا لأجل دلالتها على معاناتها » (٢) .

ويتناول العلوي بين كلام الله وكلام البشر من حيث عنوية الألفاظ كما في قوله تعالى **« تَقْرِئُ الْأَنْتَقَ يَخْرُجُ وَمَنْ يَخْلِلُهُ »** (٣) . وبيت أمري القيس : فائقى بصحراء العبيط يماعه .

يقول : « فاذين هذا من قول أمري القيس في هذا المعنى ، فانتظر ما بين الودق والمعاع من اللقطة والبساطة ، وفي ذلك دلالة ظاهرة على أن الفصاحة راجعة إلى اللقطة لاجل دلالته على معناه » (٤) . ويزنكم المؤلف ما ذهب إليه بشواهد وفيرة من القرآن الكريم والحديث النبوي .

ويلاحظ على العلوي في هذا الباب أنه لم يستذكر وجود المقرب في القرآن لكتل اللقطة السقير والاستيق والمشكاة ، مخالفًا في ذلك الباقلاني ، الذي أذكر أن يكون في القرآن شيئاً من غير لغة العرب وخطأه في رأيه (٥) .

(١) انظر : الطراز ج ١ من ١١٢ . من ١١٧ (٢) المصدر نفسه ج ١ من ١٢٢ .

(٣) آية ٤٣ / التور ، آية ٤٨ / الردم .

(٤) انظر : الطراز ج ١ من ١٢١ ، من ١٢٦ ، وما يليها .

(٥) انظر : الطراز ج ٣ من ١١٢ ، ولجميل القرآن الباقلاني من ٢٠٧

ومضى إلى الفن الثاني من الكتاب الخاص بالمقاصد ، وتناول فيه أبواب البيان من مجاز واستعارة وتشبيه وكتابية ، وبدأ بالمجاز ، وجعله شاملًا لأنواعه من الاستعارة والكتابية والتمثل .

ثم يفضل القول في الاستعارة - على نوح ابن أبي الإصبع . فيورد تعريف العلماء لها كالرمانى والرازى وأبن الأثير ، ويرفضن معظمها ، والتعريف المختار عنده أن يقال : « تصويرك الشين وليس به ، وجعلك الشين للشين؛ وليس له بحيث لا يلاحظ فيه معنى التشبيه صورة ولا حكم » .^(١)

ثم يفرق بين التشبيه البليغ والاستعارة ، ويدرك مذهبين للعلماء البلاحة، الأول : أنه ليس باستعارة ، وهذا الذي مال إليه الرازى ، وهو رأى أكثر علماء البيان ، والثانى : أنه بحقيقة الاستعارة أشبه ، وقال به أبو هلال المسكري ، والفارسى ، والأمدي ، والتفاجى ، وغيرهم من علماء البيان .

ويشار إلى إدخال التشبيه البلاخي ضمن الاستعارة ، لأن الحكم الخاص للاستعارة في نظره « أن يكون المستعار له مطوى الذكر ، وكلما ازداد خفاءً ازداد الاستعارة حسناً ، فإن أسلحته على الاستعارة حرف التشبيه» ، فقد وضعت تاجها ، وسلبت دياجتها ، كقوله تعالى : « شَرِبَ اللَّهُ مَثْلُ قَرْبَةِ كَانَتْ أَمْنَةً مُظْمِنَةً يَاتِيهَا يَرْدِفُهَا رَغْدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَقَرْبَةٌ يَأْتِيْمُ اللَّهُ فَإِذَا قَاهَا اللَّهُ لِيَسِ الْجَوْعُ وَالْخَوْفُ » .^(٢)

ويسوق على الاستعارة أمثلة كثيرة من القرآن الكريم ، والأحاديث النبوية وكلام الفصحاء والبلغاء ، ثم يأخذ في بيان أقسام الاستعارة وأحكامها مستنيداً من كلام الرازى ، ويدرك الدين ابن مالك في هذا الشأن .

وينتقل إلى التشبيه ، ويشير إلى خلاف العلماء في عدّه من أوجه المجاز أم لا ، ويدرك أن ابن الأثير أدخله في المجاز ، وانتصر لرأيه ، وإن كان الذي عليه جمهور البلاغيين أنه غير معنود في المجاز ، وذكر منهم المطرزى .^(٣)

ثم تكلم عن ماهية التشبيه وأقسامه ، وأحكامه ، وكيفيته ، وشرطه ، ومقاصده ، وذكر منها : إضافة البلاحة والإيجاز ، والاختصار في اللقط ، وأن يراد للبيان والإيضاح ، ويري أن

(١) انظر : الطراز ، ج ١ من ٢٠٢ .

(٢) المصدر السابق ج ١ من ٢١١ .

(٣) آية ١٧٢ / النحل .

(٤) انظر : الطراز ج ١ من ٢١١ .

جمال التشبيه وبلاغته من جهة كونه غريباً غير مألوف أن معهود « فكلما كان الإغراق في التشبيه ، والإبعاد فيه ، وكانته متعددة الواقع والمحصل ، كان أدخل في البلاغة ، وأوقع فيها ، وهذا نحو تشبيه نور الله تعالى بقدر المصباح في المنشاة ، والتشبيه بما ليس موجوداً أدخل في التشبيه وأعجب لكونه غير واقع ، ولهذا كان قول من قال :

وكان أجرام السماء لاما . *نَزَّلَتِينَ عَلَى سَاطِ أَذْقَ*

أَدْخَلَ فِي الْإِعْجَابِ ، وَأَغْرَبَ مِنْ قَوْلِ ذَي الرَّمَةِ :
كَانَهَا فَضَّةٌ قَدْ مَسَهَا ذَهَبٌ

لما كان الأول غير واقع ، لأن الساط الأزرق عليه درر متقدة لا يكاد يوجد بخلاف الفضة الملوعة بالذهب فإنها توجد كثيراً^(١).

أما تشبيهات القرآن الكريم في نظره ، فقد تأتى كلها قريبة ، ولا يقل ذلك من بلاغتها ، وذلك لأنها أدخلت في التحقيق ، وأقرب إلى التقين مما لا يكاد يقع كقوله تعالى « أَنْ كَثُلَمَاتٍ فِي تَخْرُجِنِي »^(٢).

وختم التشبيه بتأثيله من القرآن والحديث وكلام البلقاء ومن النثر والتنظم على عهده بنا في جميع أبواب الكتاب .

ثم تناول الكتابية ، وذكر تعريف عبد القاهر لها ، وكذلك تعريف بدر الدين بن مالك ، وأiben الآثير ، وبعض الأصوليين ، وبنافقها ، ويرتضى رأى ابن الآثير في عدها ضرب من المجاز ، واعتبر على إخراج الفخر الرازي لها من أبواب المجاز دون غيره من علماء البلاغة ، ولكننا لاحظنا أن بعض البلاطيين والأصوليين قد تابع الرازي فيما ذهب إليه^(٣).

ثم ذُكر الطريق بين الكتابية والتعريف ، وذكر أقسامها وأمثالها ، كما تحدث عن التعريف ، وختم حديثه في البيان بالتمثيل .

(١) انظر : الطراز الطري . ج ١ ص ٣٦٦ ، من ٣٧٣ ، من ٣٧٤ ، من ٣٨٠ ، من ٣٨١

(٢) آية / ٤٠ / سورة النور .

(٣) انظر : الطراز . ٣٩٤/٦ ، وما يليها . نهاية الإيجاز في دراسة الإيجاز من ٣٧٢ . والإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز من ٣٧ .

وخصص الباب الثاني للحديث عن علم المعانى ، الذى خلط فيه بين مباحث ابن الأثير ، ويدر الدين بن مالك ، وأبن الزملاكى ، وبعض مباحث التحريف ، ويشمل المعرفة والنكه والاحرف الجارة ، والمبتدأ والخبر ، والتقدير والتلخيص ، وبعض صيغ الأسماء والأفعال ، وحرف النهى ، وأدخل فيه صور الافتراض ، والمبادئ والافتتاحات والاستدراج ، والتلخيص ، والاقتضاب ، وصورة من المبالغة والإرصاد ، وهو في ذلك كله يجرى درء ابن الأثير^(١).

ونكلم في الباب الثالث من هذا الفن في مراعاة أحوال التأليف ، وبيان ظهور المعانى المركبة ، ويدور فيه في ذلك عبد القاهر ، وذلك عن طريق كتاب « البيان » لأبن الزملاكى ، والذي نص فيه كلام الجرجانى ، ويرى أنه يجب على الناظم والناثر فيما يقصد من أساليب الكلام ومراعاة ما يتضمنه علم النحو أصوله وفرعوه ... كما يرى ضرورة مراعاة أحوال التأليف بين الأنماط المفردة ، والجمل المركبة حتى تكون أجزاء الكلام متلائمة ، أخذًا بعضها بأخذناق بعض ، وعند ذلك يقترب الارتباط ويصل إلى جوهر نظام التأليف ، ويسير حاله بمنزلة البناء المحكم الرصوص المتلائم الأجزاء أو كالعقد من الدر ، فصلت أسمائه بالجوامن والذارى ، فخلص على أتم تأليف ، وارشق نظام^(٢)

وانقل بنا المؤلف إلى علم البديع ، فقسمه إلى ما يتعلق بالفصاحة اللغوية كما فعل بدر الدين بن مالك ، وعدد في هذا القسم عشرين محسنةً بدعيها منها التجنيس ، والترصيح ، والتطبيق .. والتشريع ، والتردد ... إلخ

ثم تحدث عن القسم الثاني من البديع ، والذي يتعلق بالفصاحة المعنوية ، وسلك فيها خمسة وثلاثين محسنة منها : التأقويف ، والتشريع ، والقلب ، والتسبيط ... إلخ .
وأدخل فيها التشبيه ، وختمتها بالسرقات الشعرية ، ولخص فيه ما ذكره ابن الأثير ، ثم يعود بعد ذلك إلى بيان معنى البديع وأقسامه إجمالاً^(٣)

والظواى في هذا الباب لا يمبل إلى ما ذهب إليه أصحاب البديع من معاصريه من المصريين والشوام أمثال السبكي وعماد الدين بن الأثير ، والرازى صاحب معانى المعانى ، وغيرهم من أصحاب الاتجاه إلى جمال التعبير اللغوى دون الاهتمام كثيراً بالقضايا المعنوية ، والعلقية ، وصحة المعنى في العقل ، دون سلامتها على اللسان ، وحسن وقامتها في السمع ،

(١) انظر : الطراز ج ٢ من ٢٢٢ : من ٢٢٥

(٢) انظر : الطراز ج ٢ من ٤٧ ، من ٢٠٦ ، من ٢٠٩ ، من ٢١٣ ، من ٨٩-

واستساغتها في النون ، وتراء في ذلك متثيراً بمنتهى الذكرى في الاعتزال ، والميل للفلسفة والمنطق على طريقة عبد القاهر ، والخطيب الرانى ، والملطنى ، وأبن الزمكاني (١).

أما الفن الثالث لتحدث فيه عن التكمادات اللامنه بالكتاب ، وهو المقصود والغرض المطلوب للكتاب ، وفيه تكلم عن فصاحة القرآن في أحقره ومفرقاته ، وتراثيه ، وطبق عليه قواعد علم المعانى وفصوله ، وقواعد علم البيان والبديع ، وتحدث عن إعجاز القرآن في روعة نظمه وتاليته ودقة معانيه ، وفصاحتها ، ورد على القائلين بالصورة والأسلوب ، وخلوه من المناقضة ، واشتماله على الأمور الفنية ، فبلغة القرآن عنده في نظمه (٢).

ووجه الإعجاز عنده إنما هو فيما تضمنه من المزايا الظاهرة ، والبدائع الراوغة في الفوائح والمقاصد والخواص ، في كل شقره ، وفواصلها ، وهذا هو الوجه السديد في وجوه الإعجاز في القرآن (٣).

وينتهي كتاب الطراز بتلک التطبيقات البينانية على أسلوب القرآن الرصوص إلى سر إعجازه البيني ، بالإضافة إلى ما ذكره من ريد على مطاعن الملاحدة والزنادقة ، دالة على طول باعه وتفوقه في مجال علم الكلام (٤).

ومن يربو ينتظره في الكتاب يلاحظ على مؤلفه كثرة الاتجاهات ، واضطربابها ، وتكرار كثير من موضوعاته ، وكثرة شواهد ، التي قد ينسى بعضها بعضاً ، وتحليلها تحليلاً منطقياً قريراً من علم الكلام .

وخلالمة القول أن كتاب « الطراز » يتميز عن غيره من كتب البلاغة المتأخرة ، لأنه يمزج بين العلم والأدب ، وأنذلك كان الكتاب من أحسن كتب البلاغة في القرن الثامن الهجري ، لما فيه من ضبط لقواعدها ، وأمثلة مختار ، وتحليل يتم عن فهم لأساليب العرب ، وتفوق لجماليات النص .

ويمثل هذا الأسلوب يستحق صاحبه أن يكون مثلاً يحتذى في عصره ، غير أن الكتاب التي عاصرته لم تتبع نهجه ، وإنما اتجهت إلى تلخيص القزويني تشرحه ، أو تنظمه ، أو تلخصه ، فلت يتضمنها عن إعمال النون والتزام طرقه .

والكتاب - يحق - في حاجة إلى دراسة مستقلة ، وتحقيق علمي سليم ، لكثرة الأخطاء الواردة في طبعته المتداولة في الأسواق .

(١) انظر : تاريخ النقد العربي ١ - نظير سلام - من ٢٨٨ .

(٢) انظر : الطراز ج ٢ من ٢٨٤ - من ٤٠٥ .

(٣) المصدر السابق ج ٢ من ٤٠٤ .

(٤) السابق ج ٢ من ٤٠٦ - من ٤٦٦ .

الفصل الثاني

الشراح والمملخون

- * القرزيوني
- * السبكي
- * البارتلي
- * التفتازاني

الفصل الثاني الشرح والملخصون

لقد فتن العلماء البلاغيين بالقسم الثالث من «فتاح العلوم» لسكاكى، منذ القرن السابع الهجرى، وراحوا يدرسوه، ويحفظونه، ويأخذونه ويشرحونه، وينظمونه، وتحولوا بالدراسات البيانية تحولاً جديداً أدى بها إلى الذبول والجفاف.

ويعتبر القرنون أول من لخص القسم الثالث من الفتاح وشرحه، وتنته شروح وتلخيصات للتلخيص هو، وسيطر التقليد على الدراسات البيانية في هذه الفترة، وإن درسها بهذه الروح كان أسوأ أثر من تركها جملة.

وهؤلاء الشرح كما يلاحظ من علماء القرن الثامن الهجرى، وقد استمر الاهتمام بتلخيص التلخيص وشرحه حتى القرن الثاني عشر الهجرى، وعند بعضهم إلى نظم التلخيص شرعاً، ثم عاد إلى شرح هذا النظم، كما فعل السيوطي حين نظمه في أرجوزته التي سماها «الجمان»، ثم عاد فشرحها فيما سماه «عقد الجمان»، ومن قام بشرحه من علماء القرن الثاني عشر الهجرى أبو يعقوب المزري في كتاب سماه «مواهب الفتاح في شرح التلخيص للفتاح»، والعجب أن المكتبات العربية تكاد تغوص بالشرح والتلخيص المطبوعة والمخطوطة.

وشروح التلخيص في الفترة التي يشملها بحثنا كثيرة منها:
عروس الأفراح في شرح تلخيص الفتاح السيسى، وشرح التلخيص للبابرى، والشرح الكبير لسعد الدين الفتاوى الذى يعد خير شروح التلخيص.

وأهم النتائج التى خرجنا بها على شرح التلخيص هي:

- ١ - دفع الشرح والملخصين بالمحاكاة اللغوية، وبكثره التقسيمات التي لا جدوى من درانها.
- ٢ - تعمقت بين أيديهم شئون البلاغة، وغدت قواعد تنافس قواعد النحو والصرف في حتميتها وجفافها^(١).
- ٣ - حولوا البلاغة إلى علم جاف ي يقوم على التعريفات، والقواعد والأمثلة المحددة، من غير خوض في معانيها الدقيقة.

(١) انظر: مع البلاغة العربية في تاريخها - محمد علي سلطانى من ٢٥٧
ط. دار المأمون للتراث - دمشق سنة ١٩٧١ م - ٩٣ -

- ٤ - أنت الشروح إلى اندماج المكتبة البلاغية بممؤلفات مكررة معاادة ، تجتر القديم من غير أن تتنفس ذيفاً أو تربس ملحة .
- ٥ - شغلوا أنفسهم شفلاً أكثر من اللازم بالحديث عن السكاكي ، وكان الحريص بهم أن يشغلوا أنفسهم بال مجال التطبيق .
- ٦ - تركت جهودهم في خدمة الكتب دون خدمة الدرس البياني .
- ٧ - اتسمت أبحاثهم بالاهتمام بالأبحاث النظرية ، والصيغة الجدلية بدلاً من التعمق في الأهداف ، والأغراض البيانية .
- ٨ - مزج الشراح الدراسات البيانية بالعلوم الغريبة عنها كالفلسفة والمنطق وأصول الفقه والتحوّل وما إليها ، فلعلها من ذلك حيف كبير .
- ٩ - لم يكن هدفهم توضيح ما في التلخيص من غموض وتعقيد ، بل قدر ما كانوا يهدون إلى عرض معارفهم الفلسفية والأصولية ، وغيرها .
- ١٠ - صارت البلاغة بسيبهم - بعيدة عن النهوض بالأدب ، ورسالته وعن الكشف عن الجمال فيه ^(١) .

وذلك الشروح والتلخيصات على كلرتها والتي سنعرض لخاصة منها - لم تقدم للبيان القرائي آية فائدة إيجابية ، بل وقفت به حيث انتهى السكاكي ، ولا تعدو هذه الشروح والتلخيصات أن تكون مؤلفات بيانية بالمعنى الدقيق للكلمة ، بل قدر ما هي اجترار وتكرار لمناهج الغير ، وهذا بلاه ابتليت به دراساتنا البيانية في تلك الفترة من الزمان .

وصدق الاستاذ الدكتور شوقي ضيف حين وصف هذه الفترة كلها بالجمود ، بقوله « إن المصادر المتاخرة منذ عهد الرازي والسكاكين ، لم تستطع أن تضيف إلى مباحث البلاغة مباحث جديدة » ، من شأنها أن تبقى لها على ازدهارها الذي رأيناها عند عبد القاهر والزمخشري لسبب طبعي وهو ما ساد هذه المصادر من الجمود ، لا في البلاغة فحسب ، بل أيضاً في الشعر والثرثرة ^(٢) .

(١) انظر : المدخل إلى النقد الأدبي الحديث د. محمد غنيم ملال من ٢٨٧ / من ٢٨٨

مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٥٨

(٢) انظر : البلاغة تطور وتاريخ من ٣٥٨ - ٩٤-

كتاب «التلخيص في علوم البلاغة» للخطيب القزويني (ت سنه ٧٣٩ هـ)

بعد جلال الدين محمد بن سعد الدين بن عبد الرحمن القزويني^(١) من أشهر الذين اختصروا القسم الثالث من «مفتاح العلوم» للسماكي وذلك في كتابه المسمى «التلخيص في علوم البلاغة» وكان الدافع لهذا التلخيص ما وجد في مفتاح العلوم من حشو وأضطراب.

يقول: «وكان القسم الثالث من «مفتاح العلوم» الذي صنفه الفاضل العلام أبو يعقوب يوسف السماكي أعظم ما صنف في من الكتب المشهورة ... ولكن كان غير مصنون عن المshort والتطوّر، والتعقّد، قابلاً للاختصار، مقتراً إلى الإيضاح والتجزّي»^(٢) فربّته ترتيباً أدقّ من ترتيب السماكي، ولكنّه مع ذلك لم يخرج عن منهج السماكي، وتقسيمه العقلية.

وفي هذا الكتاب خطا القزويني بالبلاغة خطوة جديدة، وأفرغ فيه جهداً استطاع به أن يحجب الأصل طوال هذه القرن، ودراسة منهج القزويني في هذا الكتاب، وكتاب «الإيضاح» من أهم المراحل التي يجب أن يقف منها الباحث، لأنها المرحلة التي توقف بعدها الخلق والابتكار، والتي نمسك منها الخطيب القديم لتسير به نحو الجديد^(٣).

أما جهد القزويني في القسم الثالث من مفتاح العلوم، فيتمثل في الآتي:

- ١ - أخرج منه التعقّد والتطوّر.
- ٢ - اختصره.
- ٣ - وضع ما رأه عاملاً.
- ٤ - اشتغل على أمثلة جديدة.
- ٥ - حققه وعذبه وربّته.
- ٦ - أضاف إليه قواعد بلاغية جديدة.

والواقع أن «التلخيص» جاء - إلى حد كبير - خالياً من التعقّد، بناءً على الهدف الذي رسمه القزويني لنفسه في مقدمته، ومع ذلك ظلم يكتفى المؤلف بهذا الجهد، بل أضاف إليه كما يقول: «وأضافت إلى ذلك فوائد عثرت عليها في بعض كتب القوم، وزوادت لم أظفر في كلام أحد بالتصريح بها، ولا الإشارة إليها»^(٤).

(١) انظر: ترجمته في: التلخيص لهامه ٣١٨/٩ ، والدور الكامنة في أعيان الملة الثامنة ٤/٢

(٢) انظر: التلخيص في علم البلاغة الخطيب القزويني . خطبة وشرح الاستاذ / عبد الرحمن البرقوقي ط . دار الكتاب العربي - بيروت من ٢٢

(٣) انظر: مقدمة كتاب «القزويني وشرح التلخيص» د . سهير القماري

(٤) انظر: التلخيص في علم البلاغة من ٢٢

ويع هذا التصريح الواضح من المؤلف نرى المرحوم الشيخ المراғي يتوجب من أن يدعى
القریون تلخیصه المقتاح وحده ، مع أنه لخصه من عدة كتب^(١) ، وليس هذا التعجب من
الاستاذ المراғي - في مطه ، لأن الخطيب لم يدُع ذلك وفي كلامه السابق « وأضفت إلى ذلك
فوانيد شرثت في بعض كتب القوم عليها » - أبلغ رد على هذا التجن .

ولعل مثل هذه الزيادات التي جمعها القریون من كتب السابقين جعلت لتلخیصه قيمة ،
وسيطرة على الدراسات اليبانية عند أهل المشرق في التعليم قديماً وحديثاً ، يقول ابن خلدون :
« والعنابة بهذا المهد عند أهل المشرق في الشرح والتعليق منه أكثر من غيره »^(٢) .
فضلاً عن أن الكتاب يعتبر عند الأزهريين الأول الذي لا يبارى ، والأخر الذي ليس بعده
غاية لطلع ، وما يزال يتخذ من مباحثه علامات طريق ، ومتارات سير ، ويعتبر منهجه القریون
في البلاغة بوجه عام ، وفي تلخیصه بوجه خاص ، هو المنهج العلمي في علم البلاغة إلى
عصرنا الراهن^(٣) .

ومما يسترعن انتباه الباحث أن منهجه التلخیص يقوم على ما اخذه السکاکی في مقتاحه
ولا يكاد يخرج عنه إلا قليلاً ، مستلهماً من وقت لآخر بعض ملاحظات الجاھظ ، وعبد القاهر
والزمخشري ، وغيرهم ، والتي لم تكن متوافرة بوضوح في كتاب السکاکی .

وكتاب التلخیص يشتمل على مقدمة في الفصاحة والبلاغة ، وثلاثة فنون ، الأول عconde
لباحث علم المعانی ، والثاني لمباحث علم البيان ، والثالث لمباحث « علم البیدع »^(٤) ، وبذلك يكون
الخطيب قد خالف السکاکی في تقسيمات البلاغة ، إذ جعل علم البیدع هنا ثالثاً من فنون
البلاغة العربية .

ويرى الاستاذ الدكتور شوقي حسیف « أن القریون بهذا الصنف يتبع بدر
الدين بن حاکم في كتابه « المصباح »^(٥) .

(١) انظر : بحوث وآراء في علم البلاغة للأستاذ أحمد مصطفی المراғي من ٦٢

(٢) انظر : مقدمة ابن خلدون من ٩٩٢

(٣) انظر : مذاہج بلاغیہ د. مطہب من ٢٨٧ ، والبلاغة تطور وتاريخ من ٣٤٢ - وتاريخ علم البلاغة
والتعريف برجالها للأستاذ أحمد مصطفی المراғي من ١٣٦ - والمجاز في اللغة والقرآن الكبير
عبد العليم المطعني

(٤) انظر : التلخیص في علم البلاغة من ٣٦ ، من ٣٧

(٥) انظر : البلاغة تطور وتاريخ من ٣٣٧

بدأ المقدمة بالحديث عن الفصاحة، وعرفها بأنها صفة في المفرد والكلام والمتكلم ، والبلاغة صفة في الكلام والمتكلم فقط ، وهي عند طرقان « أعلى : وهو حد الإعجاز ، وما يقرب منه ، وأسفل وبينهما مراتب كثيرة »^(١)، وهو في ذلك كله يستلزم كلام السكاكي .

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو : ما الذي دعا الخطيب إلى بحث الفصاحة في مقدمة كتابه ، وليس في صلبه مع بقية الفنون البلاغية ، ومعرفت أن البحث في الكلمة المفردة والكلام المركب ، وفصاحة المتكلم لأمر ضروري في دراسة البلاغة جرياً مع كثير من علماء ذلك العصر كأين الأثير الجندي ، وإن الأثير الحلب ، ومحمد بن علي الجرجاني وغيرهم من العلماء الذين درسوا الفصاحة دراسة عميقة واهتماموا بالكلمة اهتماماً كبيراً ، وأن ذلك لا يرى بعض الباحثين لعمل التزويني معنى في جعل الفصاحة مقدمة في عمل فني آداته الكلمة ، ذلك لأنها من مقاصد الفن البياني . لا من مقاصداته^(٢) .

وينتقل التزويني بنا إلى علم المغانى الذى حصره في شافية أبواب ، وهو حصر عقلي ليس له قيمة كبيرة ، غير أنه تناولها بالشرح ، وقدم في ترتيبها وأخر ، وهذه الباحث هي : أحوال الإسناد الخبرى ، وأحوال المستند إليه ، وأحوال المستند ، وأحوال متعلقات الفعل ، والقصص ، والإنشاء ، والفصيل والوصل ، والإيجاز ، والإطناب والمساواة^(٣) .

أما علم البيان فعرقه بقوله : « هو علم يعرف به إبراد المعنى الواحد بطريق مختلفة في وضوح الدلالة عليه »^(٤) ، واستفاد التزويني من الدلالات العقلية في حصر بباحث هذا الفن . وقسمه إلى قسمين : مجاز وكتابة ، ودخل التشبيه فيه ، وقدمه على الاستعارة ، لأن الاستعارة مبنية عليه ، وقدم المجاز على الكتابة ، لتزول معناه من معناها منزلة الجزء ، من الكل ، وهو بذلك قد ضيق بباحث البيان . كما ضيقها السكاكي ، وكان من الممكن إدخال صور أبياتية أخرى ، وتقطيع كل فن من هذه الفنون إلى أنواع كثيرة يحار فيها الدارس ، وأغلبها مقلية لا علاقة لها بالفن البلاغي^(٥) .

إذا عدنا إلى المجاز ، وجدنا التزويني يجارى السكاكي في تقسيمه له إلى نوى واقع في المثبت ، وعقلى أو حكس واقع في الإثبات ، ويرغم مجارة التزويني السكاكي في هذا التقسيم

(١) انظر : التشخيص في علم البلاغة من ٢٠

(٢) انظر : التزويني وشرح التشخيص من ٢٨١

(٣) انظر التشخيص في علم البلاغة من ٣٧ وما يبعدها .

(٤) المصدر نفسه من ٢٢

(٥) انظر : التزويني وشرح التشخيص من ٣٨٧ وما يبعدها

فإنه خالق منهج السكاكي في موضع بحثه ثبته في علم المعانٍ ، وأبيان عن وجهه نظرة من أن تعريف علم المعانٍ ينطبق عليه لا على تعريف علم البيان^(١) .

وتحلخ الخطيب ينساق لرأء الزمخشري ، ويعتمد عليه في تعريفه للمجاز العقلي^(٢) وقد كان موقفاً في هذا الانسياق ، لأن كلام الزمخشري هنا أجدى واتفع من كلام السكاكي . ثم يعود الخطيب فيقسم المجاز العقلي على طرقة السكاكي باعتبار طريقه إلى أربعة أقسام ، واشتهرت أن يكون للمجاز العقلي قرينة لفظية أو معنوية^(٣) .

ثم يدلّف الخطيب ليناقش بعض آراء السكاكي في المجاز العقلي ، وإنكاره له ، وذهابه إلى أنه من باب الاستعارة بالكتابية ، وخالف رأيه وفندته ، ويرجع ما رأه هو من صواب مقارنة مذهبة بكلام عبد القاهر والزمخشري في بعض المباحث ، ويزكّر على أن المجاز العقلي^(٤) كثير في القرآن الكريم ، ويكثر من شواهد منه ، ويحللها بدقة ، وتراء في تحليلاته لصور المجاز العقلي عوائضاً وراء المعانى الثانية ، ويفتقر ذلك في قوله تعالى «يُنْزَعُ آنَهَا إِلَيْهِمَا»^(٥) قال : «نسب التزع الذى هو فعل الله تعالى - إلى إبليس ، لأن سببه أكل الشجرة ، وسبب أكلها وسوسته ومقاسمه إياهم إله لهم من الناصحين» ، ويبعد تأثير الخطيب الواضح بنع الدين بن عبد السلام وإن لم يشرفو إلى ذلك^(٦) .

وعلى أية حال فلا مفر من مواجهة الخطيب ، لكنه أخرج المجاز العقلي من علم البيان ، ووضعه في علم المعانٍ ، غير أنه قد وفق عندما يبحث المجاز اللغوي ضمن مباحث علم البيان ، وسار في دراسته له على منهج موضوعي دقيق ، فعرقه وبين أنواعه ، وقسمه بحسب العلاقة المصححة قسمين . قال : «والمجاز شريان مرسل واستعارة ، لأن العلاقة المصححة إن كانت تشبيه معناه بما هو موضوع له فهو استعارة ، وإلا فهو مرسل»^(٧) . ويرى الأستاذ الدكتور المطعني أن «المجاز اللغوي في الإيضاح مدون ومدروس على نمط فريد ودقيق لم يسبق لها مثله قبله أن يبلغ شأنه في حسن الفرض وحكم التقسيم وتحرير الأصول والفرع ، وما اندمج تحته من حلائق واراء»^(٨) .

(١) الإيضاح في علم البلاغة ج ١ من ١٠٥

(٢) انظر : الإيضاح للتزبيدي من ١٠١

(٣) المصدر نفسه من ٩٨

(٤) سورة الاهرات آية ٢٧

(٥) الإيضاح من ١٠٤

(٦) انظر : الإشارة إلى الإيجاز العز بن عبد السلام من «والعز حياته وكتابه الإشارة من

(٧) انظر : الكتبين في علم البلاغة من ٢٩٥ ، والإيضاح للتزبيدي من ٣٩٦

(٨) انظر : المجاز في اللغة والقرآن الكريم د. عبد العليم المطعني ج ٢ من ٢٥٤

ثم أُلْفَى الخطيب وجده شطر المجاز المرسل - أحد ضروري المجاز الفوى - فعرفه ، ومثل الكثير من علاقاته بشوادر شعرية ، وأيات قرانية كثيرة ، ذكرها من غير تحليل في تلخيصه ، وشرحها باستفاضة في الإيضاح^(١).

ويعود فرانس من الحديث عن المجاز المرسل وبعلاقاته المتعددة تناول الاستعارة ، فرضها عرضاً محكماً مستقيداً من آراء عبد القاهر والزمخشري والسكاكى ، ويقف وقوفات نقدية صائبة في المقارنة بين الاستعارة والتشبّه البليغ ، وتقسيمه للاستعارة يقوم على اعتبارات كثيرة يغلب فيها الجانب العقلى والمنطق النهنى على الترقى الفنى ، فهو يقسمها باعتبار طرفيها وباعتبار الجامع ، وباعتبار ثلاثة إلى غير ذلك من التسميات التي تكىء الذهن وتتعجب^(٢).

ويعد أن يستوقف القرزويي الكلام عن الاستعارة يعود إلى القسم الثاني من المجاز (المجاز المركب) فيعرفه بقوله : « هو اللقط المستعمل فيما شبه بمعناه الأصلى تشبّه التمثيل للمبالغة »^(٣) ومن نافقة القول أن تقول : إن الخطيب في هذا النوع حذر عبد القاهر ، وما يجدر ذكره أن هذا النوع سماه الخطيب التمثيل على سبيل الاستعارة ، والذى عرف فيما بعد باسم « الاستعارة التمثيلية »^(٤) ، وقد اقترب القرزويي من هذا التعريف عندما قال « وقد يسمى التمثيل حلقاً ومتى فتش استعماله كذلك سمس مثلاً »^(٥).

ومن الحقيقة والمجاز ينتقل الخطيب الكلام عن البحث الثالث والأخير من مباحث علم البيان وهو « الكتابة » التي عرفها بقوله : « الكتابة لفظ أريد به لازم معناه مع جوان إرادة معناه حينئذ »^(٦) ، ثم فرق بينها وبين المجاز من هذا التعريف ، أى من جهة إرادة المعنى الحقيقي مع جوان إرادة لازمه ، فإن المجاز ينافي ذلك ، لأن القراءة المانعة من إرادة المعنى الحقيقي جزء من مفهومه ، والكتابية في نظر القرزويي تتقارب إلى تعريض وتلويح ، ودمى ، وإيماء وإشارة ، وهو في ذلك لم يخرج عما كتبه السكاكي .

هذا والكتابية جاءت في التلخيص مقتضبة جائزة ، كان تصفيتها من الشواهد قليلاً ، أما دراسته لها في الإيضاح فقد حفلت فيه بدراسة موسعة وواافية وكثير من الشواهد الشعرية ، والأيات القرانية ، فضلاً عن عرض بعض آراء الزمخشري والجرجاني والسكاكى ، ولم تخل كذلك من الملاحظات الدقيقة .

(١) انظر : التلخيص في علم البلاغة ص ٢٦٦ : ص ٣٠٠ ، والإيضاح ص ٣٩٩ ، ص ٤٠٦

(٢) انظر : التلخيص ص ٢٢ ، والإيضاح من ص ٤١٨ : ص ٤٢

(٣) انظر : الإيضاح ص ٤٧٨ (٤) في البلاغة العربية د . عبد العزيز عتيق ص ٥٣

(٥) انظر : الإيضاح ص ٤٥٦/٢ (٦) المصدر نفسه ٤٥٦/٢

وتقسم الخطيب الكتابة بحسب المطلوب إلى ثلاثة أقسام : الأول : المطلوب بها موصوف ، والثاني : المطلوب بها صفة . والثالث : المطلوب بها نسبة . ثم قسم كل نوع إلى قريب ويعيد وقد ترسم في هذا التقسيم خطا السكاكي أيضاً^(١)

ولهذا السبب صرخ بعض الباحثين أنه ليس في بحث القربيين ما ينفع في دراسة الكتابة ، لأنه لم يزد في دراسته عما قاله السكاكي ، ولم يقدم جديداً يستحق الذكر والتسبييل^(٢) ، ولا نسلم لأولئك الباحثين - رغم إجلالنا لهم - بالتأليل من أهمية دراسة القربيين في الكتابة ، وكيف تقبل ذلك ولا زالت أقواله عن الكتابة تتعدد في قاعات الدرس البلاغي حتى وقتنا الحاضر^(٣) .

ثم أنهى الخطيب كلامه عن مباحث علم البيان بفصل عن بلاغة المجاز والكتابية والحقيقة والاستعارة ، مقرراً أن البلاء أجمعوا على أن المجاز والكتابية أبلغ من الحقيقة ، والتصريح ، لأن الانتقال منها من اللزوم إلى اللزام كمعنى الشيء بيته ، وأن الاستعارة أبلغ من التصريح لأنها نوع من المجاز^(٤) .

وننتقل مع القربيين إلى علم البديع الذي عرقه بقوله : « هو علم يعرف به وجوه تحسین الكلام بعد رعاية المطابقة » ووضوح الدلالة^(٥) ، وقسسه إلى ضربين : معنوی ولظی تكلم على سبعة وتلذیث فنا من هذین الضربین ، غير أن بعض الباحثین لم یرض عن هذی التقسيم ودعوا إلى أن تبحث موضوعات البديع كما تبحث فنون البلاغة الأخرى . على أن تهمل الأنواع التي ليس لها تأثير في التصريح ، وأن يعاد النظر في فنون البديع التي ذكرها القربي وغيروه من المتأخرین ، فيؤخذ منها ما له قيمة ، ويترك ما كان لعياناً وإلحاداً^(٦) .

وابا ما كان الأمر فقد كان القربيين موافقاً إلى حد كبير في بحث البديع ، فأندخل بعض فنونه في بعض ، وبذلك قلل من مصطلحاته ، وأنواعه التي أسرف المتأخرین في تعريفها ، وكانت تعريفاته فيه أكثر وضوحاً إذا ما قورنت بتعريفات السكاكي العقدة ، والملتبة^(٧) .

(١) المصدر نفسه من ٤٥٧ : من ٤٦٢

(٢) انظر : القربي وشرح الطفیل والأسلوب الكتابی في نشأته وتطوره د . محمود شیخین من ٧٧

(٣) انظر : الكتابة أساسياً ومواقبها في الشعر الجاهلي من ٧٤

(٤) انظر : الإيضاح ج ١ من ٤٧٨

(٥) المصدر نفسه ج ٢ من ٤٧٧

(٦) انظر : مقدمة كتاب بديع القرآن د . حقیق شرف ، ومتاجع بلاغية من ٢٨٩ .

(٧) انظر : المباحث البلاغية في شعر قضية الإيمان ١ . د . أحمد العمري من ٣٥ .

والجديد في الأمر أن القزويني جعل «البيبع» علمًا مستقلًا عن المعانى والبيان ، وسار العلماء من بعده على خطاه حتى الوقت الحاضر .

أما خاتمة الكتاب فهو ضرورة ، وشخص منها بالذكر السرقات وحسن الابتداء ، والتخلص ، والانتهاء ، والتي يبدو تأثيره الواضح فيه بين الآثار ، ولا يمكن أن نعتبر هذا الفصل خاتمة للبلاغة ، أو تابعاً لأحد فنونها الثلاثة وإنما هو فن له أهميته في الدراسات البلاغية ، ويؤثر تأثيراً كبيراً في الأحكام النقدية ، وينير السبيل أمام الدارسين للحكم على أعمال الأدباء والفنانين ، ولا ندري هل قصد القزويني أن يكون هذا البحث خاتمة لكتاب كله فيكون خارجاً عن الفنون الثلاثة كالمقدمة ، أم أنه خاتمة لفن الثالث - كما يبدو ذلك من كلامه في الإيضاح (١) .

ومهما يكن من شئ ، فإننا لا نوافقه في كون السرقات خاتمة للبيبع ، أو حتى للبلاغة كل لأنها فن مستقل بذاته له أثره وقيمتها في الدراسات النقدية والبلاغية .

هذه هي مباحثات علوم البلاغة الثلاثة كما وردت في التلخيص ، ولكنه لم يكن مجدياً عظيم الفائدة ، لأن كان مختصرأ غير واف بالغرض ، قليل الأسلحة والشروح ، ولعل القزويني أحسن بذلك ، وأنه لم يكن راضياً كل الرضا عن الجهد الذي بذله فيه ، لهذا عزم على شرحه وبسطه ، ليكون أفعى وأجدى وأكثر فائدة ، فوضع له شرحاً سماه «الإيضاح لختصار تلخيص المفتاح» وهو أول شرح للتلخيص ، جاء أقوى شرحاً ، وأحسن أسلوباً ، وأكثر أمثلة من كتاب «المفتاح» ولهذا اشتهر وذاع صيته ، وعكف عليه الناس يتدارسونه ، ويعملون عليه ، حتى كاد مفتاح العلوم يكون نسياً منسياً (٢) .

والواقع أن القاريء في الإيضاح يلمس فيه روحًا أدبية وشواهد ثقافية تدررت في التلخيص ، ويشم القاريء منه روانع عبد القاهر ويدركها تتساب على قلمه ، ولهذا السبب عده صاحب «بنية الإيضاح» منتمياً إلى مدرسة عبد القاهر (٣) .

والمصحح أن الإيضاح ينتهي في بعض مسائله لعبد القاهر ، وفي بعضها الآخر ينتهي إلى منهج السكاكي ، والذي يظهر لنا بوضوح أن منهج الإيضاح يميل إلى الوسطية لأنه

(١) انظر : القزويني وشرح التلخيص من ١٦٩ .

(٢) انظر : البلقة عند السكاكي د. مطلوب من ٣٧٤ وما يليها .

(٣) انظر : بنية الإيضاح للشيخ عبد المعلم الصعيدي من ٤ .

يجمع بين متهجين ، وبيدو تأثره الواضح أيضاً بابن الأثير، وابن أبي الإصبع، وابن عبد السلام وإن لم يشر الخطيب إلى ذلك .

ولقد كان الخطيب في إيضاحه أقوى شخصية منه في التشخيص ، وأميل إلى الطريقة الأدبية في درس البلاغة ، بحكم تأثير بيته المصرية بالتحديد على حد قول المرحوم الشیخ أمین الغولی^(۱) ، وعلى كل فالقریوینی كان مدیناً بكتابه للقسم الثالث من كتاب مفتاح العلوم ، ولهذا فقد عد أحد الباحثين كتاب « الإیضاح » مع « التشخیص » للقریوینی من أهم معلمات التأثیر في علوم البلاغة ، كما يعدها مع مفتاح العلوم السکاکی أعم ما ألف في البلاغة التقليدية على الإطلاق^(۲) .

وإنصافاً للحق نقول : إن منهج القریوینی أسلم من منهج السکاکی ، لأنه حاول أن يجمع الأشياء والظواهر ، ويتسق الموضوعات ، ويفت في أكثر المسائل موقف الناقد البصیر . ويتجه ندھ في كثير من الآيات إلى أسلوب الموارنة ، وقد صدق أحد الباحثين عندما قال : « كان القریوینی في نظره للصورة البلاغية أقرب إلى النقد الأدبي من السکاکی »^(۳) .

غير أن القریوینی جنح كثيراً عن البلاغة إلى الفلسفة ، ويسيرط عليه الترعة الجدلية ، واعتمد على العقل في علاج مسائل البلاغة ، من غير أن يسمح للنفس بالتدخل المباشر لتعابير العاطفة مع العقل الأدبي في صورة فنية تهز العواطف ، وتحرك الوجدان ، وتنعم التفوق وتربية^(۴) .

ولا يذكر أحد أن القریوینی أحسن أن النفس تتاثر وتحركها الهواجس أو الحواس ، واعترف بدرء الإحساس من تحريك النفس ، وتمكن المعنى ما ليس لغيره ، قال وهو يتحدث عن أسباب جمال التشبيه والتتشيل : « ومن الدليل على أن الإحساس من التحرير للنفس ، وتمكن المعنى ما ليس لغيره : أنك إذا كنت أنت وصاحب لك يسعى في أمر ، على طرف ثور ، وأنت تزيد أن تقرر له : أنه لا يحصل من سعيه على طائل ، فأشغلت يدك في الماء ، ثم قلت له : انتظر ، هل حصل في كفى من الماء شيئاً ؟ فكذلك أنت في أمرك ، كان لذلك ضرب من التأثير في النفس وتمكن المعنى في القلب ، زائد على القول المجرد »^(۵) .

(۱) انظر : مناجع تحدید فی التحو وبلاغة وتأفسیر من ۲۴۱

(۲) انظر : تأثیر فی تاريخ البلاغة من ۷۵

(۳) انظر : الصورة البلاغية عند السکاکی من ۲۰۲

(۴) انظر : مناجع بلاطية من ۳۶۷ وملخص الاستمارة فی بحوث القریوین والنقاد والبلاغيين د . الصالوی من ۲۰۶

(۵) انظر : الإیضاح للقریوینی من ۳۲۲

والواضح من كلام القرىش أنه لم يوضح هذا التأثير في النفس ، وتمكنه في القلب لانشغاله - عن حد قول د . مطلوب - بالبحث في التقسيم والتحديد^(١).

وكما أقبل القرىش على منتاح العلوم تلخيصاً وتوضيحاً ، أقبل كثيرون من بعده ، شرقاً وغرباً - على التلخيص تلخيصاً وشرحها ونظامها ، وكان عقول هذه الأمة جفت عن نتاج جديد في المباحث البلاغية التيوصلت إلى ذروة النضج والاكتمال عند هذا الكتاب فوق اللاحقون جهودهم عليه .

ولهذا الاهتمام من اللاحقين اعتبرت الأستاذة الدكتورة سمير القراء القرىش علماً شخصياً ، لأنه كان آخر من أضاف إلى هذا العلم ، فظل طوال قرون وقرن عددة الدرس البلاجي لابناء اللغة العربية ، وظلوا منذ زمانه حتى أواخر القرن التاسع عشر يعدين في تلخيصه وبيانه شرحاً وتلخيصاً وتعليقـاً^(٢).

والغريب أنه لم يحظ أحد من تقدمه ولا من لحق به بهذا الاهتمام ، فكان مركز الدائرة التي دار حولها كل من جاء بعده ، واتخذوا من مباحثه البيانية نقطة بدء وانطلاق إلى غایاتهم المرجوهـ ، ومن أهم هؤلاء الشرحـ بهاـ الدين السبكي .

(١) انظر : مناجي بلاغية من ٤٢١

(٢) انظر : مقدمة كتاب القرىش وشرح التلخيص من ١٢ ط . مكتبة الراشدة بغداد سنة ١٩٧٧

كتاب «عروض الأفراح» للسيكي (ت ٧٧٧ هـ)

لأبي حامد بهاء الدين أحمد بن على بن عبد الكافي بن على بن تمام السيكي^(١)، ويعتبر كتابه «عروض الأفراح» من محمد كتب البلاغة المصرية التي تصور انعكاس البلاغة المشرقية في مصر، وأثرها في دراسات المصريين للبيان^(٢).

وتروج دوافع تأليف هذا الكتاب إلى شفف مؤلفه بقى البلاغة، واحتقاده به، ثم إلى إعجابه بتلخيص القزويني أثما إعجاب، لأنه في نظره «أتفع كتاب في هذا العلم مُستَفْتَ»، واجمع منتصر فيه على مقدار حجمه أَلْفَ^(٣)، بالإضافة إلى عدم إعجابه بشروح السابقين للتلخيص.

أما الفرض الذي توخاه السيكي من شرحه، فهو نقل الدرس البلاغي من التقسيمات العقلية التي لحقته في بلاد المشرق على أيدي رجال فارس، إلى الطبع والنون الذين قطروا عليهم المصريون وأن يكون كتابه واسطة بين مفتاح المشرق، ومحباص الغرب، خلياً من العصبية، لأنه يعتبر مصر «بقعة من عند الله مباركة لا شرقية ولا غربية»^(٤) أو يعنّ أستاذنا الدكتور وجاء عبد هذا الاتجاه يقوله: «وما من شك في أنه للبيبة المكانية أثرها في ثقافة الأفراح، وتكونهم الآلين، وسماتهم الأسلوبية... وقد يكون البيبة نفسها أثر في تمايز الأداء الفني»^(٥).

أما مصادره فقد ذكر في مقدمته أنه استعان بالكثير من تصانيف العلماء قبله وضمن كتابه خلاصة مائة تصنيف في علوم البلاغة، وعلوم القرآن، والفقه، والحديث، واللهجة وغيرها يقول: «واعلم أنتي لم أضع هذا الشرح حتى استعنت عليه بذنو من ثمانية تصنيف، وأنه يتضمن الخلاصة من مائة تصنيف في هذا العلم منها ما وقفت عليه، ومنها ما وقفت على كلام من وقف عليه»^(٦).

وأهم هذه المصادر: البديع لابن المعزن، ودلائل الإعجاز وأسرار البلاغة لعبد القاهر، والنكت في إعجاز القرآن للراماني، والصناعتين العسكري، والبديع لابن منقذ، والمعدة

(١) انظر ترجمة في شترات الذهب ٢٢٧/١ ، وبيبة الدعاء ٢٤٢/١ ، وحسن المحاضرة ٤٣٥/١ والبرد الكاملة ٢٢١/١ / النجم الزاهر ١٢١/١١ ، وبطاقات الشافية ٨٩/١.

(٢) (٣) انظر: تاريخ النقد العربي للأستاذ الدكتور زغلول سلام من ٣٦١

(٤) انظر: عروض الأفراح ٨/١ . واعتقد أن هذه معنى من السيكي لم تلحظها من التطبيق المبني.

(٥) انظر: لسلة البلاغة لاستاذنا الدكتور وجاء عبد من ١٤ ط منشأة المعارف سنة ١٩٧٩ م ٢٩ ، ٢٨/١

لابن رشيق ، والمعيار للزنجانى ، والمفتاح للسكاكى ونهاية الإيجاز للراوى وتفسيره الكبير ، والمثل المسائر لابن الأثير ، وجواهر الكنز لنعم الدين بن الأثير ، وروضة الفصاحة للراوى ، ويديع القرآن لابن أبي الصبىع ، وتحريره ، والتبيان للطيبى ، والتبيان لابن الزملكانى ويensus شروح التخيم ، وكتب التفسير كالكتشاف والنسفى ، وابن النمير ، والتفسير الكبير .

وهذه المصادر تمثل المذاهب المختلفة ، والتيارات المتباينة ، فمنها ما يميل إلى تحكيم النزق ومنها ما ي倾向 إلى القواعد ، والأخذ بالصول المطلق ، وعلم الكلام ، ومن هنا جمع كتاب السبكى بين هذين الاتيارات ، ومزج بين البحوث الفلسفية والأدبية الذوقية ، والروح الفنية المصادقة وبين قواعد الأصول ، والمقاصد المنطقية والكلامية^(١) .

ونلاحظ على مصادره أيضاً أن معظمها ينتهي إلى القرنين السابع والثامن الهجريين ، وهذا يستهل علينا عمل مقارنات تحليلية خاصة بينه وبين علماء عصره .

أما طريقة السبكى في الشرح فهي طريقة تختلف عن غيره من الشرائح ، فقد درج علىأخذ عبارة التخيم شارحاً بعضها شرحاً لنفياً ، مما يدل على ربطه على علوم البلاغة بعلوم اللغة ثم يتكلم عن الموضوع ذاكراً الأوجه المختلفة في المسألة ، مناقشاً ما وسعه النقاش ، ويختتم قوله بعبارة ترجيحية كان يقول : فالراجح كذا ... وفيما قاله نظر .. وغير ذلك ، وكثيراً ما يحقق القول بين القزويني والسكاكى ، أو بين القزويني وغيره من البلاغيين ، وأنه في ذلك عقلية منطقية فذة ، ومحاجج علمية صارمة ودليل ذلك قوله : « وأعلم أنت مزجت هذا العلم بقواعد الأصول العربية^(٢) ، وفي هذا دالة على ربطه بين البلاغة وقواعد اللغة وال نحو يمزج بينهما ، وكان يستعين كذلك بعلم أصول الفقه في تأييد بعض آرائه ، لأنه يرى أن علمي أصول الفقه والمعنى في غاية التداخل^(٣) .

ولم يخرج السبكى في أغلب تفسيراته البلاغية عن ركب القزوينى ، وغيره من شراح التخيم ، فهو يقسم البلاغة إلى معانى وبين ويدعى ، وبهذا يكون السبكى قد اتفق مع السكاكي في تفسيراته التي تتفق مع القزوينى ، وما زاده السبكى على القزوينى كان في علم البديع ، وهو إثنان وعشرون نوعاً ، وهذه الزيادة تعييرها زيادة على السكاكي – كذلك – بطريق غير مباشر .

(١) انظر : مذاهب بلاغية . د. مطلوب من ٢٩٦

(٢) انظر : عروس الأدراك ١/٧٧

(٣) انظر : المرجع السابق ١/٤٥

وهي أنواع كثيرة منها : الترقيف ، والتسبيط ، والتغایر ، والاستدراك ، والتفیق ، والتولید
والتوارد ، والإلقاء ، والتنظیر ، والتسليم ، والافتتان ، والتمیم والتكرار ، والاعتراض ، والتخليب
والتوسيع والتطویر ، والتنبیل إلخ .

وأول ما تلاحظه على إضافات السبکي في علم البدیع ، أن بعضها مأخوذة عن ابن أبي
الإصبع ، وبعضها الآخر يرجع إلى علم المعانی ، وبعضها إلى علم البيان ، وهذا يعني أن
السبکي لم يستطع أن يفصل بين علم البلاغة في دراسته التطبیقیة للأمثلة ، والظاهر أنه
اعتبرها وحدة واحدة ، وبهذا تكون البلاغة في رأيه هنا لا علماً^(١) وفي هذا وهذه ما يمكن
ليمیزه عن غيره من الشرائع والملخصین .

وأضاف السبکي كذلك في باب القصر أنواعاً أخرى على ما ذكره صاحب الإیضاح منها:
القصر بـلا ، وبـإنما ، والقصر بالتقديم^(٢) وذكر في الإیجاز بالحذف أقساماً أهللها الفرویین^(٣)
والظاهر أنه في هذا البحث متاثر بـعـز الدين بن عبد السلام ، والغريب أنه لم يشر إليه شمن
مصادره التي اعتمد عليها^(٤) .

ويرغم ما أضافه السبکي إلى المصنف ، فقد كنا ننتظر منه ، وهو الذي لم تعجبه شروح
الملخصین ، ونذهب تقسیم لاستكمالها - أن يصلح من شأنها ، ولكنـه لم يفعل ، بالرغم من دعوه
العریضـة في تحکیم النون ، وربطـه بـأبنـاء بيـتـه المـصرـيـة يقول : « وأما أهل بلادـنا فـهم مستـقـدون
عنـ ذـكـرـ بـماـ طـبـعـهـ اللـهـ تـعـالـىـ - عـلـيـهـ مـنـ النـونـ السـلـيمـ ، وـالـفـهـمـ الـسـتـقـيمـ ، وـالـأـنـهـانـ الـتـيـ هـيـ
أـرـقـ مـنـ النـسـيمـ ، وـالـطـفـ مـنـ نـاءـ الـحـيـاـ فـيـ الـحـيـاـ الـرـسـيمـ »^(٥) .

وـهـاـ نـحنـ تـحـاـوـلـ أـنـ تـنـتـيـنـ صـدـقـ هـذـهـ الدـعـوـيـ مـنـ خـلـلـ عـرـضـنـاـ لـقـوـنـ الـبـلـاغـةـ الـخـلـثـةـ
بـأـدـبـنـ بـلـمـ الـبـيـانـ الـذـيـ قـسـمـ مـذـنـ الـبـدـایـةـ الـحـدـیـثـ فـیـ إـلـىـ تـشـبـیـهـ ، وـاسـتـعـارـةـ ، وـکـتـابـةـ ، وـمـافـقـاـ
فـیـ ذـكـرـ الـفـرـوـیـنـ ، مـخـالـفـاـ لـسـکـاـکـنـ الـذـيـ جـعـلـ حـدـیـثـ فـیـ الـبـدـایـةـ مـنـ الـمـجـازـ وـالـکـتـابـةـ ، وـيـعـنـیـ

(١) انظر : فـنـ القـوـلـ الشـیـخـ أـمـینـ الـخـوـلـیـ مـنـ ١٨٦ـ مـ ، دـارـ الـفـکـرـ الـعـربـیـ /ـ الـقـاهـرـةـ سـنـةـ ١٩٤٧ـ مـ

(٢) انظر : عـرـوسـ الـأـفـرـاقـ السـبـکـیـ جـ ٢ /ـ ١٨٩ـ ، مـ ٢٠٢ـ

(٣) ومنـهاـ تـشـبـیـهـ الـحـذـفـ إـلـىـ قـسـمـينـ : جـزـءـ ، كـلمـةـ ، مـثـلـ : حـذـفـ التـنـ فيـ قـوـلـهـ « لـمـ يـكـ »ـ « الـبـنـيـهـ »ـ ١/ـ

وـذـكـرـ التـخـلـیـفـ ، وـقـوـلـهـ تـعـالـیـ « وـالـلـلـیـ إـذـ يـسـرـ »ـ الـفـجـرـ /ـ ٤ـ ، وـذـكـرـ التـخـلـیـفـ وـرمـایـةـ الـنـاسـةـ

(٤) حـذـفـ كـلمـةـ أـوـ أـكـثـرـ إـمـاـ اـسـمـ أـوـ فـعـلـ أـوـ حـرـفـ ، وـالـأـسـمـ هـيـ حـذـفـ الـبـنـيـهـ وـحـذـفـ الـفـبـرـ ،

وـحـذـفـ الـمـشـافـ وـالـمـشـافـ ، وـالـلـلـاـثـ ، انـظـرـ : عـرـوسـ الـأـفـرـاقـ ٢٠٢/ـ ٣ـ

(٥) انـظـرـ : رسـالـتـاـ الـمـاجـسـتـرـ ، العـزـ بـنـ عـبـدـ الـسـلـامـ وـكتـابـهـ إـشـارـةـ إـلـىـ الـإـیـجازـ : مـ

*) انـظـرـ : عـرـوسـ الـأـفـرـاقـ ٤/ـ ٩ـ

بالمجاز الاستعارة ، وهي فرع من فروع التشبيه ، لذلك فإن السكاكي لم يتحدث عن التشبيه إلا عند التطبيق ، بينما أقرجه القزويني والسبكي في النظرية والتطبيق .

ويعتبر السبكي التشبيه من قبيل الحقيقة إذا صرخ فيه بالاداء ، أما إذا حنفته الآدلة فهو من قبيل المجاز بالمعنى^(١) ، وهو في ذلك يخالف الرمخشري والسكاكي والقزويني إذ يرون أنه تشبيهاً لا مجازاً . والسبكي رأيه في التشبيه البليغ ، مجزئاً حمله على التشبيه الاستطلاхи ، وحمله على الاستعارة مرجحاً العمل على الاستعارة ، وناقش المسألة نقاشاً مطولاً^(٢) .

والصحيح أن القضية الخلافية محسومة بما ذكره ابن الأثير في المثل السائر^(٣) . والفرق بين الاستعارة والتشبيه البليغ هو حذف المشبه في الاستعارة ، وبقاوته في التشبيه البليغ ، وما دام هناك تشبيه فلا مجال إذن للمجاز ، لأن المجاز انتقال الدلالة من لفظ إلى لفظ ، ولا وجه هنا ، في حدود فهمنا – لكلام السبكي .

والسبكي زيادات على القزويني في التشبيه منها ما ذكره من تعداد صيغ التشبيه^(٤) ولم يعلم ألم ما حرره السبكي في هذا الباب بحث في التفاوت بين الأدوات ، فهو يرى أن بينهما تفاوتاً في المعنى ، وليس معناها واحداً ، وذلك في نظره – لأن « البيانيين لم يحرروا معنى هذه الأدوات » ، فظاهر كلامهم أن معناها واحد ، وليس كذلك^(٥) .

ثم تكلم السبكي عن المجاز ، فنقسمه إلى مفرد ومركب ، والمفرد إلى مجاز مرسل ، واستعارة ولم يرتفع تعريف القزويني للمجاز المرسل ، ولم يكتف كذلك بما أوردته من علاقات للمجاز المرسل^(٦) وإنما استدرك عليه السبكي علاقات أخرى منها : إطلاق اسم المزوم على اللازم ، وعكسه ، وإطلاق المطلق على المقيد وعكسه ، وإطلاق العام وإرادة الخاص وعكسه ، وأشار إلى أن علاقات المجاز المرسل أكثر من ثلاثة علاقة ، ويشبه أحد الباحثين هذه الكثرة الوافية من العلاقات عند السبكي بما عند ابن القيم والمغربيين ، وتخالف هذا الرأى ، لأن

(١) انظر : عروس الأقوال ٢٩٠/٢

(٢) انظر : المصدر السابق ٢٩٨/٣

(٣) انظر : المثل السائر جـ من

(٤) ومنها : الكاف ، وكأن ، ومثل ، وبمثل ، وتشبيه ، وبشبه ، وبضرب ، وبشكل ، وبمسار ، وبعدل ، وبديل

وإذ ، وبصتو ، وما كان في معناها . انظر : عروس الأقوال ٢٩٢/٣

(٥) لأن الكاف ، وكأن ، ومثل : التشبيه في أي شئ يمكن لا تختفي بنوع دون آخر ، وبحد قوله في كل

آية . انظر السابق ٣٣٧/٣

(٦) وبعد ما حدث القزويني تسع علاقات . انظر : الإيساخ من ٣٩٧.

واوضح أنه شبيه بما عند ابن عبد السلام بصفة خاصة ، والاصوليين بصفة عامة ، لأن ابن القيم والمغريين ومن تبعهم أخذوا عن ابن عبد السلام^(١).

والذى يحسب السبكي في هذا البحث ماقشت للغزويني في المجاز العقلى فيما مثل به وهو قوله تعالى «عِيشَةُ رَاضِيَةٍ»^(٢) من قبيل جعل المقول بمعنى فاعلاً لفظاً ...^(٣).

ولخص السبكي أقوال العلماء في المسألة في نحو قوله : أنت الربيع البقل : وذكر في ذلك أربعة أقوال :

الأول : أن المجاز في «أنت» ، وهو رأى ابن الحاجب ، والثاني : أن المجاز في «الربيع» وهو رأى السكاكى ، والثالث : أن المجاز في الإسناد ، وهو رأى عبد القاهر والصنف . والأربع : أنه تمثيل ، ولا مجاز فيه لا في الإسناد ولا في الإفراد . بل هو كلام أوردته ليتصور معناه فينتقل الفهم منه إلى إنبات الله تعالى ، وهو اختيار الرازى^(٤).

والمتفقون للأقوال التي عدّها السبكي يرى رأى الرازى أتم وأوفى في المسألة ، لأن الإنبات مجاز والربيع مجاز . فالربيع قد يكون الزمان . وقد يكون المطر . وهو مجاز ما يقول إليه ، أو ما يكنى نتيجة له ، وهو مجاز إسناد - أيضاً - لأنه أنسد الإنبات للربيع والمجازان حققاً تمثيل المراد ، وذلك كقول الشاعر :

إذا سقطت النساء بأرض قوم
رعنائاه وإن كانوا غصباً^(٥)

أما الكناية فرأى السبكي فيها أنها حقيقة متابعاً في ذلك عبد القاهر ، والسكاكى ، ومخالفاً للغزويني الذي جعلها خارجة عن الحقيقة والمجاز يقول عنها : « إنها ثارة يراد بها المعنى الحقيقي ليدل بها على المعنى المجازى ف تكون حقيقة ، وثارة يراد بها المعنى المجازى ، ليدل به على المعنى الحقيقي لتكون مجازاً^(٦) وهو في ذلك يستند من أصحاب علم الأصول ، وهو استناد أضاف إلى تحقيقات السكاكى المنطقية والفلسفية تحقيقات جديدة وكثيرة^(٧).

(١) انظر : رسالتي في الماجستير من ٢٢ ، والفوائد المشوق لمعلوم القرآن لابن القيم من ١١٤ السبكي والدرس البلاطى في مصر من ٢١.

(٢) سورة الحمزة آية : ٢١.

(٣) انظر : عروس الأنوار ٩ / ٢٢٥ ، وما يليها .

(٤) انظر : شرح مختصر ابن الحاجب من شمس الدين محمود بن عبد الرحمن الأصفهانى - تحقيق د . محمد مظہر - ط جامعة أم القرى - المملكة العربية السعودية سنة ١٩٨٦ ، بمنفحة الطور من ٣٠٠ ونهاية الإيجاز من ٣٧٧ . وللائل الإعجاز لميد القاهر .

(٥) البيت لماعية ابن مالك المعروفة بـ « معهد المكان » .

ثم يتعرض للنقاش بين أنواع الكتابة ، من تعریض وتثویل ، ورمن ولیما ، وإشارة ، وبرى
أنها مقلوته في القراءة والضعف^(۱)

أما الاستعارة فيدور معظم حديثه فيها حول مناقشات الفزويسي ، وغيره من البلاغيين في
التمثيل لها وتقسيمها ، غير أنه يرى أن التمثيل على سبيل الاستعارة أبلغ من التمثيل على غير
سبيل الاستعارة ، وأن الاستعارة المكتبة عنده أبلغ من التصريحية ، لأنها كالجامعة بين
استعارة وكتابية ، وتنقاض الدرجة في بلاغة الاستعارة حسب ما فيها من تجريد أو ترشيح أو
إطلاق^(۲) .

ويرى بعض الباحثين أن كلام السبكي في البيان واضح الدلالة وأنه ضحل من الناحية
الجمالية ، والفنية ، موغل في التجريد العقلي ، والحلقة التنشيطية التحديدية التي لا ترتبط
كثيراً بجماليات النص ، والتي توارى فيها البلاغة تحت ركام من المسائل القراءية التي لا
تتلاءم معها^(۳) .

ومن جانبنا لا نقر بالباحث فيما ذهب إليه إقراراً كاملاً ، ولا - كذلك - الذين انحازوا
للسبيكي انحيازاً كاملاً ، فالسبكي احترم الفن والخلق واهتم به ، كما اهتم بالقواعد ، ويعتبره
مع غيره من شرائح التلخيس تجده لا يقل أهمية عن صاحب الإيضاح إن لم يتفق ، « وقد
استطاع نوافه الآباء في دراسة علم البيان من الصوفية وشفاقائهم في فهم النص ، إذ المعرف
عندهم نوعاً تأثر لحساسيته الرهقة ، وشعوره الملآن^(۴) .

ثم يتحدث السبكي عن الفصاحة و يجعلها في بداية الكتاب ، كما فعل الفزويسي ، مخالفاً
السكاكى ، الذى يطوى حديثه عنها ضمن علم البيان ، ويشتهر السبكي لفصاحة شروعها

(۱) عروس الألواح ۲۸۱/۱

(۲) والراد بالبلاغة الاستعارة : إعادة زيادة التأكيد والمبالغة وكمال التشبيه ، لا زيادة في المعنى .
انظر : الإنفاق في علم القرآن السيوطي ۱۵۷/۳ . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - دار الجيل
الاستعارة الترشيحية أبلغ من الجردة ، والمطلقة والتخيالية أبلغ من التصريحية انظر : عروس
الألواح ۷۷:۶۹/۱ .

(۳) انظر : الصالحة المتباينة بين البلاغيين والأباء في مصر في المصرين الآبويين والملوك الأول د .
محمد عبد القادر عبد الناصر من ۴۰ - رسالة مكتوّرة - منظورة - مركز الشرق الأوسط - جامعة
عين شمس رقم ۸۱۹ م . ج .

(۴) انظر : المصورة البلاغية عند السبكي د . محمد بركات أبو علي من ۱۶۰ ط دار الفكر / الآرين
سنة ۱۹۸۷ ، والسبكي والدرس البلاغي في مصر من ۲۱۱ ، من ۲۷۷ .

ثلاثة هي : كثرة الاستعمال لدى فصحاء العرب ، وعدم ندرة الطبع عند سماع الكلمة ، ثم موقعها في السياق ، والاتمامها مع جاراتها . وحديثه عن الفصاحة ليس فيه جديد يذكر ، باستثناء ما عزّز به رأيه من الناطق القرآن الكريم ، الذي بين أن فيه كلمات تتقارب مخارج حروفها ويعز ذلك فهي فصيحة كلغة : « قَسْبَقَةُ » و « أَنْهَدَةُ » و « الْيَهْنَ » (١) .

وليس تناول العروض الناشئة عن اتحاد المخارج يجعل الكلمة غير فصيحة كلغة « مُخْجَعُ » ولا يعني هذا أن نعمم الحكم ، لأن قد يكرر المحرف في الكلمة وهي فصيحة ، كقوله تعالى « وَطَعَنَ أَمَّيْ مِنْ تَمَكَّنَ » (٢) ، هنا فضلًا عن توالي الميمات في الكلمة ، ويعز ذلك لم تنقل على اللسان . (٣) .

ويمضي المؤلف فيتحدث عن قضية الفصاحة ، وبين أن كثرة استعمال الكلمة دليل فصاحتها إذا لم يكن لها مرادف ، ولا يرتفض أن يكون الاستعمال دليل الفصاحة ، إذا شركتها مرادفة لها ، بل الفصاحة حينئذ يجب أن تكون بالوازنة بينهما (٤) .

والواضح أن هذا الاعتراض ليس من عند السبكي ، وإنما هو متقول عن ابن الأثير (٥) .

ولا يجعل السبكي حركة الإعراب مما يدخل بفصاحة الكلمة لأن الحركة زائدة على وضع الكلمة تحدث عند التركيب (٦) ، وهذا القول حاصل كلام ابن سنان الخفاجي ، وأين الآثار أيضاً (٧) ، ولهذا كانه يعتبر كثير من الباحثين عمل السبكي فرعاً لعمل غيره ، أو يتبعير محمد شرحأ لتلخيص عمل غيره ، ولهذا ظلل مرتقباً ، أو مربوطة بهذه الصلة ، ومن كان كذلك فلا يُنتظر له خلاص من هذا القيد المزدوج (٨) . وإن كانت هذه التبيبة تدفع الباحث من تجاوز التابع إلى المتبع ، فلا مناص من أن نضم صوتنا إلى صوت الاستاذ الدكتور أحمد مظلوب وهو

(١) في الآيات « فصيحة ليلٌ طويلاً » ، « ألم أهدى إليكم يا بن آدم » وقوله تعالى : « كالبهمن المنشوش » (٢)

(٣) مسورة هود آية ٤٦ شرح مقدمة الجمان في علم المعاني ، والبيان السعديان . ط . العليني سنة ١٩٣٩ م

(٤) انظر : موسى الأفراح ٩٦/١ (٥) انظر مثل السائر ج ٢

(٦) انظر : موسى الأفراح ٨٩/١

(٧) انظر : مسورة الفاصحة من ممثل السائر ج ٢

والواقع أن الحركة الإعرابية الكلمة لها أهميتها في الدلالة التركيبية للعبارة ، وإذا اتعرضت الحركة من قواعد الإعراب الصصيمية أدى ذلك إلى اللعن الذي يدخل بفصاحة الكلمة ، ويتجاذب منها الشيوريات الشعرية فقط .

(٨) انظر : المسالك المتداخلة بين الباحثين والأباء د . محمد عبد الناصر

يصف السبيكي بيقوله : « كان السبيكي أحد شرائح تلخيص القرنيش أسلم منهجاً ، وأصنف نوبةً عندما اهتم بالقصاصه ، ويعتذر بعدها يعتمد على كتب البوالة المتقدمة كرس الفصاحة »، والمثل السائر ، وغيرها من الكتب التي أعلنت الموضوع حقه ، وفضلت فيه تفصيلاً . ولم يتبع القرنيش⁽³⁾ .

ذلك كان جاء شرحه مزيجاً من التقسيمات السكانية ، والتشيقات العقلية ، والذى التجربة النظرية ، والاعتماد على التقديم . من غير أن يرتكز على جوانب الحس الجمالي الذى يخاطب التلق ويسثير الملة : تعنى كانت أم حسنة .

ومن أهم خصائص منهج السبكى في كتابه ، توزيع الدين ، فهو يهتم بالبلاغة . ويجعلها في خدمة القرآن . ويرى أنها أفضل المعلم لأمرىء : الأول : لأنَّه يدرك وجه الإعجاز القراءى والثانى : لتنقيتها إلى علم الأصول الشرعية . ولهذا يشير السبكى إلى تداخل علمأصول اللغة وال manus^(۲) . ويشير إلى أنَّ البلاغة عند القدماء في زمن الصحابة - رضوان الله عليهم - كانت مرتكزة في طباعتهم . ولذا كشفوا عن أوجه الإعجاز القراءى . من غير تأمل لمعرفة المصطلحات البلاغية^(۳) .

ولهذا فالسيك يستند أثنتين من القرآن الكريم . وهما بالبلاطية ، لأنها تكشف عن سر إعجازه البلياني⁽⁴⁾ . ويجعلها هي والأدب يشعره وبته في خدمة القرآن أولًا . ثم الأدب ثانياً . ويذكر على إعجاز القرآن . ويجعله مقياس الترجيح في الحكم على فصححة الكلمة أو عدمها . ولذلك فهو يرى قصاحة لفظة «أتمته» في قوله تعالى: تمام⁽⁴⁾ .

كريمٌ مُنْعَثَةً أَمْدَحَهُ الْوَرَى تَعِيُّ + وَإِذَا مَا لَمَّا تَلَّهُ تَحْمِي
مخالفاً من رأي عدم فضاحتها لاجتماع النساء ، ويعتبر السبكي اجتماعهما معًا علامة
الفضاحة معللاً لذلك يردده في القرآن الكريم في قوله تعالى: « قُمْنَ اللَّيلَ فَاقْسِنْدَ لَهُ »

(١) مناقص ملائمة

^{٣٣}) انظر: عروس الافرام (ج ٢)، وأثر التحاة في الترس، البلاق، وعبد القادر جعفر، ١٤٠٥.

(٣) انتز : مسلطات تقنية أصولها وتطورها حتى نهاية القرن السادس عشر، = رسالة ماجستير.

مخطوط بمراكز أبحاث الشرق الأوسط . جامعة حسن شمس : خير الله على المسلمين . ٢٠١٧

⁽⁴⁾ وتابعه في الكرة السيريان . انتز : الأشیاء والظواهر السيريان (٧-٢٠١) / طبعه الدار

سند / المکافرہ سنہ ۱۹۷۰ء

وَسَبَّهُ لِيَلْأَ طَوِيلًا^(١) ، وجعل النقل في لفظة ، البيت بسبب تكرار كلمة « أندحه » موافقاً في ذلك صاحب الإشارات والتبيهات .

وند أوقعه ذلك في حرج شديد ، لأنه لم يتحقق في حديثه عن أسباب فصاحة المفرد ، فهو يرى أن من أسباب فصاحتها : تجنب المركبة الثقيلة على بعض الحروف كالشمسة على الجيم^(٢) وقد ورد ذلك في القرآن الكريم ، الذي جعله السبكي مقياساً للترجيح كقوله تعالى « قمئنَ الْبَهَائِي جَدَدَ بِيَضْنَ وَخَنْرَ^(٣) » .

ومن أهم ما يتبين به السبكي أيضاً - وربما وغيره على القرآن ، ولدلة ذلك أنه رفض أن يتخذ كلاماً من القرآن ، أو السنة ، و يجعل بيته أو مصراعه ، على سبيل التفصين - ويراد به القرآن « لأن في ذلك من الإساءة ما لا يناسب المتدين ، ولا يرى يائساً إن أخذ اللقط مراداً به غير القرآن^(٤) ، من ذلك قول الشاعر : « مجنون، الرمل » .

كَتَبَ الْحَقِيبَ سَطْرًا
فِي كِتَابِ اللَّهِ مُؤْتَدِنَ
لَنْ تَنَالُوا الْبَرَ حَتَّى
تَنَقِّلُوا مِثَا تَبَيْنَ^(٥)

والبيهقي عند السبكي ليس حليه ويتيم للمعاني والبيان كما فعل السكاكي ويعتبر القزويني والظاهري أن السبكي في باب البديع تناول بين أبي الإصبع ، لأنه يرى أن تحسين البديع ذاتي ، وأنه كفierre من المعانى والبيان له غرض وغدف . والسبكي في باب البديع لفتات مشتركة وإضافات جديدة^(٦) .

وأهم الأنواع البديعية التي أقاض فيها « المبالغة » ورده على من قال : إنها كتب ، وليس كذلك ، ولو كانت كتاباً لما وردت في القرآن الكريم ، ولا في السنة ، ونقل عن كثير من المؤلفين والتحاة ما ذكروه من صيغ المبالغة ، وعقد موازنة بين المبالغة في اصطلاح التحاة ، وفي اصطلاح البلاغيين يقول :

(١) سورة الإنسان آية ٢٦

(٢) انظر : عروس الألواح ١٣٩/١ ، وانظر الإشارات والتبيهات المجرجاني من ١٢ وموافقه أقوى

(٣) المصدر السابق ٩٢/١ (٤) فاطر / ٧٧

(٥) انظر : عروس الألواح ٤٠١/٤ ، (٦) آية ٩٢ من سورة آل عمران .

(٧) يرى السبكي أنه من الأحسن أن يسمى القزويني مراعاة التغذير بالتناسب والاختلاف والتغذيق والتبيه يسميه التغذيف لموافقته التغذيق ، وهو جمع المتكلم أمراً مع ما يناسبه لا بالتضاد كقوله تعالى « والشمس والقمر يحسبان » الرحمن / ٥ ، فإنما متاتسبتان غير متضادتين . انظر :

موسى العلوي ٢٠١/٤

وإذا قلت عندي ألف رجل ، وأردت مائة تعظيمًا لهم ، فقد تبين بذلك أن هذه الألفاظ ليست موضوعة للبالغة البديعية ، وأن من يطلق عليه البالغة ذلك بحسب اصطلاح النحاة - والقويين ، وليس علماء البلاغة ^(١).

ويقتصر من الرماني أنواعاً أخرى من البالغة منها : التعبير بالصلة العامة في موضع الخامسة كقوله تعالى « خالق كل شيء » ^(٢) وإخراج الكلام مخرج الخبر عن الأعظم كقوله تعالى « وجاء ربكم » ^(٣) أي أمره ، وإخراج المكن إلى المتنع كقوله تعالى « ولا يدخلون الجنة حتى يفعلا العمل في سنتين ^(٤) » ، وإخراج الكلام مخرج الشك كقوله تعالى « قلنا ألم يألكم تعالى مقدى ألم في ضلال مبين » ^(٥) ، ومحذف الأجرمية للبالغة كقوله تعالى « وإن ترى إله يقفوا على النار فقلوا يا آتينا نورا ، ولا نكذب يا يار ^(٦) زينا نكذب من المؤمنين ^(٧) ».

ويرفض السبكي وعدد بعض صفات الله - تعالى - على صيغة البالغة كفتخار ورحيم ، وغفور ، لأن البالغة أن يثبت الشيء أكثر مما له ، وصفات الله غير متنامية في الكمال ، لا يمكن البالغة فيها ، والبالغة تكون في صفات تقبل الزيادة والتقص ، وصفات الله متزنة عن ذلك ^(٨) وهو في ذلك يخالف الرماني الذي جعل البالغة على أبنية كثيرة منها : فعذان ، ومفعال وفعل وفعل ، كرحمان الذي عدل عن راحم للبالغة ، وغفار معدول عن غافر للبالغة ^(٩) .

والسبكي رأى في التجنيس والمطابقة ، وهو أن كثرة التجنيس والمطابقة في الكلام ، تذهب بفائدته ، ويجب ألا يتذكر ذلك إلا لضرورة أو فائدة لذلك ^(١٠) .

وأضاف السبكي إلى البديع أنواعاً كثيرة استدركها على المستنق ^(١١) ، وبالمقارنة بين السبكي وأبن الأصيع ، والرازي وصاحب جوهر الكنز نجده متاثراً تثيراً واضحاً بهم في

(١) انظر : عروس الأدراجه ٤/٣٥٧ : ٣٦٨ . (٢) الزمر / ٦٢ .

(٣) الظهر / ٢٢ . (٤) الأعراف / ٤ .

(٥) سبأ / ٤٤ .

(٦) الأنعام / ٧٧ .

(٧) انظر : النكت في إعجاز القرآن من ٩٦ ، من ٩٧ . شمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن تحقيق

أ.د. زغلول سلام . دار المعرف .

(٨) انظر : عروس الأدراجه ٤/٣٦٨ .

(٩) في قوله تعالى « ولهم لغيرهم لن تأت » ، وذكر الرماني أن هذا النوع لا يوجد أن يوصف به إلا الله

عن بخل . انظر : النكت في إعجاز القرآن .

(١٠) انظر : عروس الأدراجه ٤/٤٢٢ .

(١١) ومن هذه الإشكالات : التوفيق والتسمية ، والتغاير والقسم ، والسلب ، والإيجاب ، والاستدراك ..

الخ . انظر : عروس الأدراجه ٤/٤٧٧ : ٤٧٨ .

هذا الباب كثيرة من الأبواب السابقة ، وصرح بذلك في قوله . وكتابه «أى ابن أبى الأصبع»^(١)
التحرير أصح كتب هذا الفن ، لاشتماله على التقل والتقى^(٢)

ويع أن السبكي سار على خطى القرىويني ، إلا أنه في باب البديع امتناع عنه بدقة الملاحظة
وجعل البديع فنا له أثره في التعبير ، وليس تائعاً للفنون الأخرى .

ويختتم السبكي شرحه بباب في السرقات الشعرية ، نهج فيه نهج القرىويني ، وقد توهם
بعض الباحثين^(٣) أن للسبكي فيه بعض الزيادات ، وهذا القول مردود ، فلا زيادة ولا جديد ،
لا عند السبكي ولا القرىويني ، لأنهما مسيطران في الموضوع ، وقد أضاف فيه ابن الأثير في
كتبه الثلاثة «المثل السائِر» و«الجامع» و«الاستدرار» ، وأضاف في كتابه كذلك صاحب المدة
من قبل ابن الأثير .

ويذلك يكون ما ذكره السبكي في السرقات حاصل كلام سابقيه ، إلا أنه أقرب رجماً إلى
كلام القرىويني منه إلى ابن الأثير ، وأبن رشيق .

وعلى آية حال فإننا إذا قمنا بعمل مقارنة تحليلية بين عروس الأفراح ، وغيره من الشراح
لوجدهما متبايناً عنهم غالباً التبييز ، فهذا هو القرىويني قمة الشراح يتجاوزه السبكي «لأنه
استطاع أن يمثل البلاغة الكلامية والأدبية ، ويمزج بينهما ، ويخرج لنا كتاباً إن لم يكن رائعاً
حقاً - فهو أكثر فائدة من كتاب القرىويني ... وكان شرح السبكي ذا أصلحة أدبية لا نجد لها في
الشرح الأخرى^(٤)

ومن ينعم النظر كذلك في هذه الشروح^(٥) ، التي يصادفنا فيها أراء كثيرة غامضة ،
لا يخرجنا منها إلا العروض ، ليوضح بيانه ، وسهوه عبارته ، وعمق ثقافته ، وجودة طريقة ،
وإذ ذلك جاء شرحه ممزوجاً ميسوطاً مطبوعاً متداولاً^(٦) ، وبهيب المرحوم الشيخ أمين القولي -
بالباحثين أن ينكبوا على دراسة كتاب «عروض الأفراح» - إيهامه للريح العربية الأدبية ، وإنعاشها
لواهب الوهابين من أبناء الطالب^(٧) . ولقد كتب الله لهذا الكتاب من يدرسه درساً تفصيليّاً
بياناً أثراً في الدرس البلاغي في مصر^(٨) .

(١) انظر : المصدر السابق : ٤٦٧/٤ . (٢) السابق : ٤ / ٢٨٤ .

(٣) انظر : السبكي والدرس البلاغي في مصر : من : ٢٨٩ .

(٤) انظر : القرىويني وشرح التقىيis المكتوب أحمد مطرقب : من : ٥٤٥ ، ٥٦٩ .

(٥) التي تضم المسعد ومواهب الفتاح ، والعروض ، ومحاشي المسسوبي ، والإيضاح للقرىويني .

(٦) انظر : مناجع تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والآدب ، الشيخ أمين القولي : من : ٢٥٣ - دار
المعارف ، مصر ١٩٧٦ .

(٧) انظر : عروس الأفراح وأثره في الدرس البلاغي في مصر ، عبد شعبان . رسالة مكتوبة ١٩٨٩ م .

كتاب «شرح التلخيص» للباجري (ت ٧٨٦ هـ)

ألفه الشيخ أكمل الدين محمد بن أحمد الباجري سنة ٧٨٦ هـ ، ويسميه في مقدمته بـ «تلخيص التلخيص» ، وهذه العبارة يفهم منها أول الأمر أن كتاب الباجري مختصر للتلخيص المفتاح ، وأنه أصغر منه حجماً وأقل منه بحوثاً ، غير أن الواقع غير ذلك ، فكتاب الباجري ، ليس اختصاراً للتلخيص المفتاح ، وإنما هو شرح كبير ، وإيضاح للمسائل الواردة في متن التلخيص ، وهو أعم فائدة .

والدافع الذي دفع الباجري لشرح التلخيص هو صغر حجمه ، وما اشتمل عليه من قواعد تحتاج إلى شرح وإيضاح ، والتبيه على ما ورد عليه من اعتراضات وبيانها وشرحها ، ومناقشتها .

وقد رأينا الباجري يعرض عن كثير من المناقشات المنطقية التي تتناولها الخطيب سواء في المتن أو الإيضاح ، وذكر اهتمامه على جميع المسائل البلاغية المعرفة الآن ، واتبع في الكتاب طريق العرض والتحليل والمناقشة بروح علمية دقيقة ، تسلّم بالصحيح وتزد المخالف من أقوال العلماء مؤيداً رأيه بالحجج العلمية الصحيحة .

ذكر المؤلف في مقدمة كتابه منزلة علم المعانى والبيان باعتباره وسيلة لفهم كتاب الله العزيز الذي لا يكتبه الباطل من بين يديه ولا من خلقه ، باعتباره الكتاب المقدس المشتمل على تعاليم الإسلام عقيدة وتطبيقاً ، ومعرفة ما فيه من أسرار بلاغية أعجزت العرب المؤمنين أرباب الفضاحة والبيان عن أن يأتوا باقتصر سورة من منه .

يقول : « هذا وإن لم تلتفت كلام الله العزيز لا تنتهي ، وعجائبه لا تنتهي ، وإن فيه غرائب وأثار دق مسلكها ، ومستودعات أسرار دق مذكرها ، وإن كالبحر عليه الماء الغائر .. والقيقة وإن بربن^(١) على القافية ، وعلى الأقران في المثالي والاحكام ، والمتكلم وإن بد^(٢) أهل الدنيا في صنعة الكلام ، وحافظ القصص وإن كان من ابن القرية أحفظ^(٣) ، والواعظ وإن كان من حسن البصري أوعظ ، والنحرى وإن كان أتحى من سبيبية ، واللغوى وإن على اللغات بقى »

(١) انظر : طبقات المفسرين الدارويه من ٨٠ .
وهدية العارفين في أسماء المؤلفين وأثار المستفيدين لسامuel باشا البشدادي من ٢٠٠ .
سنة ١٩٥٥ .

(٢) بمعنى : غافل .

(٣) أي : غلب .

(٤) أحد فصحاء العرب ، واسمه أبيب ، والقرية لامة . انظر الكشاف ط ١
١٩ .

لبيه ، لا يتصدى أحد منهم لسلوك تلك الطرائق ، ولا يخوض على شيء من تلك الحقائق إلا رجل قد برع (١) في علمي مختصين بالقرآن وهم : المعانى والبيان ، الكافلین ببيان محاسنه (٢)

ومعنى هذا الكلام أن البابرى قد أدرك قيمة هذين العلمين من الناحيتين العلمية والدينية لبيانهما أسرار القرآن ، وبين مفاصيله وغراحته ، ولذلك فنحن نزاه بخصوص على هذه الغاية ومعرفة كتاب الله تعالى - بسلوكه المنهج اللغوى الوارد من العرب للنفس ، وبجعله مقياساً يرجع إليه في معالجة الفكرة البلاغية التي يتناولها ، وابتعاده عن القضايا المنطقية التي حشرها بعض من البلاغيين في تناولهم بالشرح والبيان للمسائل البينانية مما ابتدأ بها عن طريقها الحقيقي طريق التوكى الفنى .

والمؤلف يسير على نفس المنهج الذي رسّمه الخطيب في كتابه من حيث ترتيب الأبواب ، وتناول في فاتحة الكتاب ، الفصاحة والبلاغة ، وما يوصى بهما وشرطهما ، وعنهما ، وذلك على عكس ما صنع السكاكي من بحثها بعد علمي المعانى والبيان ، في بينما يرى السكاكي أنها ثمرة علمي المعانى والبيان يرى البابرى أن البيان والمعانى ثمرة الفصاحة والبلاغة .

ثم تلا ذلك بمحاجة علم المعانى ودراسة الإسناد الضبرى ، وأحواله ، وأحوال متعلقات الفعل والقسر ، والإنشاء ، والفصى والوصل ، والإيجاز ، والإطناب ، والمساواة ، ثم بحث مسائل علم البيان من تشبيه واستعارة ، ومجاز وكتابة .

وأخيراً تناول فن البديع بتنوعه اللغوى والمعنى ، وختم الكتاب بدراسة فن السرقات الشعرية ، والبابرى كثيرة من علماء البلاغة والنقد يهتم بفن السرقات الشعرية في صوره المختلفة ، والموازنات الأدبية ، ودراسة الفنون من صميم النقد ، ولا غضاضة مما قوله البابرى لأنه لا يكاد يخلو كتاب بلاغة من النقد ، ولا كتاب نقد من البلاغة ، وذلك لتشابك مسائهما ، وتقابض غایتهما (٣) .

ثم تحدث المؤلف بما يتبينه المتكلم أن يراعيه في نتاجه الأدبي من ابتداء وتحلص وانتهاء فكملت بذلك صورة الكتاب البلاغية والنقدية .

(١) أى فاق .

(٢) وهذا النص المذكور متقلل من مقدمة كتاب الشافى المنشورة مع تصرف بسيط في النص

ـ انظر : الكتاب المنشور ج ١ ص ١٨ ، من ١٩ مـ . الطبلين .

(٣) انظر : مقدمة تحقيق كتاب شرح الطهرين الدكتور محمد مصطفى صوليه من ٨٢ مـ . المنشورة العامة للنشر والتوزيع - طرابلس - ليبيا سنة ١٩٨٣ .

ويرغم أن كتاب «شرح التخييم» «شرح لطفيض الخطيب لفتاح العلوم»، إلا أنه لم يتأثر فيه بمنهج التخييم في العرض والأسلوب، بل كان في عرضه وأسلوبه السهل لا يقل أهمية وطريقة عن كتاب الإيضاح، فهو يجعل النون أساساً من الأسس التي تساعد على فهم الفكرة البلاغية، وتفصيلها، لذلك نراه كثيراً ما يركز على النون في المناقشات وإدراك المعاني البلاغية، وكثيراً ما يجعل في شرح نصوصه على النون.

ومنهج هذا جعله يعرض عن كثير من القضايا المنطقية التي وردت في «التجييم» والتي أغرم بها السعد في شرحه المختصر، والمطول، وكان الخطيب فيها متاثراً بمنهج السكاكي، وتقديره للنون، واعتماده عليه جعله في أحيان كثيرة يهاجم الخطيب بصورة تخرج عن أدب الخلاف الواجب أن يكون بين العلماء والباحثين.

يقول: «اعلم أن المستفت في الإيضاح أورد ثلاثة أسئلة على صاحب الفتاح ساقطة العبرة». ظاهرة الجواب لا تخفي على من له طبع سليم، ونون مستقيم، ولعل سببها إنما هو قوات النون عنه، فلم يستغل به مخافة المسألة^(١).

وبالرغم من أن البابرتى يدعو إلى تربية النون ويستخدم سبيلاً من سبل فهم الفكرة، ويعنى غيره من أخطاء هذا النون - على حد تعبيره - فإنه مما يؤخذ عليه أنه لم يكتفى بشرح الشواهد الأدبية، والأمثلة التي تساعد على تعميمه وتربيته في نفوس الدارسين، ونحن لا نافق البابرتى فيما ادعاه على الخطيب بوجه عام، لأن الخطيب في إيضاحه يختلف عنه في تخييمه، واضع من كتاب البابرتى أنه اطلع على كتاب «الإيضاح» ونقل عنه، دون أن يشير إلى ذلك النقل، مما يرجح أنه البابرتى^(٢).

وللحظ على البابرتى أنه يناوش الخطيب، ويختلفه كثيراً، ونلمح من خلال مناقشاته في المسائل الخلافية آراء نقدية قيمة، مما يبين أن البابرتى بلاغي نوافه، وناقد ماهر^(٣).

والجدير بالذكر أن البابرتى لم يقف عند حد الجمع، بل كان له جهد واضح في الشرح، وعقل واع في عرض القضايا البلاغية، ومناقشتها، وإذا أردنا أن نبرهن على تحرر المؤلف، ومنهجه الخاص فيما خالقه غيره، أو كان أعمق منه فكراً - لا يعززنا الدليل، بل إننا إذا

(١) انظر: شرح التجييم، البابرتى.

(٢) انظر: المصدر السابق من ٤٧٠، من ٥٩٦.

(٣) انظر: المصدر السابق من ٤٧٧، من ٥٣٦، من ٥٥١.

تبين ذلك خرجنا عن المد ، ولطال بنا العرض ، ونكتفى بإحالة القارئ إلى أرقام بعض المصادر من الكتاب^(١) ، والدلالة على ابتداء البابريني عن التقليد في البحث ، ويكرر المسائل كراً من غير أن يكون له شخصية يارزة فيها ، فهو يأخذ عن غيره ، ويناقشه ، أو يهاجمه أو يدفع عنه .

ولعل سبب ذلك يعود إلى تنوع مصادره من بلاغة وتقسيم ولغة ، وأدب ، وأنه لم يعتمد على مصدر واحد ، ومن أهم مصادره عبد القاهر الهرجاني الذي كان يرجع إليه في المسائل الفلاحية للحقيقة ، وبيتانس برائيه وبختاره^(٢) ، والمثل السائر لابن الأثير^(٣) ، ومفتاح السكاكى وتلخيص الخطيب وإيساجه ، وغيرهم كسيبوه ، والخليل بن أحمد ، والزمخشوى ، والرماتنى .

واللافت للنظر أن المؤلف كان معاصرًا للسبكي (٧٦٨) والسعدي (٧٩١) ، ولكنه لم يشر إليها من قريب أو بعيد ، في الأخذ منها ، أو التأثر بها ، ولم يرد لها ما ذكر في شرحه ، ولعل ذلك راجع إلى عدم القاء الفكرى أو الشخصى بينه وبينهما .

غير أن الملحوظ أن البابريني تأثر بمدارس ثالث : مدرسة عبد القاهر ، ومدرسة السكاكى ومدرسة الخطيب الشاملة لهما ، وأخذ عنهم ذكرًا ومنهجاً وتقليداً مما أعطى الكتاب قيمة بلاغية كبيرة بين كتب البلاغة^(٤) .

(١) انظر : المصدر السابق : من ٢٢١ ، من ٢٤٢ ، من ٢٧٤

(٢) انظر : المصدر السابق : من ١٤ ، من ١٥ ، من ١٦ ، من ١٧ ، من ١٨ ، من ١٩

(٣) انظر : المصدر السابق : من ١٧٧ / ١٧٨ / ١٧٩

(٤) انظر : مقدمة تحقيق شرح التلخيص د . محمد مصطفى صرابي من ٦٥

المطول «في شرح التلخيص للقفالزاني» (ت ٧٩١ هـ)

هو سعد الدين مسعود بن عمر القفالزاني المتوفى بسمرقند ٧٩١ هـ^(١) ، وكان عالماً في المنطق ، والفلسفة والكلام ، والفقه ، وأصول التفسير ، وال نحو واللغة .

شرح القفالزاني للتلخيص شرعين : المطول والختصر ، وكان أشهر شرحاً للتلخيص في هذين الشرعين ، وطريقته تقوم علىأخذ الكلمات واحدة واحدة ، أو جملة وربطها بكلمات أخرى كان يضيف مفعولاً ، أو حرف جر ، وهي طريقة تفسيرية ممولة للقارئ ، ومتعبية لذهنه ، ثم يعرض بعض الآراء ويناقشها إن كان ثمة عرض أو نقاش .

وبحديثنا المألف في مقدمته عن سبب شرحه للتلخيص المفتاح بقوله «إذ قد وجده مختصراً جاماً لغير أصول هذا الفن وقواعدة ، حارباً لكت مساته ، وعواشه ، محظياً على دقائق من لباب آراء المقدمين ، منظرياً على دقائق من نتائج أفكار المتأخررين ، مائلًا من غاية الإطناب ، ونهاية الإيجاز ، لأنحاء عليه مخايل السحر ، وللائل الإعجاز»^(٢).

أما المصادر التي استعمل بها المألف في شرحه ، فقد أشار إليها في تسبيح مقدمته إلى بعضها وهي : دلائل الإيجاز ، وأسرار البلاغة لعبد القاهر البرجاني ، والتبيان لابن الزل堪اني والكشف للزمخشري ، والفتاح السكاكين ، والإيضاح للقرزيش ، والمثل السائر لابن الآثير ، وغيرهم من يشير إليهم أثناء الشرح كالرازي ، وابن سينا ، والبربر ، والزجاجي ، والجوهرى ويرتبط آقوالهم في بعض الأحيان ، وكثيراً ما كان يحترم القول في آراء الزمخشري الذي أساء به استيعاباً شديداً ، وعبد القاهر الذي أشنى عليه كثيراً .

ورث المألف في مصادره على كتب عبد القاهر ، وبذل في مراجعتها قصارى جهده يقول «وبدلت الجهد في مراجعة الفضلاء الشهار إليهم بالبيان ، ومارست الكتب المصنفة في فن البيان لا سيما دلائل الإعجاز ، وأسرار البلاغة ، فقد تناهيت في تسبيحهما غاية الوسع»^(٣).

وجمل سعد الدين كتابة تحفة السلطان أبي الحسن محمد كرت ، كما اختصر السعد مطولاً : وسماء : الشرح الصغير على الشرح الكبير ، وأهداه إلى المظفر السلطان محمود جانى بك خان^(٤).

(١) انظر : ترجمته في البدر الطالع للشوكانى ٢/٢ ، ٢٠٦ ، دريشات الجنات من ٢٠٦ ، وبيبة الوعاء من ٣٩١ ، والوازن البيبة من ١٢٨

(٢) انظر : المطول السعد من ٢ مذ.

(٣) انظر : المصدر السابق من ٤

(٤) انظر : المختصر ضمن شرح التلخيص ج ١ من ٢٠

ويشير المؤلف إلى أهمية علم البيان ، ومدى حقه في التقديم والأسبية على سائر العلوم فيقول : « إن أحق الفضائل بالتقديم وأسبيقتها بمقانق العلوم ، والمعارف والتصدى للإجحاف بما في الصناعات من التكت واللطائف لا سيما علم البيان ، المطلع على تكت نظم القرآن ، فإنه كشف عن مقانق التنزيل رائق ، مقناط لمقانق التأويل فائق ، بيان لدلائل الإعجاز ، وأسرار البلاغة ، وإيضاح لمعالم الإيجاز وأثار الفصاحة ، تلخيص لغواص من مشكل كتاب الله وفضله، قواعده كافية في ضوء المصباح إلى أبواب التأويل »^(١).

و واضح من كلام المؤلف أن الغاية من علم البيان هو التصدى للإجحاف بما في القرآن من تكت ولطائف تكشف عن حقيقة النص ، وتبين أسراره ودلائله ، وإن كان يفهم من الكلام أيضاً إشارته من طرف خطي إلى مراجعه التي مزجها ضمن حديث عن أهمية علم البيان في ذلكة فلسفية.

ونذكر المؤلف في مقدمته أنه عنى بدفع انتراضات الخطيب على السكاكى ، وحل غواصي المقناط والإيضاح ، يقول : « وأشارت إلى حل أكثر غواصي المقناط والإيضاح ، ونبهت على بعض ما وقع من التسامح للغافل العلامة في شرح المقناط ، وأرمانت إلى مواضع زلت فيها أقدام الآخذين في هذه الصناعة ، وأغمضت مما وقع لي بعض متعاطفي هذا الكتاب من غير بضاعة ، ووقفت التائس بجماعة حظروا تحقيق الواجبات ، وما قررت على نفس سنته في تطوير الواضحات »^(٢).

والحق يقال : إن السعد ليس كما زعم ، ولكنه سار على نفس الشئ ، وكان شرحه امتداداً لندرسة السكاكى والخطيب ، فإن حاول أن ينقد هذا ، أو يعتريش على ذلك في رأى أو آخر من آرائهم ^(٣) ولم يستطع أن يتجرأ من سيطرة النزعة المقلبة والفلسفية في التفسير البلاغى ^(٤).

ويذكر المؤلف كثيراً على أهمية الطبع ، والذوق في فهم النصوص ، ولا يفهم من ذلك أن التقليدان أبعد الفلسفة ، وعلم الكلام ، والمنطق عن دائرة شرحه ، ولكن شرحه اتسع في التقلل عن الفلسفة ، أو كما يسميهم الحكماء .

ولا ندرى كيف عد القدماء والمحدثين هذا الشرح خيراً شرحاً للتلخيص ، وجعلوه من الأصول الأساسية التي تذكر إلى جانب المقناط والتلخيص ، ويرى أن السبب في ذلك هو

(١) انظر : المطول السعد من ٢ (٢) المصدر نفسه ج ١

(٣) انظر : مباحث بلاغية لاستاذنا د . أحمد جمال العسri من ٣٥١

(٤) انظر : البلاغة عند السكاكى د . مطهوب من ٣٦٢ - ٦٢ -

دقته ، والترابط بمدرسة عبد القادر إلا قليلاً ، وعدم خلطه لمباحث النحو والأصول بمباحث البلاغة كما فعل السبكي ، لذلك جاء شرحه أوضح بياناً من شرح السبكي^(١)

ومن حقنا ألا نوافقهم في هذه الدعوى ، لأن الواقع يشهد بغير ما قالوا ، فالشرح جاء أكثر عوضاً وتفصيلاً من شرح السبكي ، والقارئ له يعجز في كثير من الأحيان عن متابعته متابعة دقيقة لفموضع معانبه . وكثرة مصطلحاته الفلسفية ، واستخدام الطريقة التفسيرية البحث التالية من التحليل الفنى الدقيق ، ولو أردنا أن ندلل على ما نقول لطال بنا المقام ، ونكتفى بهذه الملاحظات خشية التكرار ، لأن هذه سمة غالبة على شرح التخيسن .

ولقد عُنى السيد الشريف (٨٦٦ هـ) بوضع حاشية على الشرح المطول ، ليوضح مقاصده ، وينبه على مزاله^(٢) ، وأورد اعترافات كثيرة على كلام السعد ، وتخلل كثيرة في المسائل الفلسفية والكلامية ، ولكن القارئ لا ي عدم من المناقشات المشتركة البعض مسائل البلاغة أثنا شرحه .

(١) انظر : بدایة الیمامة ط ١ من ٢٥١ ، والبلاغة تطییر وتاریخ . د . شوقي شیک من ٢٥٠

(٢) انظر : الیدر المطالع من ٨٩ ، بدایة الیمامة من ٢٥١ ، والفرائد الیممية من ١٣٦

الفصل الثالث

اللغويون والنحاة

- * ابن الزملکانی
- * زین الدین الرازی
- * محمد الجرجانی
- * أبو حیاں الأنطاوی
- * السمین الحلبی

الفصل الثالث

اللغويون والنحاة

أما اللغويون والنحاة فقد كان لهم أثر لا ينكر في توجيه بحث البيان ومدده بالدراسات اللغوية والإعرافية الهامية لفهم القرآن الكريم ، وتوجيهه آيات توجيهها بيانيا ، لأن البحث في اللغة والنحو يعتبر مدخلاً للدراسة بلاغة القرآن ، فضلاً عن أثر القرآن نفسه في الدرس البياني عامة ، ولا شك أن هذا يؤكّد لدينا شعوراً قوياً بأن اللغة والنحو هما صنيعة القرآن .

وقد جمعنا اللغويون والنحاة تحت مسمى واحد ، لأنهم لم يكونوا في ذلك الزمن منفصلين ، بل كانوا متزوجين معًا في معظم الأحوال . ولم يعرف هذا الانفصال إلا في المصور المتأخرة وعصرنا الحديث .

واللغويون والنحاة لم يكن لهم هذا التصنيف الواaffer في الدرس البياني القراءى وحسب ، بل لهم دراسات أخرى حتى المجمعة منها ، ولا شك أنهم أفادوا من مثل هذه الدراسات في توجيه البحث البياني إفاده لا محل إنكارها .

ولقد كان لبحوثهم أهمية كبيرة ، لأنهم اعتمدوا في أبحاثهم على مدونة تناقض في جانبها الأعظم من رفيع الموروث الأدبي كالشعر والقرآن وكلام الفصحاء من الأعراش .^(١)

وهم يسجلون في مباحثهم ملاحظاتهم الدقيقة عن كل ما يصادفونه من نواع لغوية أو نحوية أو بلاغية فجات كتبهم أشبه ما تكون بالموسوعات المتنوعة .

وقد أفاد البلاطغين من أصحاب هذه الدراسات في بحوثهم عن الكلمة المفردة ، والكلام المركب بوجه خاص ، وفي باب الفصحاحة يوجه عام باللغويون والنحاة الذين وقع عليهم اختيارنا في هذا البحث هم : (ابن الزمكاشي صاحب كتاب « البيان في علم البيان » و « البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن » ، وأبو يكر الرازي صاحب كتاب « روضة الفصحاحة » ، و محمد بن علي الجرجاني صاحب كتاب « الإشارات والتبيينات في علم البلاغة » ، وأبو حيان الأندلس في تفسيره « البحر المحيط » ، والسمعين الطبعي في تفسيره « الدر المصنون في إعراب الكتاب المكون » .)

(١) انظر : ملخص بلاغية من ٦٦٧

«كتاب التبيان في علم البيان المطلح على إعجاز القرآن»
لابن الزمكاني (ت ٦٥١ هـ)

كان كمال الدين عبد الواحد بن عبد الكريم بن خلف الأنصاري السماكي الدمشقي الشافعي الزمكاني^(١) (ت سنة ٦٥١ هـ) - أحد فقهاء الشام وقضاتها ، وكتاب التبيان أهم كتب الزمكاني البلاغية^(٢) ، الذي يعتبر امتداداً لمدرسة المشارقة ، ويعتبر أدق كان امتداداً لمدرسة عبد القاهر^(٣).

الف ابن الزمكاني كتابه بعد أن رأى كتاب «دلائل الإعجاز غير مذهب فاراد أن يهدى» ، ويرثي مسائله ، ويجتمعها ليكون قريب التناول سهل التداول ، ولذلك فكتاب عبد القاهر يعتبر الأصل لكتاب «التبیان» بزيادة ما سمع به الخطأ ، وما نقل من الكتب والدفاتر ، الله وقد تأثر فيه تأثيراً واضحاً بعبد القاهر وكتابه «دلائل الإعجاز» الذي وصفه بأنه «جمع فارغ» وقال فاعلي^(٤) وأنه قد قيد القرآن بالتفيد ، وعدم صور العضلات بالتصوير المشيد ، حتى صار أسهل للنفس ، وأصحاب الفهم من الضوء لشهاب القبس في القلب ، وبعد هذا الثناء الذي يقلب عليه السجع ، والصنعة البدعية ، يبرر المؤلف لنفسه تأليف الكتاب ، حين يأخذ على عبد القاهر أنه «واسع الخطو ، كثيراً ما يكرر الضبط ، فقيد للتبييب ، طرد من الترتيب يمل الناظر وبعشيته»^(٥).

وحدد المؤلف هذه وغايتها ، ومنهجه في تأليف الكتاب فقال: «وقد سهل الله تعالى جمع مقاصده» (يقصد الدلائل) ، «وقواعده» ، «وضبط جواحمه» ، «وطوارده» ، مع فرائد سمع بها الشاطر ، وزوائد نقلت من الكتب والدفاتر^(٦) وواضح من كلام المؤلف أن كتابه يمتاز عن كتاب عبد القاهر بالتبييب ، والتيسير ، وجمع المسائل المتفرقة في أبواب وفصول .

(١) زمكاني: يفتح أوله ، ويسكون ثالثه قريء بقوفية متشقة . انظر: ترجمته في: البداية والنهاية
ابن كثير/١٢ ، ٢٢٥/١٢ ، والدارس في تاريخ المدارس ١٩٧٢/١ ، وطبقات الشافعية السبكي ٢٥١/٥ ،
والدرر الكاملة ٧٤/٤ ، ٧٥ ، بدلة الوباء ٢١٦/٥ ، شذرات الفحب ٢٥١/٥ ، الأعلام التزكي ٤/
٢٢٥ ، السلوك التقريري ٢٨٩/١ .

(٢) له مصنفات أخرى منها: المقيد في إعراب القرآن المجيد ، والبرهان الكاشف عن إعجاز القرآن .

(٣) انظر: مقدمة تحقيق كتاب التبيان د. أحمد مظلوب ود. خديجة المديش .

(٤) ذكرها المحقق للأبي ، وهو خطأ ، وال الصحيح ما ذكر ، وهي من تحقيق المالم الثبت: ١ د. زغلول
سلام . انظر: تاريخ النقد العربي من ٢٤٥ .

(٥) انظر: التبيان في علم البيان لابن الزمكاني من ٢٠ . تحقيق د. محمد مظلوب ، د. خديجة
المديش مطبعة الماتي / بغداد سنة ١٩٦٤ .

(٦) المصدر السابق: من ٢ .

ولم يقف ابن الزملکانی على ما جاء في كتاب « دلائل الإعجاز » فقط - وإنما تجاوزه إلى غيره من كتب بلاغية أخرى ، لم يشر إليها ، ودليل ذلك بحثه في فنون البديع التي لم يتعرض لها عبد القاهر إلا عرضاً في كتاب « أسرار البلاغة »، وأغلبظن أن المؤلف قد اطلع على كتاب « نهاية الإعجاز » الرازی ، واستقاد منه ، ومن كتاب سر الفصاحة لابن سنان ، وما كتبه شیاً الدين بن الأثير . وغيرهم من سبقوا المؤلف في التأليف البلاغي .

وزعم الدكتور أحمد مطلوب محقق الكتاب أن ابن الزملکانی استقاد من كتاب المفتاح السکاکی ، ولا تميل إلى هذا الرأی بالرغم من تأخر ابن الزملکانی في الحياة عن صاحب المفتاح ، ذلك لأنه لم يوزع مباحث البلاغة بين علومها الثلاثة - كما فعل السکاکی ، - ولكنه احتفظ باسمها المأثور « علم البيان » وجعلها كلها في إطار « علم البيان » كما فعل ابن الأثير في كتاب « المثل السائر » فضلاً عن أنه لم يجر لصاحب المفتاح ذكر في الكتاب .

ويعتمد ما ذهبنا إليه ما ذرته أستاذنا الدكتور زغول سلام من أن الجزء الأكبر من الكتاب « البيان » يستقره المؤلف في متعلقات الألفاظ ، وتراتيبها التحوية ، والصرفية إذ يجمع كثيراً من مباحث عبد القاهر في الدلائل بالإضافة إلى بعض مباحث ابن سنان التفاجي وابن الأثير (۱) .

أما منهج ابن الزملکانی في كتابه ، فقد رتبه على سوابق ومقاصد ولوافق ، يجعل من السوابق مقدمات ثلاثة : أولها : في فضل علم البيان ، وثانيها : في حصر موقع الغلط في اللقط ، وثالثها : في حصر طريقة تحصيله وأما المقاصد فقسمها إلى ثلاثة أركان :

الرکن الأول : في الدلالات الإفرادية ، وقد درسها في ثلاثة أبواب : الباب الأول : خصص الكلام في الحقيقة والمجاز ، وقسم المجاز إلى كتابة واستعارة ، وتمثل يجيء على حد الاستعارة (۲) وهذه المباحث الثلاثة داخلة في علم البيان كما حده السکاکی .

أما الباب الثاني ففرق فيه بين الإيات بالاسم والفعل ، والمرارة والتکرة (۳) وفي الباب الثالث تحدث عن مفردات شئت عن الضوابط (۴) ودراسة المؤلف في البابين الآخرين يظهر عليهما الطابع التحریی ، وأكثرهما يدخل في علم المعانی ، ولا ننجذب من ذلك لأن ابن الزملکانی عالم من علماء التحریی يدور في ذلك عبد القاهر الهرجاني .

أما الرکن الثاني من المقاصد فجعله المؤلف في مراعاة أحوال التأليف ، وقدم لهذا الرکن بمقدمة قال فيها : « يجب على الناشر والناظم ، أن يراعي ما يقتضيه اللقط من الحقيقة والمجان .

(۱) انظر : تاريخ النقد العربي من ۲۶۶ .

(۲) - (۳) - (۴) انظر : البيان في علم البيان من ۳۷ ، وما بعدها ، وص ۴۹ ، من ۵۰ على الترتیب .

وغير ذلك ، وما يقتضيه علم النحو أصوله وقوره ... وأن تراعي أحوال التأليف بين المفردات والجمل حتى تكون أجزاء الكلام بعضها أخذًا باعناق بعض ، فيقوى بذلك الارتباط ، ويصير التأليف حاله حال البناء الحكم المتلائم الأجزاء^(١).

وقد درس صاحب الكتاب في هذا الركن إثنين عشر فناً منها : التقديم والتأخير ، والمجاز الإسنادي والتشبيه ، والإيجاز ، والتاكيد ، والخداع ، والمنسوبيات ، ومعرفة الفصل والوصل ، والقوانين التي يعرف بها أحوال النظم^(٢) وكل هذه الفنون باستثناء المجاز والتثليل مما يدخل في علم المعانى .

وخصص الركن الثالث في المقاديد في معرفة أحوال اللقط ، وأسماء أصنافه في علم البديع وفيه مقدمة وأصناف ، أما المقدمة فتشتمل على بحث كلٍ يتعلّق بمخارج العروف^(٣) والأصناف متعددة ويقصد بها ضروب البديع المعرفة كالتجنيس ، والترصيع ، والاشتقاق ، والتطبيق ، وإنم ما يلزم ... إلخ ، وعد منها ستة وعشرين نوعاً^(٤) ولم يحصل ابن الرملkan على كل أنواع البديع التي ذكرها السابقون . وقد كان ذلك عن قصد منه ، واعترف بذلك في قوله : « وما أعمل ذكره في هذا الركن فمعلوم مما ذكر فيه ، أو مستقى عن ذكره لاشتمال الركنتين السابقتين عليه ، وأنه ليس متعلق غرضتنا في هذا العلم »^(٥) .

وتكلم في القسم الثالث من الكتاب عن الواقع . وبين فيه الجهة التي تحصل بها البلاغة وإعجاز القرآن ، وعرض في هذا المقام خمسة آراء ، فندها جميعاً ، ولم يرتكب منها إلا رأياً واحداً وهو أن يكون الإعجاز راجحاً إلى توخي معانى النحو وأحكامه في النظم^(٦) . بذن يقع كل فن في رتبته العليا في اللقط والمعنى والإفراد والتركيب^(٧) لذنب الرملkan إذن - يجري مجرد عبد القاهر في تبني نظرية النظم ، ويرى أن علم البيان عبارة عن توخي معانى النحو في التركيب .

ويقسم الأستاذ الدكتور شوقى ضيف على صاحبنا من هذه الناحية ويمدح بما يشبه النم بقوله « وربما كان أهم ما يميز هذا الكتاب - يقصد التبيان - أن صاحبه لم يحسن تلخيص

(١) انظر : المصدر السابق : من ٨٩ . وبيدو أثر عبد القاهر على المزلف وأقسامها في العبارة .

(٢) انظر : المصدر السابق من ٩٤ : من ١٥٩

(٣) انظر : التبيان في علم البيان من ١١٥ (٤) المصدر السابق من ١٦٦

(٤) انظر : المصدر السابق من ١٦٦

(٥) والقول بذلك للنظم يرجع إلى عبد القاهر صاحب النظرية التي نصّلها . ودافع عنها . وجعلها

وأبيه في بيان وجه الإعجاز . انظر : دلائل الإعجاز لعبد القاهر من

(٧) انظر : التبيان من ١٩١ وما بعدها .

دلاطل الإعجاز ، وأنه خلطه بكثير من مسائل الطبع والتحو ... وليس في الكتاب على حد قوله «تنوّق حسن التصوّص إنما فيه مخلويات تحوية ومنطقية لا تغنى عنهاً منكراً»^(١).

والواقع أن الأستاذ الدكتور محقق فيما ذهب إليه ، لأن كتاب «التبیان» جاء تلخیصاً لنظرية عبد القاهر إلى البلاغة وإرثه في الماعن والنظم ، والتي هي محل تقدیر وإعجاب من الأستاذ الدكتور ضيف^(٢) - فضلاً عن أن ابن الزملکانی لم يكتف بتلخیص إرث عبد القاهر وتنظيمها في أبواب ، ولكن شخصیته كانت تطل علينا في كثير من المواضع التي نص فيها جودة الطبع ، وبراعة النطق ، وأثر الفهم الجيد ، والنظر المعن فيما عرض من موضوعات .

وأعم ما يميز كتاب «التبیان» بحق هو حرص المؤلف على ربط البحث البلاغي بالقرآن الكريم ، وفكرة الإعجاز فيه ، وي逞خ ذلك من عنوان الكتاب ، وجواهر بحثه الذي أداره حول القرآن وبيان إعجازه في سبيل الوصول إليه ، كما كان هدف غيره من سبقه من المشارقة كعبد القاهر اليرجاني ، والزمخشري ، والفارسی^(٣) .

هذا والممؤلف كتاب آخر بعنوان «البرهان» وموضوعاته تتلقي بكتاب «البيان» ولا تخرج عنها إلا في بعض الأمور .

وللفرق بين هذا الكتاب وكتاب «التبیان» فالفارق قسم «التبیان» كما أسلفنا - إلى ثلاثة أركان ، وقسم البرهان كذلك- إلى ثلاثة أقسام ، ومنهج الكتابين واحد لا اختلاف إلا في التسمية وبعض التفصیلات التي سماها بأسماه مثل : «تنبیه - دقیقة - وهم - خاتمة » ، ويزکد محقق الكتاب على أن ابن الزملکانی أخذ الكثير من كتاب «التبیان» وأدخله في «البرهان» ، وهو في كتابه يسرى على خطاب عبد القاهر اليرجاني^(٤) .

ولقد كان «التبیان» و«البرهان» معأ من المصادر المهمة عند العلی في كتابه «الطران» والسبکي في «عروش الأفراح» وأبی حیان الاندلسی في تفسیره «البحر المحيط» .

(١) انظر : البلاغة تطور وتاريخ من ٣٦٥

(٢) انظر : المصدر السابق من ١٦٠ يقول : ولعبد القاهر مكانة كبيرة في تاريخ البلاغة لأنه استطاع أن يضع نظريته علم الماعن والبيان وضمناً دقيناً إلخ

(٣) انظر : تاريخ النقد العربي لاستاذنا الدكتور زغلول سالم من ٢٤٦

(٤) انظر : مقدمة تحقيق كتاب «البرهان الكافش من إعجاز القرآن» من ٢٨ - تحقيق د. أحمد مطرب والكتورة خديجة الحديث - طبعة الماعن / بغداد سنة ١٩٧٤ م

كتاب روضة الفصاحة للرازي (ت سنة ٦٧٦ هـ)

ولد زين الدين محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي^(١) الحنفي بمدينة الري وإليها نسب ثم رحل إلى مصر وأقام بها ، وهو صاحب معجم « مختار الصحاح » .. وبيه اشتهر بين المشتغلين باللغة والأدب .

وأقدم أضطراب كثير من المترجمين له في تحديد سنة وفاته ، غير أن المرجح من أقوالهم أنه توفي سنة ٦٧٦ هـ^(٢) ، الرازي مصنفات في التفسير ، وغيره القرآن ، وعلوم البلاغة أشهرها كتاب « روضة الفصاحة » .

يبدأ المؤلف كتابه ببيان أهمية علم البيان في كونه مفتاحاً لأسرار القرآن العزيز ، ويرى أنه الطريق الواضح إلى معرفة بدائع إعجازه ، وبلاغة إعجازه ، فضلاً عن أنه حمل تقد الشعر الذي هو ديوان العرب ، ومعuran الأدب ، وأنه لولاه - أي علم البيان - لاتلمس أفق البلاغة ، لأنَّه به يميز ضعيف الكلام ومتنه ، وفتح وسمينه^(٣) .

وذكر المؤلف السبب الذي دعاه لتأليف الكتاب بقوله : « والعلم الذي تمت حسنته ، ودلت على إعجازه سورة وأياته ، وكان الناس قد ألقوا الواجه ، وأطلقوا مصباحه ، ودرسوا معالمه ، وطمسوا مراسمه ، حتى أن أكثرهم لا يفرق بين اسمه وسماءه ، ولا يفرق بين حقيقة لفظه ومعناه^(٤) لذلك كله رأى المؤلف أن يضع فيه مختصرأ ، وسماه « روضة الفصاحة لإحياء هذا العلم الذي درست معالمه من وجهة نظره .

وأوضح من كلام المؤلف البلاغة والمقالة في أسباب الذي من أجله ألف كتابه ، لأنَّ العصر الذي ظهر فيه كان قد وصل إلى مرحلة الرشد في التأليف البلاغي .

ويصف المؤلف كتابه - مرة أخرى في شبيه من البلاغة - بأنه جمع بين الإيجاز المعجز ، والإيجاز الموجز ، وأنه على صغر حجمه لم يرضع منه في شرف ثراه ونبله ، ليكون وسيلة لإظهار مضمون هذا العلم ومكتونه^(٥) .

(١) كشف الثلؤون ٧٥/٢ - ٩٢/١ - معجم المؤلفين لرضا كماله ١٢/٦ ط : الترقى / دمشق سنة ١٩٦٠ .
والاعلام الريكي ٢٧٤/٦ .

(٢) انظر : تاريخ أداب اللغة العربية لبروج زيدان ٣١٠/٢ ، ومعجم الطبوعات العربية والمعربة .
طبع ستركتيس سنة ١٩٧٨ .

(٣) انظر : روضة الفصاحة لمحمد بن أبي بكر الرازي من ٥٥ بتصريف / تحقيق د . أحمد النادي شعلة دار الطباعة المحمدية الأزهرية سنة ١٩٨٢ .

(٤) للمصدر السابق : نفس الصفحة

(٥) نفسه من ٥٦

ووالرغم من أن المؤلف لم يشر صراحة إلى المصادر التي استشارها في بحثه غير أنها تستطيع أن تتبين في أثنائه اعتماده على كثير من كتب البلاغة السابقة ونخضع على رأسها سر الفصاحة لابن سنان ، ودلائل الإعجاز لعبد القاهر ونهاية الإعجاز للرازي ، والإيقاض في شرح مقدمات الحريمي المطرزي ، والكتشاف الزمخشري ، وبيان القرآن لابن أبي الأصبع .

ويقسم الرازي كتابه إلى فصول يتحدث في الفصل الأول منه عن البلاغة والفصاحة ، والوجازة ، والبيان . ويدرك أن أكثر العلماء لا يفرقون بين البلاغة والفصاحة ، ثم يذكر أحسن ما قيل في تعريف كل منها^(١) .

ووحدنا عن الإعجاز ، ويقسمه إلى قسمين : إعجاز قصر ، وإعجاز حذف ، ويشترط لإعجاز المذف ضرورة وجود الدليل على المحتوى ، يقول : « وهذا القسم كثير في كلام الله تعالى وكلام نبيه عليه السلام ، وإنما يحسن ذلك إذا دل الدليل عليه^(٢) .

ثم ينتقل إلى علم البيان ، ويستعمله بمعنى البديع ، ويصرح بذلك قائلاً : « فلما كان علم البيان الذي يسميه بعض المتأخرین مسماة البديع ... »^(٣) . ونلاحظ على الرازي أنه لم يقف طويلاً عند علم البيان إلا ما ذكره في ثانياً موضوعات الكتاب^(٤) ، وتتبين من ذلك ، أن المؤلف لم يفرق بين علوم البلاغة الثلاثة : المعانى والبيان والبديع ، شأنه في ذلك شأن المقدمين من علماء البلاغة ، فهو يخلط بين فنونها ، ويستعمل البيان بمعنى البلاغة ، والفصاحة بمعنى البيان .

ثم يتكلم في الفصل الثاني عن التشبيه والاستعارة والتورية والتناسب ، والتاكيد ، والتقسيم ، والاقتباس ، وعكس الجمل ، والقلب ، والتجنيس ، وهذه المفاهيم أشرف فنون البلاغة وأهمها في نظره ، وهذا الفصل يؤكد لنا ما ذكرناه من أن الرازي - كغيره من المقدمين لا يفرق بين علوم البلاغة الثلاثة ، فالتشبيه والاستعارة من فنون البيان ، وهو يجعلها من علم البديع .

(١) انظر : روضة الفصاحة من ٥٧ - الفصاحة منه : خلوس الكلام من التعقيد ، والغرابة ، أما البلاغة : فهي بلوغ الرجل بعياره حقيقة ما في قلبه مع إعجاز بلا إغفال ، أو إطالة من غير إملال . المصدر السابق من ٥٨ .

(٢) المصدر السابق من ٦٢ . (٣) المصدر السابق من ٥ .
(٤) كقوله بعد تمام كلامه على التجنيس « وهذا آخر المفاهيم التسعة التي هي أشرف فنون علم البيان . انظر من ١٩٣ وقوله في تقسيم رد المجز على المصدر : وهو على خمسة عشر قسماً فيما تسمى بمعنى المحققين من علماء البيان انظر من ٢٦١ .

ويتظر المؤلف إلى التشبيه على أنه أصل لكل من التمثيل والاستعارة يقول : « التمثيل كالفرع للتشبيه ، كما أن الاستعارة كالفرع للتشبيه »^(١) . ثم يقسم التشبيه أقساماً كثيرة منها الصريح والمعقول ، ويقسم الصريح أقساماً ، والمعقول أقساماً أخرى ، ويعود فيقسم التشبيه تقسيماً آخر إلى سبعة أقسام منها : المطلق والمشروط ، والمذكر ؛ والعكس والإضمار ، والتسوية ، ويتحدث عن كل واحد على حدة ، ويمثل له .

ويكاد الرانى هنا - يفرق في التقسيمات الشكلية إغراقاً شديداً ، حتى يخرج بالقارئ إلى خرب من الألغاز ، والمعينات ، وأشباء ذلك مما هو بعيد عن البلاغة كفن ، وبيرا منه النون ، وينفر منه البيان ، وتثاره بالطرزى واضح جداً في هذا الفصل من الكتاب .

ومما يدل - أيضاً - على أن المؤلف يستعمل البيان والبياع يعني واحد إحالته لنا على كتابه « دوحة البلاغة » الذي قصره على فنون ثلاثة : التشبيه والاستعارة والتورية . ويعمل ذلك بقوله : « وإنما جعلته مقصورةً على هذه الفنون الثلاثة ، لأنه أشرف فنون علم البيان ، وألطفها عند كل ناقد بصير ، وفاضل تحرير »^(٢) .

بعد ذلك يتدرج بنا المؤلف تدرجًا طبيعياً ، فيبعد حديثه عن التشبيه الذي يعتبر القاعدة الأساسية لدراسة البيان ، يتحول إلى ما يقتصر عنده من مجاز واستعارة وكتابية ، ويختفي بعد ذلك في مسائل البياع وما فيها من علم المعاني ، وهو في معالجته لهذه الفنون المختلفة يستوحى نونه الأدبيين بقدر ما يستوحى نقله في التقسيم والتقرير ، الذي يشبه إلى حد كبير الطرزى ، والرانى ، والسكاكى في تقسيماتهم البلاغية .

أما الاستعارة فيجعلها قسماً من أقسام المجاز ، ويقسمها ، ويمثل لها ، ويفرق بين أنواعها المختلفة ، ويعجب الرانى بتاثير الاستعارة ، وبخاصة المكتبة منها فيقول : « ومن الاستعارة قسم دقيق شبيه بالسحر ، وهو من أسرار البلاغة ، وكثوزها ، وهو أن تسكت عن ذكر المستعار ، ثم ترمي إليه بذكر شيئاً من توابعه ، وروادقه تتبعها عليه »^(٣) .

وللحق المؤلف التمثيل والكتابية بالاستعارة ، وبطلاً ذلك عنده : اشتراك الثلاثة في كونها مجازاً ، وفي كونها كالفرع للتشبيه ، الذي هو حقيقة ، بلا خلاف بين علماء البيان »^(٤) .

(١) المصدر السابق من ٦٣ .

(٢) انظر : روشة الفصاحة من ٨٩

(٣) انظر : المصدر السابق من ١٠٧

(٤) انظر : المصدر السابق من ١٠٩

وَمَا يُؤْثِدُ عَلَيْهِ الْمُؤْلِفُ فِي هَذَا الْفَصْلِ أَنَّهُ لَمْ يُشَرِّكْ إِشَارَةً إِلَى خَلْفِ الْعَلَمَاءِ فِي مِجَازِيَّةِ الْكَتَابِيَّةِ وَالْتَّشْبِيهِ^(١) . ثُمَّ يَعْدِدُ الْمُؤْلِفُ فَصْلًا خَاصًّا لِلتَّوْرِيرِ ، يَتَحَدَّثُ فِيهِ عَنْ فَضْلِهِ ، وَمِكَانِتِهِ فِي عِلْمِ الْبَيَانِ ، وَأَهْمِيَّتِهِ فِي فَهْمِ الْمُتَشَابِهِ مِنَ الْقُرْآنِ ، وَالْحَدِيثِ ، وَوَاقِعِ الرِّتْخَشْرِيِّ فِي رَأْيِهِ فَيَقُولُ : لَا تَرِي بَابًا فِي عِلْمِ الْبَيَانِ أَدْقَ ، لَا أَطْفَلَ مِنْ هَذَا الْبَابِ ، لَا أَنْفَعَ ، لَا أَعْوَنَ عَلَيْهِ تَأْوِيلِ الْمُتَشَابِهِاتِ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ - تَعَالَى - وَحَدِيثِ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ^(٢) .

ثُمَّ يَنْكُلُ الرَّازِيُّ فِيمَا تَبَقَّى مِنْ فَصْلِهِ فِي مِسَائلِ عِلْمِ الْبَيَانِ ، وَيَعْرِضُ مِسَائلِ عِلْمِ الْمَعَانِي وَمِنْهَا ، التَّنَاسُبُ ، وَالْقَلْبُ ، وَالتَّجْنِيسُ ، وَالاشْتَقَاقُ ، وَالتَّرْصِيبُ ، وَالتَّسْجِيبُ ، وَالْمَوَازِيُّ ، وَالْمَطْرُوفُ ، وَالْمَقَابِلَةُ وَالتَّضَمِينُ ، وَرَدُّ الْعِجزِ عَلَى الصَّدْرِ ، وَغَيْرُهُ^(٣) ثُمَّ ذَكَرْ فَصْلَهُ ، وَأَنْواعَ الْبَيَانِ لَيْسَ ذَاتَ بَالٍ فِي عِلْمِ الْبَلَاغَةِ وَمِنْهَا التَّرْجِمَةُ ، وَهَذَا الْفَصْلُ عَنْهُ أَنَّ يَنْظِمَ الشَّاعِرُ شِعْرًا بِالْفَارِسِيَّةِ ، ثُمَّ يَسْرِئُهُ بِالْمَرْبِيَّةِ ، وَلَا نَدْرِي حَلْلَهُ هَذَا الْفَصْلُ بِعِلْمِ الْبَلَاغَةِ ، وَلِمَا ذَهَبَهُ بِالْفَارِسِيَّةِ دُونَ سَائِرِ الْلُّغَاتِ .

وَهَذَا يَعْنِي أَنَّ مَفْهُومَ الْبَلَاغَةِ عِنْدَ الرَّازِيِّ - كَمَا هُوَ وَاضِعٌ - مِنْ مَنْهُجِ الْكِتَابِ - مَفْهُومَ فَضْفَاضِهِ ، يَدْخُلُ فِيهَا مَا لَيْسَ مِنْ جُنْسِهِ .

وَيَخْتَمُ الْمُؤْلِفُ كِتَابَهُ بِفَصْلٍ قَصِيرٍ جَدًّا دُعَاهُ بِـ « دَقَائقِ الْبَلَاغَةِ » تَحْدَثُ فِيهِ عَنْ وِجْوبِ مَرَاعَاةِ مَرَاتِبِ التَّقْدِيمِ وَالتَّاخِرِ ، وَيُرِي أَنَّ ذَلِكَ يَكُونُ بِمَعْرِفَةِ عِلْمِ النَّحوِ خَاصَّةً ، وَمِنْهَا مَعْرِفَةِ الْفَصْلِ وَالْوَصْلِ الَّذِي جَعَلَهُ بَعْضُهُمْ حَدَّ الْبَلَاغَةِ ، ... وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِفَمْوِضِهِ ، وَنَدْقَةِ مَسْلِكِهِ^(٤) .

وَيَذَّالِكَ يَتَمْ تَلْخِيصُ كِتَابِ « رُوْضَةِ الْفَصَاحَةِ » لِلرَّازِيِّ ، وَهُوَ تَلْخِيصُ جَمْعِ فِيهِ صَاحِبِهِ بَيْنَ الْمَنْهُجِ الْعَلَمِيِّ فِي التَّقْسِيمِ ، وَالذِّرْقِ فِي التَّحْلِيلِ ، وَالَّذِي يَدْلِلُ عَلَى غَزَارةِ عِلْمِ الْمُؤْلِفِ فِي الْبَلَاغَةِ وَالتَّقْسِيرِ ، وَالْمَلَأِ الْمَرْبِيَّةِ ، وَالْفَارِسِيَّةِ .

غَيْرُ أَنَّ الْمُؤْلِفَ يَمْبَلُ فِي كَثِيرٍ مِنْ فَصْلِ الْكِتَابِ إِلَى التَّقْسِيمِ وَالتَّقْرِيبِ ، لِدَرْجَةِ الإِسْرَافِ

(١) لَا خَلَافٌ بَيْنَ الْعَلَمَاءِ فِي كَوْنِ الْإِسْتَعْمَارَةِ مِبَارَزَةً ، وَمِلَاقَتِهِ الْمُشَابِهَةُ ، وَكَذَلِكَ الْإِسْتَعْمَارَةُ التَّشْبِيهِيةُ ، أَمَّا الْكَتَابِيَّةُ فَلَيَهَا خَلَافٌ بَيْنَ الْبَيَانِيَّيْنِ : مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : إِنَّهَا حَقِيقَةُ كَلَامِ الرَّازِيِّ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ بِمِجَازِيَّتِهِ وَهُمُ الْمُجَهِّرُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : إِنَّهَا لِفَلَذَةٍ يَتَجَانِبُهَا جَانِبُ الْمُقْتِدَةِ وَالْمَجَازِ ، أَنْتَرُ جَوَهْرَ الْكَتَرَزِ مِنْ ١٠٦ . وَمَا يَدْعُهَا ، أَمَّا التَّشْبِيهُ فَالْمُلْقُونُ مِنَ الْعَلَمَاءِ يَرِيُّونَ أَنَّهُ مِنْ قَبْلِ الْمُقْتِدَةِ كَمَدِ الْقَاهِرِ وَالرَّازِيِّ وَالسَّاكِنِيِّ وَالْمَنْذُورِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ إِنَّهُ مِنْ قَبْلِ الْمُجَازِ كَابِنِ رَشِيقِ وَابْنِ سَنَانِ وَابْنِ الْأَلَيْنِ الْجَزَرِيِّ .

(٢) نَدْقَةُ الْفَصَاحَةِ : مِنْ ١١٨ .

(٣) الصَّدْرُ السَّابِقُ : مِنْ ٢٧ .

(٤) اَنْتَرُ : رُوْضَةُ الْفَصَاحَةِ : مِنْ ٢١١ - ١٣٣ -

في ذلك ، كما فعل في التجنيس^(١) ، فضلاً عن أن الرازي لم يوفق في تبويه كتابه ، لأن فصوله جاءت مختلطة اختلاطاً شديداً : البيان في المعانى في البين ، مع المحسنات الفظوية ، مع السرقات ، وكان الأجر بالمؤلف أن يصل أبواب كتابه بصورة أحسن ، فيجعل للمحسنات المعنية باباً ، والفظوية باباً آخر ، ويختتم كتابه بالسرقات الشعرية ، ما دام قد أثر الحديث عن البلاغة على نهج القدماء .

كان يؤخذ على المؤلف - أيضاً التكرار في بعض فصوله^(٢) ويسعى بعضها الآخر باسماء أخرى^(٣).

ومن يحسب للرازي في كتابه أنه يعتمد في أمثلته وشواهده على القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، ثم الجيد من نظم الكلام ونثره ، وهذه سمة تقلب على فصول الكتاب .

ويعده فإنتنا لا تستطيع أن تخالف شهادة محقق الكتاب - المرحوم الدكتور أحمد النادي شعلة في الرازي ، والذي اعتبره من كبار أئمة البلاغة ، ووصف كتابه بأنه يمتاز بالدقّة والتنظيم ، وحسن التقسيم لفنون البلاغة ... ومزجه فيه بين الطريقة الأدبية ، والطريقة التقريرية بأسلوب رائع ، ومنهج علمي أدبي تقريري^(٤) واعتبره المحقق دعامة قوية في بناء صرح البلاغة والبيان .

(١) انظر : المصدر السابق : من ١٥٥ والتي قسم فيها التجنيس إلى تسعه أقسام .

(٢) يلاحظ ذلك في فصل الاقتباس الذي ذكره في التجنيس حتى الآونة ، وينتقل حديثه في التجاهل إلى التسلیح ، وما ذكره في التسلیح لا يختلف مما ذكره في « العنوان » لا في التعریف ، ولا الآلة .
انظر من ١٤١/٢٧٢ .

(٣) فالاشتقاق يسميه الاقتباس مع أن الاقتباس شيء مختلف عن الاشتغال من ١٩٤

(٤) انظر : تعليق د . أحمد شعلة - على الكتاب في الفتنة من ٣٢٦ .

الإشارات والتبيهات في علم البلاغة للجريجاني سنة ٧٢٩ هـ

يعتبر هذا الكتاب حلقة في سلسلة الكتب التي سارت على طريقة السكاكي في تفسير البلاغة لكنه انحرف عنها في النهج ، وطريقة التناول ، ومؤلف الكتاب هو محمد بن علي بن محمد الجرجاني الاسترابادي منشأه وموالده ، وقد كان عالماً فاضلاً وأصولياً ومتكلماً^(١) .

والجريجاني ملاحظات بلاغية قيمة أودعها كتابه «إشارات ...» ، ولم يكن الجرجاني صاحب بلاغة فحسب وإنما جمع إلى ذلك براءة في علم النحو^(٢) .

ولذلك نراه يعرض لحكام آئمة النحو التي لها علاقة بالأسرار البيانية ، فيناقشهم مناقشة العارف البصیر ، ويتعقب الجرجاني علماء البلاغة في آرائهم ، فلايسلم بها كما هي دون تقد او مناقشة ، ولكنه يغوص فيها ، ويقابلها على كافة أوجهها المختلفة ، فيناقش ويهاور ، ويقبل ويرد حتى يضع أيدينا على محل الصواب ، وذلك لأن كلهم على حد تعبيره - « لم يكن يخلو من الزينة والسهولة والنسيان »^(٣) .

والجريجاني يصرح بدأته بهذه من الكتاب ، وهو تقرير قواعد البلاغة وتحقيقها ، وانتقاد علماء البلاغة وفترساتها ، من أمثال : الشفاجي ، عبد القاهر ، والزمخشري ، ومعاصره الفزويسي . فملاحظاته إذن شيء يعتمد بها في البلاغة ، ونعتبرها من صميمها ، لأنها على حد علمنا ، أول من كفأ آراء عبد القاهر والزمخشري ، والرازي ، والسقاكي ، وغيرهم من السابقين ، ولم يقبلها على علاتها ، كما فعل غيره من البلاغيين ، بل اعتبر ما وصل إليه أولئك الرواد نقطلة ينطلق منها إلى نقاط أخرى أكثر إيجابية ولم يكتف بالدوران حول نقطتهم تلخيصاً أو شرحاً ، أو تفسيراً .

ويرى المؤلف أنه ينبغي أن تدرس البلاغة ، ويصنف فيها خدمة العقيدة الدينية ، التي تتمثل في فهم القرآن ، وإظهار أسراره التي عجز البلغاء عن مجارتها ، والإتيان بمثلها يقول : «فإن

(١) انظر : أعيان الشيعة للسيد محسن الأمين ط : بيروت ١٩٥٩ ، ومعجم المؤلفين لرشا كحالة من ٢٠٠ ط : دمشق .

(٢) وهو في النحو كتاب المباحث العربية في شرح الكافية الحاجية ، والبداع في النحو ، وشرحه للسمعي الرابع .

(٣) انظر : الإشارات والتبيهات في علم البلاغة لمحمد بن علي الجرجاني من ٢ تحقيق ، د. عبد القادر حسني ، ط. دار تهذيب مصر للطبع والنشر / القاهرة سنة ١٩٧٧ .

علم البلاغة ، علم شريف ، عظيم الشأن ، لكونها كمال الإنسان ، وأصل البيان ، لأن أحكام الشرع تتوقف على صدق السنة ، والقرآن ، وصدق القرآن يتوقف على أنه منزل من عند الرحمن ، وذلك غير مقدور للبشر بسبب البلاغة والبيان^(١) .

فالجرجاني إذن لا يعتبر البلاغة مجرد تدفق فني فقط ، بقدر ما هي مقصد ديني يخدم كتاب الإسلام ، ويوضح أسراره ، ويجلب بالغته وبيانه .

أما منهج الكتاب فيقيم على مقدمة وفنون ثلاثة ، اشتغلت على علم المعانى والبيان والبدىع ، وختامة تضمنت مسائل ثلاث : سرقات الشعراء ، وما يشبه السرقة ، والاتقاباس ; وقسم الكتاب إلى أركان ، والأarkan إلى فصول أو فقر طولية ، يسمىها على التوالى إشارة ، ثم يتبعها بما يسمى « هم وتنبيه » ، وتتوالى الإشارات والتنبيهات داخل الكتاب من مقدمته حتى خاتمتة .

فإلاشارة يقرر فيها قاعدة من قواعد البلاغة ، وتحقيقها ، والوهم يذكر فيه ما وقع فيه أعلام البلاغة ، وبين ما فيه من خطأ ، ويعقب عليه بما يراه صواباً ، فإن وجدها صائبةأخذ بها من غير تعليق ، أو اعتراض ، وإن وجد فيه ميلأ أو انحرافاً ، أو شروداً عن الصواب أشار إليها وحللها تحليلاً علمياً وبلاعجاً رائعاً .

أما التنبيه فيركز فيه على الصواب ، وينبه عليه ، ولا تكاد تخرج من مسألة بين الجرجاني وعدهما ، وينبه على صوابها حتى يجرئ إلى مسألة أخرى فيعرض لها بمثل ما عرض لأختها ، في صير شديد وجذ عجيب ، وهكذا دواليك حتى آخر الكتاب ، وأهل هذا هو الجديد الذي جاء به الجرجاني في كتابه .

أما المقدمة فشخصيتها للمبادىء ، وما يجري مجاراها ، وتحصص عنده في صور التراكيب العربية ، وموضوعات علمها ، وحدودها ، يجعل التراكيب باعتبار أوزانها لعلم العروض ، وباعتبار أحوالها التي توجب معرفتها صحة التركيب هي موضوع علم النحو ، وباعتبار تطبيق أحوالها المارضة لها على أحوال المعانى هي موضوع علم المعانى ، وباعتبار كون دلالتها على المعنى المراد بشركة العقل هي موضوع علم البيان ، وباعتبار نسبة بعضها إلى بعض لفظاً أو معنى بالتحسين والتقييم هي موضوع علم البدىع ، ثم يعرف كل علم من العلوم الثلاثة الأخيرة (المعانى والبيان والبدىع) .

(١) المصدر نفسه ، جن ١ .

ثم تحدث عن نسبة العلوم بعضها إلى بعض ، وقسمها إلى مراتب يعلو بعضها بعضاً حتى تنتهي إلى أعلى رتبة ، وهي الإعجاز ، ويشترط على صاحب كل علم ألا يتسلل الكلام من ينقدمه إلا بعد كمال صنته^(١).

ويطيل الجرجاني الحديث من الفصاحة ، التي تدخل في المفرد والركب ، ويتحدث عن فصاحة المفردات ، واللفظة المفردة تخرج من الفصاحة ، إذا لم تدخل من اجتماع المثنين لفظة « الأجل »^(٢) واجتماع المقاربين في المخرج لفظة « معجم » والمستثمرات^(٣) أو جات غريبة أو عامية ، أو معيرة عن غير ما عبرت به « العرب » « كاتب » أو أن تكون الكلمة المستعملة معنى آخر يكره ذكره « كالكتيف »^(٤) ، أو أن تكون خارجة عن حد الاعتدال^(٥) .

وهذه الشروط التي اشتهر بها الجرجاني لتكون الكلمة قصيبة ، تؤكد على دقة إحساسه بجمال النَّقْمِ ، واتساق الصِّرْفِ ، وأنه إذا حكى سمعه كلمة ثانية لم يالفها فيما استمع من فصحاء العرب ، أخرجها عن الفصاحة ، كل ذلك اعتماداً للخفة ، وتجنياً للتقليل في النطق . وهو لا يكتفى بوضع أيدينا على الشروط فحسب ، وإنما يكثر من ضرب الأمثلة ، والشواهد التي يحللها تحليلًا فنياً رائعاً ، غير أنه يجرى مجرى ابن سبان الخواجى فيما اشتربطه لفظة المفردة^(٦).

(١) فالرتبة الدنيا تتعلق بالواضع ، والثانية بالتصريفي ، والثالثة بالتحوى ، والرابعة بصاحب علم المعانى ، والخامسة بصاحب علم البيان ، وال السادسة بصاحب علم البديع . انظر : الإشارات والتبيهات من ٤ .

(٢) كما في قول الشاعر : الصد الله العلي الأجل – وهي مطلع أرجوزة ابن التهم بن قادة العجلى وبعد : الواهب الفضل الكريم المجزل .. أمعن فلم يدخل ولم ينزل . معاهد التصييس ١٨٧١ . والإشارات من ٤ .

(٣) في قول أعرابى لما سئل عن ناقته : إنها ترعى اليمفع (وهو نوع من الثبات ترعاه الإبل والمستثمرات : كما في قول أمرى القيس : قداثه مستثمرات إلى العلا .. تصل المدارى في مثى ومرسل . انظر : ديوان أمرى القيس من ٧٧ ، والإشارات والتبيهات من ٤ .

(٤) وهو في اللغة السائرة ، ويطلق على بتر الفانط .

(٥) انظر : الإشارات والتبيهات من ٨ ، ٧ .

(٦) سر الفصاحة من ٦٣ .

ولا يعتمد الجرجاني في مناقشته لفصاحة الكلمة على الشفافية والذوق بعدهما ، بل لا بد من أسلوب علمية ملائمة ، وأذلك فهو يرى وهما على ابن سنان حين يرجع فصاحة الكلمة إلى حسن وقوعها في الأذن - كتائيف عنبر وعنبر ، وأغصان الباي ، وصالبيج الشوشط^(١) ، نجد الجرجاني لا يقنع بهذا التعليل ، لأنه في نظره تعليل الشيء يتضمنه ، ونراه يعلل منه ذلك بعلل^(٢) شبيهة بالأساليب العلمية .

و الواقع أن التهم مردود على الجرجاني ، لأن البلاحة تفتر من ذلك لأنه قن من الفتن ، والفن يقبل التطوير والتتجدد ، وينطلق إلى أبعد الخيارات^(٣)

والجرجاني لم يقتصر حديثه على فصاحة المفرد فحسب ، وإنما تحدث أيضاً عن فصاحة الكلام ، لافتانته إلى ما يُخْلِل بفصاحة الكلام لتحاشاه وهي أمران : أحدهما عدم مراعاة ما ينبغي من التقديم والتأخير ، وهو ما عبر عنه القدماء بسوء الرصف والنظم والسبك^(٤) كقول النابية الديبيانى :

جزى ربه عن عدئي بن حاتم * جزاء الكلاب العاويات وقد فعل^(٥)

كان ينبغي أن يقول : جزى عدئي بن حاتم ربه ، ليعود الضمير في ربه إلى متذكر ، بعد أن عاد الضمير إلى عدى .

وثانيهما : أن يحصل بسبب اجتماع حروف متباينة ثقيلة زيادة الثقل . كقول الشاعر :

وقبر حرب بمکان قفر * وليس قبر قبر حرب قبر

فإن تكرار القاف « الثقل في هذه المفردات ، أوجب الثقل القوي المخل بالفصاحة» ويرد المؤلف على المعاصر (الخطيب التزويني) قوله في بيت أبي تمام ، لكنه مخلاً بالفصاحة لاجتماع حرف في حلق في أمنده ، في قول الشاعر : (أبو تمام)^(٦).

(١) انظر : سر الفصاحة من ٦٤ وما بعدها .

(٢) يقول : والتحقيل إن المزية في نحو : عنبر فحسن مطلة بعلتين إحداهما : أن كل واحد مركب أعدل تركيب وهو الثالثي سakan الوسيط ، والثاني : أن كل واحد مركب من حروف متباينة في المخرج .

انظر : الإشارات والتبيينات من ١٠٠ - ٩ .

(٣) انظر : منافع بالغية د . أحمد طلوب من ٢٩٧

(٤) وسوء الرصف هو تقديم ما ينبغي تأخيره من الألفاظ ، وصرفها عن وجوبها ، وتغيير صيغتها ، وبمخالفة الاستعمال في تنظيمها . انظر المصادرتين المskري من ١٦١ .

(٥) انظر : ديوان النابية من ١٢٧ . م . بيروت

(٦) انظر : ديوان أبي تمام ٢ / من ١١٦ ، ومسر الفصاحة من ١١٣ ، والإشارات والتبيينات من ١٢٠ - ١١ .

كريم متى ألمحة أمدحه والوى معنى وإذا ما لته لته وحدى
يرفض البرجاشي هذا القول من الخطيب ويرده ، لأنه جاء مثله في القرآن ، وهو قوله
تعالى **«وَسَبَّهُمْ أَلْيَلًا طَوِيلًا»** (١) ونلاحظ عليه أنه لم يكتف بمجرد الرد ، بل يشققه بالدليل
الافتراض ، والمتألف كان حقاً فيما ذهب إليه ، لأنه يزيد رأيه بالشاهد القراءتي ، وهو دليل قاطع ،
ولأن الحديث كما هو واضح في فضاحة الكلام ، لا فضاحة الكلمة .

ويجب الباحث كف غاب هذا عن القزويني بالرغم منوضوحه وقرب فهمه . ولم يغب عن السبكي - أحد شراغ التلخيص - الذى وافق الجرجانى فيما ذهب إليه فى هذه المسالة ، وخالف القزويني أيضاً ، غير أن كلام الجرجانى فى المساله كان أدق وأعمق^(٤) .

والقصاحة في رأي المخالف ، لا تختص بالكلام فقط ، وإنما هي من خصائص المتكلم ، التي تشمل حالي التلق والاسكوت ، لأن الفصيح - في نظره - فصيح ، وإن لم يتلوك ، ثم يعرف الفصاحة ، وبعضاً في شرح مفردات هذا التعريف شرحاً يدل على ثقافة منطقية بارعة وـالقصاحة ترجع عنده إلى الألفاظ مفردة ومركبة⁽²⁾ .

أما البلاغة فتري أنها تختص بالكلام باعتبار دلالته على المعنى ، لأن البلاغة تأكيد المعنى على وجه مخصوص بالفاظ مخصوصة ، أو تطبيق الألفاظ المخصوصة على المعنى المخصوصة ، ويجعل البلاغة مشتملة على الفصاحة ، والفصاحة جزء منها ، فكل بلغة قصيبة ، وليس كل قصيبة بلغة⁽¹⁾ .

وأسقط قول ابن سنان في رجوع البلاحة إلى الانفاس كما أسقط قول الجرجاني في رجوعها إلى المعانق ، وفقد رأيهما ، ووصممهما بالخطا ، وال موضوع في نظره ، لم يصب للثبات فيه لا ابن خجاجي ، ولا عبد القاهر^(٤) . ويرى (الجرجاني) أن الفحصاة ترجع إلى لافتاظ مفردة ومركبة^(٥) .

ولا يحق لنا أن نسلم بهذا الحكم من غير مناقشة ، لانه بالرجوع إلى ما ذكره صاحب سر الفصححة ، وکلام عبد القاهر في دلائل الإعجاز ، وجدنا خلاف ما نظر صاحبنا ، فإن

٢٦٤) الإنسان آية /

١٣٩/٦) انتظر : عرض الافتراض

^{١٢}) انظر : الإشارات من ١٢ ، ١٤ ، ١٥ .

^{١٧}) انظر : الإشارات والتبيهات من ٦٧ .

٢٦٠، ٢٥٠، ٢٤٠) المصادر نفسه.

١٥ / نلسون

ابن سنان يرى أن الفصاحة مقصورة على وصف الألفاظ ، والبلاغة لا تكون إلا وصفاً للألفاظ مع المعاني ،^(١) ويتساءل الباحث : أي فرق هنا بين كلام ابن سنان وكلام الجرجاني ؟

وإذا عدنا إلى عبد القاهر وجنتاه يذكر على مكان الكلمة في النظم ، وملابساتها لمعنى التي تليها ، والنظم عنده عبارة عن توخي معاني التحول في معاني الكلم^(٢) ، ويظهر من ذلك أن عبد القاهر لا يكتفي بإرجاع الفصاحة إلى المعاني ، كما زعم على الجرجاني ، فعبد القاهر – كما هو واضح في دلائل الإعجاز – لا يعتمد بالنظم في المعرفة ولا ينظر إليه ، وكما لا يتأتى النظم في المعرفة ، لا يتأتى كذلك في الكلمة منفردة ، بل المهم عنده هو نظم الكلام .

وإذا كان عبد القاهر يقرر أن الألفاظ خدم المعاني^(٣) ، فإنه لا يعني بذلك أن تكون العناية بالمعاني وحدها دون الألفاظ ، وإنماقصد من وراء ذلك أن العناية بالألفاظ ضرورية للعناية بالمعاني ، وشرف المعنى وفخامته ، لا يظهر إلا برفقة النظم وجزالته .

و واضح مما سبق أن الجرجاني لم يزد في كلامه على الفصاحة عن شرح ، أو أقل محاولة اختصار لما قاله عبد القاهر ، فالرجлан معاً يتفقان على أن الفصاحة ترجع إلى الألفاظ مفردة ومركبة ، وهذا أبلغ دليل على أن الجرجاني المتاخر لم يوفق كل التوفيق في إشاراته وتبيهاته ، وما ذكره من أوهام وأخطاء ادعىها على أعمال البلاغة وأساطينها .

وإذا تقدمنا قليلاً في الكتاب بعد المقدمة ، وجدنا الجرجاني يقسمه إلى ثلاثة فنون وخاتمة ، ثم يأخذ في بحث الفن الأول ، ويشتمل على مقدمة ، واركان ثانية ، عُرف في المقدمة علم المعاني ، وعلم التحول ، واستدرك على السكاكي لتساهمه في تعريف علم المعاني ، ثم تحدث في بقية الأرakan على الإسناد ، وما يعرض له ، ناقداً كلام السكاكي في نفي المجاز العقلي ،

(١) ويرى عبد القاهر الجرجاني أيضاً أنه يتطلب أن ينظر إلى الكلمة قبل تحويلها في التأليف ، وبين أن تشير إلى الصورة التي يمكن الكلم إخباراً ، أو أمراً ، أو تهياً أو استخيراً ، وتحميلاً وتندي في الجملة معنى من المعاني التي لا سبيل إلى إلعادتها : لا يضم كلمة إلى كلمة ، وبينما لفظة على لفظة وشرط تناقض الكلمتين المفردتين أن ينظر إلى المكان اللذين تتعامن فيه من التأليف ، والنظم ، وحسن للاستعمالان لها معاني جارتها . انظر : أسرار البلاغة ٦

(٢) انظر : دلائل الإعجاز من ٢٥٣ .

(٣) ويظهر هنا تأثر عبد القاهر بآية الذي احتفظ بتغييره في أن الألفاظ خدم للمعاني ، والخدود – لا شك – أشرف من الخادم . انظر : أسرار البلاغة ١٢/٢٨٠/٢٧٠/٢٨٠ والشمساتس لابن جني ٢١٥/١ وما بعدها .

وذكر المستد إليه وتعرض فيه للالتفاقات ، ويمضي الجرجاني فيلقي الضوء على كثير من الآراء البلاغية التي تستند جذورها من علم النحو ، فلا يسلم بها على علتها ، ويعيد النظر في كثير من المفاهيم البلاغية التي استقر عليها علماء البلاغة ، يراجعها بذكرة ، ويندلي فيها بذلوه ، يتحقق حينا ، وأحيانا أخرى لا يحالفه التوفيق .

ومن أمثلة ذلك رأيه في « إن » الذي حكم النحاة باتفاقها تقلب المستقبل إلى الماضي ، فيقول : وهو وهم : لأن المضارع مشترك بين الحال والاستقبال (١) ، ومن مراجعاته فيما استقر عليه البلاغيون الإخبار بالجملة أنه إذا أردت الإخبار بالجملة الحدوث أنت بالجملة الغفولة ، فإن أردت التبرير أنت بالجملة الإسمية ، وعلق على أمثلة الخطيب بيقول : فيه نظر ، ولكن لم يقدنا بوجهة نظره (٢) .

ويفرق المؤلف بين « إذا » ، وإن » بقوله : « فإن كان السبب راجع الواقع في اعتقاد الكلم أنت بالفظة » إذا « وإذا كان مشكراً فيه أو مرجحاً أنت بالفظة » إن « ووضع « إذا » يستعمل معه غالبا لفظ الماضي ، كقول تعالى : « إِنَّا جَعَلْنَا الْحُسْنَةَ قَالَوا : لَئِنْ تَدْعُونَا سَيَّئَةً يَطْهِرُنَا يَعْوَسْنَا وَمَنْ تَعْمَلْ (٣) » وواقع الحسنة راجع ، وواقع السيئة مرجوح لكنه ثابرا (٤) .

والواقع أن الفرق بين « إن » ، وإن » مشهور بين علماء البلاغة والنحو ، وينصون عليه في كتبهم كافة ، ورغم ذلك فالمؤلف لم يشر أبدا إشارة الجذور الأولى للذكرة التي تضمنها كتاب سيبويه ونسبها إلى أستاذة الخطيب بن أحمد (٥) ، والذي سار عليه العلماء من بعده حتى الزركشي ابن القرن الثامن الهاجري ، لا يتعاده أيضا (٦) .

ثم يتناول في بقية الأركان القصر وأنواعه ، والفصل والوصل ، والإيجاز ، والإطناب ، والمساواة (٧) ، ويلاحظ على الجرجاني في هذه الأركان أنه يعتمد على النحو ، ويؤكد العلاقة

(١) انظر : الإشارات والتبيّنات من ٧٦ . (٢) المصدر نفسه من ٧٦ .
(٣) سورة الإعراف / آية : ١٢١ . (٤) الإشارات والتبيّنات من ٦٦ .

(٥) قال سيبويه : وسأله الخطيب عن « إذا » ما منهم أن يجاوزها بها ؟ فقال : الفعل في « إذا » ينزله في « إِنْ » « فإذا » فيما يستقبل بمنزلة « إِنْ » فيما مضى ، وبين هذا ، أن « إن » تجيء وقائما معلوما لا تجيء أبدا لو قلت : أتيت إذا أحمر البسر ، كان حسنا ، ولو قلت : أتيت إن أحمر البسر ، كان قبيحا ، فإنـ أبدا ميبة . انظر : الكتاب لسيبوهه ٤٢٢/١ .

(٦) انظر : البرهان الزركشي ٢ / ٤٣٢ .
(٧) انظر : الإشارات والتبيّنات من ٧٧ .

بيته وبين البلاهة وصاحتها في كثير من مناسبات هذا الباب أنه إذا أراد أن يدل على خطأ فكرة من الأفكار يبحث لها عن تطبيق في علم آخر ، واللاحظ أنه لا ينبع من بين العلوم إلا التحو ، ليذكر وجهة نظره في رد الخطأ ، وإبراز الصواب^(١) .

والحقيقة أن الإشارات والتبيهات التي أوردتها المؤلف بحاجة إلى تقصٌ أكبر ، ويبحث أطول: للجزم في صحة ما ذهب إليه الجرجاني ، أو فساده ، وربط جهوده البلاهة بجهودها الأولى ، سواء أكانت تحويلية أو بلاغية^(٢) .

وخصوص الجرجاني الفن الثاني لعلم البيان ، الذي بناء على مقدمة ، وثلاثة أركان وخاتمة، أما المقدمة ففي تعريفه ، وبيان موضوعه ، وتتضمن مسائل علم البيان في : التشبيه ، والكتابية ، والمجاز وبدأ حديثه بالتشبيه ، وبين السبب الذي من أجله عظم التشبيه عند علماء البلاغة ، ذلك كونه أعلى بالطبع ، وأذن للنفس ، وله ففع عظيم في باب الخطابة^(٣) ، وقسم التشبيه إلى عدة أنواع^(٤) ، ويدعى أحياناً على الخطيب القرزيوني أموراً لم تجد لها في إيضاحه^(٥) .

وشرط التشبيه عنده كون وجه الشبه ظهر في المشبه به من المشبه ، وقائمة قلب التشبيه نقل تلك الزيادة من المشبه به إلى المشبه ، لقصد البلاغة^(٦) ، وبين المؤلف وجود التشبيه المقول في القرآن الكريم خلافاً للخطيب ، وجمع أرباب البلاغة والبيان ، الذين توسموا وجوده في القرآن يقول : « قلب التشبيه وإن كان من محسن الكلام ، لكنه لا يوجد في كلامه تعالى لأن كلامه على وجه التحقيق ، لا على المبالغة التي تشبيه الكتب »^(٧) .

ومن هذا القول تلاحظ أن المقص البلاغي عند الجرجاني أتقد منه عند القرزيوني ، ومن جراءهم في هذه المسألة ، وتتبّع السبكي لهذا الملحوظ المحسن ، وتتابع المؤلف فيما ذهب إليه

(١) وبهذا السبب خصمتنا إلى العلماء التحويين الذين كان لهم دور بارز في الدراسات البayanية القرآنية.

(٢) ونقترح أن يتضمن باحث دراسة هذه الإشارات والتبيهات بدراسة توسيعية تبرز جهود الجرجاني البلاهية التي لا تقل شأنها عن الرواد الأولين.

(٣) انظر : الإشارات والتبيهات من ١٦٩.

(٤) منها تشبيه الميسور باليسير ، والمسموع بالسموع ، والشائع بالشائع ، والمتوق بالمتوق ، والملموس بالملموس . انظر : المصدر نفسه من ١٧ وما بعدها .

(٥) في عرض كلامه على قوله تعالى « من ليأس لكم وانتقم ليأس لهن » البقرة / ١٨٧ . قال المعاشر : إنه وجه حسي وفيه نظر . انظر : المصدر نفسه من ١٦٩ . وهذا القول لم تنشر عليه في الإيضاح .

(٦) المصدر نفسه من ١٦١ .

« لأن اللتب إذا جوز في الكلام ، والشعر اتساعاً لفهم المعنى ، فإن الضرورة في الشعر ، وهي كلام العرب ، وليس من هذا شيئاً في القرآن الكريم »^(١).

وفي معرض حديث المؤلف عن التمثيل يشير إلى وجه الشبه الذي كلما جاء تاماً كان التشبيه أفضل ، ولكنه لا يرتضى أن يكون وجه الشبه المطلق أرجح من المقيد لكنه أظهر عند النفس ، وأبعد من القرابة ، لأن مبني علم البيان على عكس ذلك ، لأن الأحسن ، أو الأليم أيهم والأليم يصرف النفس عنه أكثر ، وكلما كان تصرفها أكثر كان أفعى وأذل »^(٢).

ويؤكد على أن عامة علم البيان : هي هذه اللذة ، التي لها مرتبة حلية عند النفس ، ومع ذلك فهو يستهجن أن يكون وجه الشبه مشهوراً مبتداً ، ويرفض الاحتيال في إخراجه إلى القرابة بقيد مبهم وبينو تأثير المؤلف بالجاحظ في هذه المسألة .

أما أقوى مراتب التشبيه عند الجرجاني فهي حذف أداته ووجه شبيهه معاً ، لأن ذكر الأداة يدل على ثبوت مزية للمتشبه به على المشبه ، التي باعتبارها استحق أن يشبه به ، دون العكس ، فحذفها يوم عدم تلك المزية ، وذكر وجه الشبه يدل على انتفاء وجه آخر له ، فحذفه يوم عدم التشبيه في جميع صفات المشبه به^(٣).

ثم ينتقل بنا المؤلف إلى المجاز الذي يرفض أن يقسمه إلى نوعي وعقولي ، لأنه لا يعترف بالجاز العقلي ، لأن دلالة المركبات عنده لغوية لا عقلية كما زعم ، مخالفًا بذلك جمهور البلاطيين ، ويورى أن المجاز كله لغوی وإن كان العقل دلالتها على معاناتها المجازية شركة مع الوضع^(٤) وعلى هذا فهو يقسم المجاز اللغوي إلى المجاز الإفرادي والتركيبي ، و يقدمه على مجاز التشبيه « ليطابق الوضع الطبيع ، لأن المجاز يفيد التصور ، والتشبيه يقيد التصديق ، والتتصور مقدم على التصديق »^(٥).

ويرى المؤلف أن الأولى أن يبحث المجاز التركيبي ضمن مسائل علم البيان ، كما فعل السكاكي ، والغريب أن صاحبنا جعله من مسائل علم المعانى ، تلبيداً أو غلوأ على حد تعبيبه ودعا من قدر من النسخ على الترتيب من غير إخلال فليفعل .

(١) انظر عروس الأفراح السبيكي ٤٩١/١

(٢) انظر : الإشارات والتبيينات من ١٩٨

(٣) المصدر نفسه من ٢٠٠

(٤) انظر : الإشارات والتبيينات من ٢٠٠

(٥) المصدر نفسه من ٢٠١

غير أننا نتساءل لم يفعل ذلك الجرجاني بنفسه ، وهو صاحب الأراء الجريئة ، التي تتميز بالجدة والطراوة ، وجوابه الذي ذكره في كتابه لا يشقى به ، وأبعد عن الإقناع ، وكان الأولى به أن يفعل ما أرتبه ، وألا يمزجه (المجاز التركيبي) في أماكن شتى متقليداً للسابقين ، والظاهر أن المؤلف لم يتبع لهذا الأمر إلا بعد المضي في التأليف ، والتبييض ، وانشغل عن إعادة النظر في التقسيم ، ففهم ذلك من قوله السابق « فمن تدر على الترتيب المشار إليه من النسخ على وجه غير مخل فليجعل مثاباً ماجراً»^(١).

والمجاز عنده أقسام : استعارة ، ومجاز مرسل بتنوعه المعروفة ، وتمثيل ، ولا يرد المؤلف كلام السابقين في مجاز المجاز على الحقيقة ، وإنما المزية عنده ترجع إلى ما في تلك الأساليب من الارتياح النفسي ، وحسن موقع المعنى فيها ، فالمزية عنده في الدلالة النفسية التي تنتهي عليها الأساليب ، وليس في الدلالة العقلية ، وما أحوجنا في تفهم البلاغة إلى الكشف عن الفوائج النفسية^(٢).

وبعيداً المؤلف بالاستعارة فيقسمها باعتبار خمس : باعتبار المطردين ، وباعتبار الجامع وباعتبار اللقط ، وباعتبار الخارج عن أركانه . ثم يقسمها باعتبار أركانها كلها إلى ستة أقسام وباعتبار لفظها إلى قسمين (أصلية وفرعية) ، وباعتبار الخارج عن أركانها إلى ثلاثة أقسام (المطلقة والمجردة والمشحة) ، ويطبل الجرجاني في عرض التقسيم والتفرع للاستعارة^(٣) بنفس الطريقة التي اتبعها السكاكي ، وكذا تتوقع منه التركيز على الجوهر ، بصفته مؤلفاً ،أخذ على عاتقه تتبع سقطات السابقين بالنقد والتصحيح ، وجدير به ألا يتسلط عليهم على الطريق .

ثم ينتقل بنا المؤلف إلى الكتابة ، فيعرّفنا ، ويفرق بينها وبين المجاز ، وذكر كثيراً من الأوصاف التي وقع فيها أعلام البلاغة ، وقصد أزاصهم ، ورددها عليهم ، بعد أن خطأها ومنهم الزمخشري والسكاكي والقرزيوني ، ومن ذلك ما ذكره في قوله تعالى «**وَلَا سُقْطَةَ** في **آتِيَّتِهِمْ**»^(٤) الكتابة عن شدة ندمهم على عبادة العجل^(٥) ، وقال : « وفيه نظر ، لأن الأولى أن

(١) انظر : المصدر نفسه من ٢٠٥

(٢) وهذا تحول واضح من الجرجاني إلى النفع النفسي الذي تتبناه كثير من الباحثين المعاصرین وبناؤها به أمثل : الشیخ أمین الفراہی فی : البلاغة وعلم النفس ، ومناهج تجدید ، واستئثارنا بالكتور من الدين إسماعیل : فی التفسیر النفسي للأدب

(٣) انظر : الإشارات والتبييات من من ٢٠٧ : من ٢٢٨ (٤) سورة الأعراف : آية ١٤٩

(٥) انظر : الكشاف الزمخشري ٢/ ١٢٦ ، والإيضاح للقرزيوني من ١٤٩

يقال : إن الكتابة في أيديهم لا في سقط ، وذلك لأن جعل الأيدي كتابة عن نفس الإنسان ظاهر غير منكر ^(١).

وختم الجرجاني مباحث علم البيان بآية من القرآن الكريم جمعت محاسن العلوم الثلاثة ، ذكر فيها حاصل ما ذكره السكاكي ، وغيره مع تصرفات ، وزيادة فوائد ، جرياً على ما فعله كثير من العلماء قبله في الآية ، وهي قوله تعالى « قَرِيلَ يَا أَرْضُ الْبَلْعَى تَمَكُّنَ وَيَا سَمَاءَ أَفْيَى » ^(٢) ، وكان الأجر بالمؤلف أن ينذرها ، حتى يتنهى من البديع ، وبخاصة أنه تناول في الآية العلوم الثلاثة .

ومما يجدر ذكره هنا أن الجرجاني في عرضه لمباحث البيان الثلاثة (التشبيه والمجان والكتابية) لم يكتف بمجرد العرض فقط ، ولكنه لا يترك صفيحة ، ولا كبيرة من آراء البلاغيين إلا نقدتها ، وساق الحجج الدامنة ، والأمثلة النيرة من القرآن الكريم ، وليس هذا فحسب ، وإنما أضاف إليها من حسه المرتفع ، وعقله الثاقب ما أثار السبيل أمام الباحث .

ثم يأتي دور البديع الذي بناء المؤلف على مقدمة ورثتين ، جملة المقدمة في التعريف ، والرثتين : أحدهما : المحاسن المعنوية ، ومنها : المطابقة ، والمقابلة ، والتورية .. الخ ^(٣) ، وهو يستهل كل نوع من هذه الأنواع بإشارة ثم يأخذ في التفصيل ، والاستشهاد ، واقتصر هنا على مجرد الاستشهاد من غير تعرض لأوهام السايقين .

ويتناول في الركن الثاني المحاسن الفقهية ويقسمها إلى سبعة أقسام منها : الجناس بتنوعه ، والملحق بالجناس ، ورد العجز على المصدر ... إلخ ^(٤) ، وختم هذا الركن بما توعمه عبد القاهر من أن أصل الحسن في المحاسن الفقهية هو أن تكون الألفاظ تابعة للمعاني ، فإن المعنى إذا أرسلت على سجيتها ، وتركت وما تريد ، طلبت لأنفسها الألفاظ ، ولم تكتس إلا ما يليق بها ^(٥) ، والأمر عند الجرجاني المتأخر غير ذلك ، لأن وجه حسن الكلام غير وجه تحسينه للمعاني ، فإن الشيء إذا كان حسناً ، يجب أن يكون جميع ما يتعلق به أيضاً حسناً ^(٦) .

(١) انظر : الإشارات والتبيينات من ٢٤٤ .

(٢) سورة هود : آية / ٤٤ .

(٣) انظر : الإشارات والتبيينات من ٢٥٩ ، من ٢٨٨ .

(٤) انظر : المصادر نفسه من من ٢٨٦ : من ٣٠٤ .

(٥) انظر : أسرار البلاغة لميد النادر الجرجاني من ١٣ .

(٦) انظر : الإشارات والتبيينات من ٣٠٠ .

ثم يأتي دور خاتمة الكتاب ، والتي تشتتم على سرقات الشعراء ، وما يشبه السرقة ، والاقتباس ، ثم ما يتبقى للشاعر أن يحتاط به ، ويتناق فيه ، وهو ثلاثة أشياء : الابتداء ، والخلاص ، والانتهاء ، وبذلك ينتهي كتاب الجرجاني .

والأأن وبعد عرضنا للكتاب ، يتضح لنا أنه كتاب من أمهات كتب البلاغة ، لما لصاحبه من جهد في تصحيح بعض المفاهيم البلاغية التي استقرت في الأذهان .

ورغم أن الكتاب خليط من الإشارات ، والتبيهات ، والأوهام ، والردود ، فلم يفل المؤلف فيه دقة التصنيف البلاغي . أسف إلى ذلك تلك الشواهد الوفيرة من القرآن والحديث وجيد الشعر ، والتي حللها تعليلاً يتسم برهافة النزق ، وحدة الإحساس ، وصدق الفهم ، وألطاف الإدراك .

د. البحر المحيط، المسمى بالتفسير الكبير

لمحمد بن يوسف، الشهير بابي حيان الاندلسي (ت ٧٤٥ هـ) ^(١)

بعد أبو حيان أحد النحاة المحققين الذين تمثلا قواعد النحو وعلوم العربية ، وجعلها الأساس الأول في الفهم والتفسير ، وطبقت على ما عادها من نواحي التفسير ، « غير أنه قد أكثر من هذه المسائل في كتابه ، مع توسعه في مسائل الخلاف بين النحوين ، حتى أصبح الكتاب أقرب ما يكون إلى كتب النحو منه إلى كتب التفسير ^(٢) ، غير أننا لاحظ على أبي حيان اهتمامه بالنواحي الأخرى التي لها اتصال بالتفسير ، وقد يرى في مقدمته أن علم التفسير ليس متوقفا على علم النحو فقط ، فالمسر يحتاج إلى التصرف في الفصاحة ، والتفنن في البلاغة ، ويولى النحوين الذين لم يبرعوا في النظم والنشر يقول : وقل أن ترى نحو يا بارعا في النظم والنشر وقد رأينا من ينسب للإمامية في علم النحو ، ولا يحسن أن ينطق بآيات من آشور العرب فضلا عن أن يعرف مدلاتها أو يتكل على ما انطوت عليه من علم البلاغة والبيان ، يقاسى مثل هذا أن يتعاطى علم التفسير وأقاسى على الزمخشري في قوله : « إنَّه لا يقوس على شيءٍ من تلك الحقائق إِلَّا وَجَدَ قَدْ بَرَعَ فِي عِلْمِ مُخْصِصٍ بِالْقُرْآنِ وَعِمَّا : المعاني وعلم البيان ، وتمهيل في إرتياهدهما آونة ، وتعجب في التفهيم عندهما أزمنة ^(٣) ».

ويرى أنه على المفسر أن يطلع اطلاعاً واسعاً على علوم متعددة ، لأن لكل علم ميزته وفضله ، ولا يستطيع المشتغل بعلم التفسير الاستثناء عنه ، وأن يكون كثير المطالعات ، طويلاً المراجعات ، قد ترجع زماناً ورجم إليه ، وربما علىه فارساً في علم الإعراب ، مقدماً في جملة الكتاب .. مشتعل القرحة .. يقطن النفس .. دراكا للحجنة وإن لطف شانها .. متصرفاً ذا دربة بأساليب النظم والنشر ^(٤) ».

ولا شك أن ما ذكره أبو حيان يعد شرطاً من شروط التهيئة للنظر في كتاب الله - تعالى - وسبباً من أسباب نجاحه في نظره .

وبنها المألف في مقدمته إلى الجهد الذي يبذله في كتابه ، والذي يتم عن قدرة عجيبة في التأليف ، وجده وصبر نادرين ، وهو جهد يتلخص في عكوفه على الكتب البيانية وإنعامه النظر

(١) انظر ترجمته في : بقية الرعامة للسيوطى /٢١٢١/ ٢٨٠ ، والبر الكامنة /٤٠٤/ ، وبطاقات القراء ٢٨٥/٢ .

(٢) انظر : التفسير والمفسرون د. التعمي ٣٠١/١ .

(٣) (٤) : البحر المحيط لابي حيان ٩٧١ . م . دار الفكر بيروت ١٩٨٣ . -١٤٧-

في تباهي مفهومها ، فكل منهم - على حد قوله - له مزية لا يجهل قدرها . ويصف المؤلف جهده فيقول : « نعكفت على تصنيف هذا الكتاب ، وانتخاب المصنفوالباب ، أجيال الفكر فيما وضع الناس في تصانيفهم ، وأتمم النظر فيما افترجوا من تاليتهم ، فناخض مطولها ، وأحل مشكلها ، وأقید مطلقه ، وأفتح مقلتها ، وأجمع مبدئها ، وأخلص منتقها ، وأضيف إلى ذلك ما استخرجته القراءة المفكرة من لطائف علم البيان المطلع على إعجاز القرآن ، ومن رقائق علم الإعراب المغرب في الوجود أي إغراب »^(١) .

ولقد صدق الأستاذ الدكتور خديجة الحديشى في قوله : « وإن هذا التفسير (البحر) مهم في كثير من الدراسات الدينية والعقائدية ، واللغوية والتاريخية »^(٢) .

وإذا يشهد لهذه الأهمية المصادر التي اعتمد عليها أبو حيان في تفسيره ، وهي كثيرة ومتنوعة ، اعتمد في أكثرها على تفسير الزمخشري (الكشاف) ، وتفسير ابن عطية (البحر الوجيز) وعما عنده من أحسن النماصير وأجلها ، وأعلمها شأنًا ، وأجمعها مادة ، وأكثرها استشهاداً ، وأوسعها انتشاراً ، والزمخشري وابن عطية - في نظره - فارسا ميدان وممارسا فصاحة وبيان يقول : « فكتاب ابن عطية أتقل وأجمع وأخلص ، وكتاب الزمخشري الشخص وأغوص »^(٣) .

وهو ينقل منها ما يخص مسائل التحريف وجوره الإعراب ، ومسائل البلاغة والبيان ، كما أنه يتبعهما كثيراً بالرد والتقييد . وكثيراً ما ينقد الزمخشري ، ويحمل عليه جملات ساخرة^(٤) لم يخلصه منه ، وينصنه إلا تلميذه السمين الحلين ، ومع كل ذلك فلم يذكر أبو حيان فضل الزمخشري ، ومهارته في تجلية بلاغة القرآن ، وقوة بيانه ، لأنـه - كما يقول : « أولى من علم القرآن أقوى حظ ، وجمع بين اختراع المعنى ، وبراعة اللفظ »^(٥) أما ابن عطية فكان حواره معه ، ونقدـه له أخف وطأة من موقفـه من الزمخشري .

وهـذا الكتابـان قد اعتمدـ عليهـما أبو حـيان اعتمـادـاً كـبيرـاً ، ولا تـكاد تـخلـ صـفـحةـ من صـفحـاتـ الـبـحرـ من قولـ لأـحـدـهـماـ أوـ لـكـلـيـهـماـ مـعـاـ . وـمـنـ الـكـتـبـ الـتـيـ اـعـتـدـ عـلـيـهـاـ أـيـضاـ كتابـ التـحرـيرـ وـالـتـبـيـبـ لـأـقـوالـ آنـةـ التـفـسـيرـ » لـأـسـتـاذـ اـبـنـ التـقـيـبـ ، غـيرـ أـنـهـ يـصـفـهـ بـكـثـرةـ

(١) المصدر نفسه ج ١ من ٢ .

(٢) انظر : أبو حـيان التـحـويـ دـ. خـديـجـةـ الـحـديـشـىـ صـ ١٩٤ـ . مـكـتبـةـ التـهـشـيـهـ /ـ يـنـدـادـ .

(٣) انظر : الـبـحرـ الـمـحـيطـ جـ ١ـ منـ ١٠ـ .

(٤) المصدر نفسه ٢ / ٦٧٦ ، ٤١٧ / ٧ ، ٦٧٣ .

(٥) المصدر نفسه ٧ / ٨٥ .

التكثير ، وقلة التحرير^(١) . ورجع كذلك - إلى تفسير السيدي والمكبرى ، ومكى بن أبي طالب والنيسابورى ، والقشيرى ، والرازى الذى قال فيه : « إنه جمع مختلف العلوم ، وأطالب ، مما أخرج الكتاب من علم التفسير »^(٢) .

ومن الكتب اللغوية والبلاغية التي اقتبس منها « الكتاب لسيبوه » والملبيات لأبي على القارس ، ومنهاج البلقاء وسراج الأدباء لأبي حازم القرطاجنى .

وبطبيعة الحال تضخم البحر وفاض بمعارفه وصار صعباً إلى حد ما ، ولعل المؤلف نفسه أحس بذلك ، فولأى من البحر تهراً ، واختصر كتابه فيما سماه « التهرا الماء من البحر » لأنه « وجد في تفسيره الكبير» البحر ضعيفه فازاد أن يسهله على الناشرين^(٣) .

ولقد كان للنهر والبحر معاً أثر فيمن جاء بعده ، وترك بصمات واضحة في أعمال المفسرين ، وبخاصة في السعى الحلى في « دره » والمرحدى (ت ٧٩٢ هـ) والشاعرى ، وابن مخلوف (ت ٧٤٢ هـ)^(٤) .

ولأبي حيان في « بحره » منهجه وطريقة سار عليها في الكتاب كله ، وهي طريقة مرتبة ، يبتدئ أولاً بالكلام على مفردات الآية التي يفسرها لحظة لحظة فيما يحتاج إليه من اللغة والأحكام النحوية التي تلك اللحظة قبل التركيب ، وإذا كان للكلمة معانين أو معان ذكر ذلك في أول موضع فيه تلك الكلمة ليتظر ما يناسب لها من تلك المعانى في كل موضع تقع فيه فيحمل عليه .

ثم يشرع في تفسير الآية ذاكراً سبب نزولها إذا كان لها سبب ونسخها و المناسبتها وارتباطها بما قبلها ، باقلاً أقاويل السلف والخلف في قهم معاناتها ، متلائماً على جلتها وخفتها ، مبدياً ما فيها من غواصات الإعراب ، ودقائق الأداب من بديع وبيان ، ولا يذكر كلامه فيما سبق من تفسيره إلا بمزيد فائدة .

واستقاد أبو حيان من علم البلاغة في تفسيره ، فهو بعد أن يذكر توجيه المسائل اللغوية وال نحوية ، يختتم الكلام في جملة من الآيات التي قسرها أفراداً أو تركيباً بما ذكر فيها من علم البيان والبديع ، ملخصاً يقول : « ثم أختتم الكلام في جملة من الآيات التي قسرتها أفراداً وتركيباً بما ذكرنا فيها من علم البيان والبديع ملخصاً »^(٥) .

(١) المصدر نفسه : ١٧٧/١

(٢) المصدر نفسه : ٣٤١/١

(٣) المصدر نفسه : ٩٠٤/١

(٤) انظر : كشف الظنون لساجى خليله ١ / ٦٢٢ ، ٦٢٦ ، ٦٢٨

(٥) البحر المحيط ١ / ٤٩٠

ثم يتبع آخر الآيات بكلام متثر يشرح فيه مضمون تلك الآيات علي ما اختاره من تلك العائني ملخصاً لجملة كذلك ، ويوجّل ذلك آمنونجاً لمن يريد أن يسلك ذلك فيما يقى من سائر الفرق .^(١)

وأبو حيـان لا يـوقـف في مـنهـجـه عند هـذـا المـدـ ، وإنـما يـرى اـطـرـاجـ كـلـ قـصـةـ لـاتـقـلـ لهاـ بـلـقـلـقـةـ الـقـرـآنـ ، وـيـرـكـ الـإـطـالـةـ فـيـ الـكـلـامـ عـلـىـ الـحـرـفـ الـمـقـلـطـةـ ، وـالـإـنـصـارـافـ عـنـ حـمـلـ الـقـرـآنـ عـلـىـ الـشـعـرـ ، وـيـدـعـوـ إـلـىـ تـزـيـرـةـ التـفـسـيرـ عـنـ الـإـلـاـسـ فـيـ الـتـرـاكـيـبـ ، وـالـإـتـهـادـ فـيـ إـعـرابـ الـقـرـآنـ عـنـ الـجـوـهـرـ الـتـيـ تـزـنـزـهـ الـقـرـآنـ عـنـهـاـ ، وـاتـيـ تـخـرـجـ كـلـامـ اللـهـ عـنـ ظـاهـرـهـ ، وـيـتـهـدـهـ عـنـ الـفـقـيـهـ مـنـهـ ، لـأـنـ يـتـبـيـأـ أـنـ يـحـمـلـ عـلـىـ أـحـسـنـ إـعـرابـ ، وـأـحـسـ تـرـكـيـبـ . إـذـ كـلـامـ اللـهـ تـعـالـيـ أـفـصـحـ الـكـلـامـ فـلـاـ يـجـوـزـ فـيـهـ مـاـ يـجـوـزـ النـهـاـءـ فـيـ شـعـرـ الشـمـاخـ وـالـطـرـمـاخـ وـغـيـرـهـاـ مـنـ سـلـوكـ الـتـقـادـيرـ الـبـعـيدةـ .^(٢)

ولعله اتجاه هذا التفسير عنده يعني الاستيبلة والكشف عن النظر المستلقى عند السامع بما هو واضح عنده مما يراقه أو يقاربه ، أو أنه دلالة عليه بإحدى طرق الدلالات (٢) والاتجاه الجديد الذي قد يثير عليه حقيقة عباد التقديم ، أنه لا يرى ضرورة التقل عن مجاهد وعذكره وأخضارهم ، وذلك لتباطئ أقوالهم من جهة ، واختلاف آفهام الناس في إدراك المعانى من جهة أخرى . وهذه دعوى صريحة لاستقلالية العالم وانطلاقه إلى عالم أزحب من الحرية في التفهم والإدراك ، لأن العرب ليسوا متساوين في الفصاحة ولا في استنباط المعانى (٣) .

ويرى المؤلف أن أهم ما يعين المقصري في الكشف من المعاني : علم البيان والدين ، فهو العلم الذي يستطيع به المقصري أن يعرف معنى التراكيب ، ويدرك قصاحتها وجمالها ، ويؤخذ ذلك من علم البيان والدين . وقد صنف الناس في ذلك تصنائف كثيرة *⁽⁴⁾.

وقد ملا أبو حيyan تفسيره بالسائل البلاطية ، واستقاد منها في توضيح معاني آيات التكـرـ الحـكـيمـ . وـلـكـنـ هـنـاـ يـعـرـضـ نـمـاجـ منـ هـذـاـ الـاعـتـامـ . وـخـاصـةـ ماـ يـرـتـبـطـ مـنـهـ بـعـلـمـ الـبـيـانـ بـسـاسـمـ الـمـخـلـقـ مـنـ تـشـبـيـهـ وـمـجـازـ وـاستـعـارـةـ وـكـنـاتـيـةـ . مـرـجـنـينـ بـقـيـةـ النـمـاجـ إـلـىـ الـبـابـ الـتـطـبـيـقـيـ فـنـ ذـكـرـ تـحـلـيـلـ لـقـلـهـ تـعـالـىـ : « قـيـمـ كـالـحـيـاجـأـ أـوـ أـقـدـ قـسـوةـ »^(٤) قالـ : هـيـ جـملـةـ اـبـدـائـيـةـ حـكـمـ فـيـهاـ بـشـبـيـهـ قـلـوـبـهـ بـالـحـجـارـةـ فـيـ عـدـمـ تـأـثـرـهـ مـنـ ظـهـورـ الـعـجـزـاتـ ، إـذـ الـحـجـرـ لـمـ يـتـأـثـرـ بـمـوـعـةـ ، وـهـنـاـ يـعـنـيـ أـنـ قـلـوـبـهـ صـلـبـةـ لـ تـظـلـلـهـ الـفـوـارـقـ ، كـمـ الـحـجـرـ خـلـقـ صـلـبـاـ .

٨) البحار المحيط

(٢) المصروفات: ٨ / ٤ ، ٦ ، ٣٧/٢٥ / ١ ، ٣٧ / ٢ ، ٣٧ / ٣

(٣) المصدر نفسه ٢٧/٢

(٦) انظر : البحر المحيط ١/٦

-10.-

وذلك إشارة إلى أن اعتيادهم قلوبهم ليس لعارض ، بل خلق ذلك فيها خلقاً أولياً ، كما أن صلابة الحجر كذلك أو أشد^(١).

ثم فصل المؤلف نوع قلوبهم إلى مشبه المجازة في الصلاة ، وإلى أشد قسوة منها مبيناً أن قلوب هؤلاء جاسية صلبة لا تلينها الماء ، ولا تتأثر للزاجر ، وإن كان من الحجارة ما يقبل التخلخل^(٢).

وابر حيان في بعض توجيهات التشبيه يلخص كلام الزمخشري أو ينتهي منه شكلاً ومضموناً ، فضلاً عن استخدامه لفته الخاصة في التعبير عن المفسرون العام الصورة التشبيهية كما في قوله تعالى « وَقَنْ يُشَرِّكُ بِاللَّهِ مَا كَانَ مِنَ السَّمَاءِ ، فَأَخْطَلَهُ الطَّيْرُ ، أَفَنَّهُو بِالرَّبِيعِ فِي تَكَانِ سَحِيقٍ »^(٣).

شرح التشبيه في الآية بقوله : « شبه المشرك بأن صور حاله بصورة حال من خر من السماء . فاختلطت الطير ، فتفرق قطعاً في حواصلها ، أو عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المطواح البعيدة ».

أما تلخيصه لكلام الزمخشري في الآية فقوله : « يجوز في هذا التشبيه أن يكون من المركب والمفرق ، فإن كان تشبيهاً مركباً ، فكانه قال : من أشرك بالله فقد أشرك نفسه إهلاكاً ليس بعده ، بأن صور حاله بصورة حال من خر من السماء » . وإذا كان أبر حيان يلخص كلام صاحب الكشاف في توجيه الآية من ناحية التشبيه المركب ، فهو ينقل توجيهه للتشبيه المفرق نصاً وفصاً^(٤).

وإذا انتقلنا مع المؤلف إلى المجاز وجذنه يرى أن حمل الكلمات في الآيات على معانٍ لها الحقيقة أفضل من حلتها على المجاز ، يقول في قوله تعالى : « وَلَئِنِ اتَّهَى بِأَنَّهُ يَنْهَا مِنْ ظَهْرِهِ ، وَلَكِنَّ الَّذِي يَنْهَا مِنْ آتَقَنْ »^(٥).

فيعد أن ذكر المؤلف أسباب نزول الآية قال : « وهذه أسباب تظاهرت على أن « البيت » أزيد بها الحقيقة ، وأن الإثبات هو المجاز إليها ، والحمل على الحقيقة أولى من ادعاه المجاز ، مع مخالفة ما تظاهر من هذه الأسباب »^(٦).

ولا يعني هذا التصرير من أبي حيان ميله إلى القول بالحقيقة قولاً مطلقاً ، أو ترجيحها على المجاز ، ولكنه يوجه كثيراً من الآيات القرآنية توجيهها مجازاً ، ويعتبر ذلك من البلاغة كما

(١) انظر البحر المعيب ٢٦٢/١

(٢) المصدر نفسه ٣٦٤/١

(٣) سورة العنكبوت ٣١

(٤) المصدر نفسه ٣٦٦/١

(٥) سورة البقرة : آية ١٨٩

(٦) البحر المعيب ٦٣/٢

في تعلقة على الآية الكريمة : « فَرَجَدْ فِيهَا يَدَارَ بِرِيدَ أَنْ يَقْتَصُّ فَاقَةً » (١) قال : « وإنستاد الإرادة إلى الجدار من الجاز البليغ ، والاستعارة البارعة ، وكثيراً ما يوجد في كلام العرب وإنستاد أشياء تكون من أفعال العقلاء ، إلى ما لا يعقل من الحيوان والجماد ، والمعنى : لو كان الجماد ، أو الحيوان الذي لا يعقل مكان العاقل ، لكان سارداً عنه ذلك الفعل فاقاة ... ولا يرى المؤلف ضرورة إبراد الشواهد على ذلك ، لأن من له أدنى مطالعة لكلام العرب لا يحتاج إلى شاهد في ذلك » (٢) .

أما استعارات القرآن الكريم ، فالمؤلف يطيل في تحليلها مقتبساً كثيراً منها من كلام الزمخشري كما في قوله تعالى : « قَذَاقَهَا اللَّهُ لِيَاسُ الْجَوْعُ وَالْخُوفُ » (٣) يقول : الإذاقة واللباس استعاراتان ، ثم يحصل القول فيما كالتالي : أما الإذاقة فقد جرت عندهم مجرى الحقيقة ، لشيوعها في البلايا والشدائد ، وما يعن الناس منها ، فيقولون : ذاق فلان اليأس والضر ، وأذاقه العذاب ، شيء ما يدرك من أثر الضر والألم بما يدرك من طعم المر وال بشع ، وأما اللباس فقد شببه به لاشتماله على الليس ما غشى الإنسان والتيس به من بعض الحوادث وأما إيقاع الإذاقة على لباس الجوع والخوف ، فلأنه لما وقع عبارة عما يعشى منها ، وبلاس فكانه قيل : فاذاقهم ما غشيم من الجوع والخوف .

وللبيانين في ذلك طريقان : أحدهما : أن ينظروا فيه إلى المستعار له ، كما نظر إليه ههنا
كقول كثير :

غَرَّ الرِّدَاءِ إِذَا تَبَسَّمَ ضَاحِكًا ... غَلَقَتْ لِيَضِيَّكَيْهِ رِقَابَ الْمَالِ

استعار الرداء المعروف ، لأنه يصون عرض صاحبه صون الرداء لما يلقى عليه ، ووصفه بالغمر الذي هو وصف المعروف والنوال ، لا صفة الرداء ، نظراً إلى المستعار له ، والثاني : أن ينظروا فيه إلى المستعار كقول الشاعر :

يَنَازِعُنِي رِدَائِي عَدُّ عَرْقٍ رويداك يا أخَا عَرْقٍ بن بكر
لِيَ الشَّطَرُ الَّذِي ملَكَ يَمِينِي ودونك فاعتجر منه بشطر

أراد برداته سبيله ثم قال : فاعتجر منه بشطر ، فنظر إلى المستعار في لفظ الاعتخار ، ولو نظر إليه فيما نحن فيه لقيل : فكساهم لباس الجوع والخوف ، ولقال كثير : ضافى الرداء إذا تبسم ضاحكا . وهذا التحليل الدقيق من المؤلف والذي وصفه بالحسن تحليل مقتبس في معظمه من الزمخشري (٤) .

(١) سورة الكهف آية ٧٧ (٢) البحر المحيط ج ٦ من ١٥١ (٣) البطر ١٦٦

(٤) المصادر نفسه : ج ٩ من ٤٤٣ ، والكتاب ج ٢ من ٦٣٩

وذكر المؤلف في تفسيره كثيراً من كنایات القرآن الكريم كما في قوله تعالى: « وَكَيْفَ تَلْخُذُوهُ وَقَدْ أَفْتَنْتُ إِلَيْتِ بَعْضَنِ »^(١) ، وبين أن الإفتاء هو المباشرة ، والدفن ، وهو الجماع ، وهو في الآية كناية حسنة^(٢)

واعتبر قوله تعالى: « قَاتَلَ الْمُلَّاَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَوَلَّ إِلَّاَ بَشَرٌ يَمْلَئُنَا »^(٣) الآية تعريض بأنهم أحق منه بالنبأ ، وإن الله لو أراد أن يجعلها في أحد من البشر لجعلها فيها^(٤).

ويستطيع الباحث في علم البلاغة والبيان أن يستخرج من البحر المحيط معلومات كثيرة ، تفيد في دراسة البلاغة ، وتطرق مصطلحاتها ، وفنونها المختلفة ، لأن آيا حيان نثر على أمواج بحر مسائل بلاغية كثيرة ، وهي كما تذكر الاستاذة الدكتورة خديجة الحديشي - تدل على فهم عميق لفن البلاغة^(٥).

والعجب أن ابن هشام صاحب « مختن اللبيب » يذكر أن آيا حيان لا يعرف علم البلاغة ، وذلك في معرض حديث عن الاعتراض ، وما ذكره من مناقشة آيا حيان للزمخشري في تفسير قوله تعالى: « وَتَخَنَّنَ لَهُ مُشَكِّلُونَ »^(٦) يقول ابن هشام : « وَيَزَّ عَلَيْهِ يَقْسِدُ رَدَ آيا حيان على الزمخشري- مثل ذلك من لا يعرف هذا العلم كثيرون حيان توهماً منه أنه لا اعتراض إلا ما ي قوله التحوى ، وهو الاعتراض بين شبيئين متظاهرين »^(٧).

ونحن لا توافق ابن هشام فيما ذهب إليه وادعاء على آيا حيان ، لأن تفسيره يكتب ذلك وينقضه ، وما يؤكد كذلك - أن آيا حيان كان عالماً بالبلاغة والبيان ، أرجوته التي ظلمها بعنوان « خلاصة البيان » في علم الديبع والبيان ، بالإضافة إلى ما استفاده من استاذته آبي حازم القرطاجني أحد علماء البلاغة والبيان وقد رجع إلى كتابه منهاج البلاغة وسراج الأنبياء ، واستفاد منه ، وطبق ذلك كله في تفسيره وعرض صوره البيانية الرائعة .

(١) سورة النساء آية / ٤١

(٢) سورة هود آية / ٢٧

(٣) البحر المحيط ج ٣ من ٢٠٧

(٤) البحر المحيط ج ٥ من ٢١٥

(٥) آيا حيان التحوى . من ٢٢٢ وما بعدها .

(٦) سورة البقرة آية ١٣٣

(٧) انظر : مختن اللبيب عن كتب الأغارب لجمال الدين بن هشام الانصاري من ٥٦١ - تحقيق

د. مازن المبارك بدمشق ط . دار الفكر ط ٦ سنة ١٩٨٥ م . وانظر : البحر المحيط ج ١ من ٣٠٣ ،

من ٣٠٤ .

-١٥٣-

كتاب الدر المصنون في إعراب الكتاب المكتنون

لأحمد بن يوسف المعروف بالسمين الطبّي (ت ٧٥٦ هـ)^(١)

فقه السمين الطبّي علوم العربية ، واتخذ من القرآن الكريم محوراً ثابتاً حولها ، وتمثل ذلك كله في كتابه « الدر المصنون » الذي ألفه في حياة أستاذة أبي حيان الأندلس ، والكتاب يتألف من نقول مختلفة^(٢) ، ولا يمثل مذهبها مثبياً ، أو إضافة جديدة ، ولا تلمع فيه اجتهادات بارزة على النحو الذي عهدهناه عند الرواد القدماء – إلا قليلاً ، ولكنه مجرد جمع وتنسيق لجهود السابقين .

غير أن أهمية الكتاب تبرز في مدى اهتمام مؤلفه بإعراب القرآن الكريم ، والإعراب إنما وجد ليخدم المعانى ، ويكشف النقاب عنها ، ويسلط الأضواء عليها .

ويا لاطلاع على مقدمة المؤلف تراه يشير فيها إلى ضرورة فهم معانى القرآن الكريم ، وبيان أغراضه ، لأنه ليس المراد من تذليل القرآن حفظه وسرره من غير تأمل لمعناه ، ولا تفهم لمقاصده ، ويرى أن الأولى أن يربّي العاقل ببنفسه عن هذه المنزلة^(٣) .

ثم يذكر للعلماء فضلهم في خدمة القرآن الكريم ، غير أنه يرى ضرورة تأكيد مصنف يجمع علوم القرآن ، ويرى أنها خمسة علوم هي اللغة والإعراب والتصريف ، والمعانى ، والبيان . ويرى أن هذه العلوم من أعظم علوم القرآن بعد تلورته .

وقد أحسن المؤلف أن العلماء كانوا يبحثون هذه العلوم بحثاً متفرداً وهو يرى أنها متजاذبة ، شديدة الاتصال فيما بينها ، لا يحصل للنظر في بعضها كغير فائدة بدون الاطلاع على ما فيها ، ويزكّ ذلك بأن من عرف كون هذا فاعلاً أو مفعولاً أو مبتدأ مثلاً ، ولم يعرف كيفية تصريفه ، ولا الشتقاقه ولا كيف موقعه من النظم لم يحل ببطائل ، وكذا لو عرف موقعه من النظم ، ولم يعرف باقيها^(٤) .

(١) انظر : ترجمته في : شذرات الذهب ١٧٩/٦ ، وطبقات الشافية للأستوى ١٢/٢ - وطبقات المفسرين الداروي ١٠٠/١

(٢) وهذا شأن معظم المتأخرین الذين وجدوا تراثاً مسخاً يتبرز بالتكامل والتضييق ، يقتربون منه ما تردد إلى مشاريهم .

(٣) انظر : الدر المصنون في علوم الكتاب المكتنون للسمين الطبّي تحقيق د . أحمد الخراط ج ١ من ٢ ط - دار القلم دمشق .

(٤) انظر المصدر نفسه ج ٣ من ٤

وطريقة المؤلف في الكتاب كالتالي: يذكر الفاظ الآية، ثم يسير معها لفظة لفظة من جانب اللغة والاشتقاق والمعنى، وما تحمله من دلالات في الآية، ويعزز عرضه بالشواهد المختلفة، ثم بين قرائتها بصورة مجلدة، ثم يعر بها ويبيين آقوال العلماء وأراهم، وإذا فرغ من لفظة نوش فيما تلتها من الفاظ بنفس الطريقة، وأثناء ذلك فهو يشتمل السائل التحوية والعربية بحثاً وعرضأ، وإذا ما تكررت المسألة اكتفى بالإشارة إليها وإن بعد العهد بها، وتناثر التفاصيل على ذعن المؤلف، ولكنه لا يخوض فيها خوف السامة والملل، ولأن الكتاب غير موضوع لفن واحد^(١).

وبهتم المؤلف بإيراد المناقشات الواردة بين العلماء، ولا يكتفي بمجرد عرض آقوالهم، ولكنه يحاورهم، ويواجههم، وخص منهم المذخرى وأبا حيان وأبا البقاء وكثيراً من المفسرين كالهذوي ومكي والنحاس دون غيرهم، لأنهم في نظره «أعمى الناس بما قدسه» وأغنام^(٢).

والسمين الحلبي مختلف منهجه عن منهجه التفاسير الأخرى فهو يهتم بقواعد النحو، والمعانى والبيان، وتاريخ القراءات، غير كتب التفاسير المهمة بمعانى القرآن، دون أن تكون هذه العلوم غاية لها، والسمعة العامة التي يتسم بها منهجه السمين هي التزامه الدقة وحسن العرض والتنظيم، وتفصيل بيان الآية القرآنية لغة ونحواً أو صرفاً وبياناً، ولا ينتقل من جانب إلى جانب آخر حتى يستوفي حقه، ولكي لا يعود إليه مرة أخرى، ويبعد عليه الجلد والصبر في معالجته للآيات القرآنية وبخاصمة التي يتعرض لها أول مرة.

أما مصادر المؤلف في الكتاب فمنها ما هو رئيسي، ومنها ما هو فرعى، فهو يعتمد في مصادره الأساسية اعتماداً كبيراً على «المحد الرجيم» لأبن عطية، ويتناول منه التصور الإجمالي للقرآن، أما مادة مناقشاته فيقرنها من «البحر الحيط» لأبن حيان، ويقتبس منه كثيراً، درجة جعلت صاحب «كشف الظنون» لا يرى في الكتاب شيئاً جديداً إلا يراه في تفسير أبن حيان^(٣).

وفي هذا القول كثير من المبالغة، لأنه بالرغم من تأثر السمين بتأستاده وشيخه، وهذا أمر طبيعى - إلا أن ذلك لا يعني أن كتاب «الدر» نسخة مكررة لتفسير «البحر»، وذلك لاختلاف منهجه الرجلين، ولا يمكن أن يدعى هذا التأثر محقق الكتاب أن يقول: «إن السمين

(١) انظر: المصنف نفسه ج ١ / ٩٣ / ١٣١ من ٦ (٢) الدر المصنف ج ١ من ٦

(٣) كشف الظنون لابن حظيبة ج ١ / ١٢٢

تمثيل ما في البحر حتى إنه ليُجرى درره بمداده ، وكيف لا ؟ والدرر المصونة هي أبداً من أعماق البحار »^(١) .

وهذا حكم مطلق ترفضه من الأستاذ المحقق لخلوة من الدليل من ناحية ، ولأن السمين - من ناحية أخرى - كان كثيراً ما يعترض على أستاذاته أئبي حيان ، ويناقشه ، وبخالقه الرأي ، ويصححه . له أحياناً بعض موافقه ، وهذا وجده شاهد على استقلالية السمين وبروز شخصيته ، بالإضافة إلى اعتماده على نفس مصادر أئبي حيان تقريباً .

ثم يأتي الكشف في الدرجة الثالثة من مصادره الرئيسية ، فيأخذ منه بعض إشاراته البلاغية . وهذا في الواقع أهم ما يعزز من قيمة الكتاب ، وهذا ما بين اهتمام المؤلف بالأسرار التعبيرية القرآنية . ولأن السمين كان شهرياً بالدرجة الأولى فقد لجأ إلى الزمخشري وهو الفارس البارع في ميدان البلاغة ، ليقتبس منه في هذا الباب .

أما مصادره الفرعية فتتمثل في « معانى القرآن » للفراء ، وإعراب القرآن للزجاج ، والنحاس ، وكتاب « ما منْ به الرحمن » لأبي البقاء المكيبي وتفسير الطبرى والرازى ، ويتبين لنا من خلال هذه المصادر أن كتاب « الدر » كان خلاصة هذه العقول مجتمعة يستشيرها المؤلف على طول صفحات الكتاب .

وجعل السمين جانباً من تفسيره مسرحاً للمناقشات التي دارت بين أئبي حيان والزمخشري ، فيزيد أحدهما ، وبخلاف الآخر ، أو يقف موقفاً وسطاً بين الاثنين . وطالما اعترض على شيخه أئبي حيان ، واتهمه بالتحامل ، والتشريع في الحكم على الزمخشري ، والجري وراء الأمور النظرية والشككية . وكثيراً ما انتصف الزمخشري من أئبي حيان كما في قوله تعالى: « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوافلَ قوافلَ يأتقسط شهادة لله فإن على أنفسكم فحال الشيء : « وهذا لا يجوز ، لأن ما تطلق به الطرف كون مقيمة ، والكون المقيد لا يجوز حدقه ، بل المطلق ، وقال السمين : وهذا الرد ليس يشين ، لأنه قد تفسير المعنى ، ومبادئ النحو لا تخلى على أحد الطلبة ، فكيف بشيخ الصناعة ؟^(٢) وغير هذه المناقشات كثيرة ، نكتفي بهذا المثال لمجرد الدليل^(٣) .

(١) مقدمة تحقيق كتاب « الدر المصنون » . أ. محمد محمد القراط من ٨.

(٢) سورة النساء آية / ١٢٥ (٤) الدر المصنون ج ١ من ٢٢٢

(٣) المستزاد من أمثال هذه الآية ينظر تعليق السمين على الآيات التالية : البقرة : ٢٢٦ ، آل عمران / ١٥٦ ، النساء : ١٥٩/٥٥ ، ١٧٦ ، والمائدة : ١٢٠ .

وَلَا يَغْنِنَّ مِنْ شَانِ الْكِتَابِ تَخْصِيصُهُ فِي إِعْرَابِ الْقُرْآنِ ، فَمِنْ الْمُلْحُومِ أَنَّهُ يَعْرَفُ الْقَارئَ عَلَى جَانِبِهِ مِنَ الْجَوَابِ الْفَكِيرِيَّةِ الْهَامَةِ حَوْلِ الْقُرْآنِ ، وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا الاتِّجاهُ يُمَثِّلُ مُصْبَرَةً عَلَى الْعِرْبِيَّةِ الَّتِي انتَطَقَتْ مِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ لِتُصْبِّ في هَذَا الْحَقْلِ الْأَثْرِ - مُقلُّ التَّحْوِيَّةِ الْقُرْآنِ - خَلَاصَةً جَهُودِهَا ، وَلِهَا جَاتِ أَهْمَيَّةُ كِتَابٍ « الْأَرْ » لِيُشَارِكُ فِي دِرْسِ الْبَيَانِ الْقُرْآنِيِّ مِنْ هَذَا الْمَنْطَلِقِ ، فَضَلَّاً عَنِ الْأَعْمَيَّةِ الْأُخْرَى يُمْكِنُ تَلْخِيصُهَا فِيمَا يَاتِي :

- « أَنَّهُ أَطْلَعَنَا عَلَى أَرَاءِ الْعَلَمَاءِ الْمُخْتَلِفِينَ فِي إِعْرَابِ الْآيَةِ .
- عَنِ بِحْرَوْثِ التَّحْوِيَّةِ الْقَرَائِيِّ .
- يَجِدُ طَالِبُ مَفْرِدَاتِ اللُّغَةِ فِيهِ بِعْثَتِهِ .
- مَادَةٌ غَزِيرَةٌ لِلْقَرَاءَاتِ الْقَرَائِيَّةِ .
- يَضْمِنُ الْكِتَابُ تَصْوِيضاً مَادِرَةً غَيْرَ مُوجَدٍ لِضَيَاعِ أَصْوَلِهِ .
- يُطْلَعُ الْقَارئُ عَلَى طَرَائِقِ الْبَحْثِ وَمَنَاهِيهِ .
- الْكِتَابُ غَنِيٌّ بِشَوَادِدِ الْعِرْبِيَّةِ .
- عَرْضٌ لِطَافَّةٍ مِنَ الْمَبَاحِثِ الْبَلَاغِيَّةِ .
- يُعَتَّرُ الْكِتَابُ شَاهِداً وَاضْحِيًّا عَلَى الْمَرْحَلَةِ الْآخِيرَةِ مِنْ مَراحلِ التَّأْلِيفِ فِي التَّحْوِيَّةِ الْقُرْآنِيِّ (١) .
- يَعْنِي فِي كَثِيرٍ مِنْ جَوَابِ التَّقْسِيرِ (٢) .

وَيُمْكِنُنَا أَنْ نُضَيِّفَ إِلَى مَا سَبَقَ أَعْمَيَّةَ الْأُخْرَى لِتَقْسِيرِ السَّمِينِ وَهِيَ أَنَّ كَثِيرًا مَا يَقْدِمُ الْمَعَانِي الْبَيَانِيَّةَ عَلَى إِعْرَابِ الْقُرْآنِ ، خَاصَّةً فِي الْآيَاتِ الَّتِي تَشَتمِلُ عَلَى الصُّورِ الْبَلَاغِيَّةِ وَهِيَ كَثِيرَةٌ فِي تَقْسِيرِهِ ، تَحْلِيَّلِهِ مَنْهَا وَهَذَاكُ ، وَتَقْسِيرِهِ أَكْبَرُ شَاهِدٍ عَلَى ذَلِكِ ، وَمِنْ شَوَادِدِ ذَلِكِ تَطْلِيلِهِ تَعَالَى : « قَمِّلَ الَّذِيَّتُ كُلُّهُنَّ أَكْبَرُ الَّذِيَّ يَتَعَقَّبُ بِمَا لَا يَقْسِمُ إِلَّا نَفَّاءً وَقِيَّادًا » (٣) حَلَّهَا قَاتِلًا : « اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا . وَاضْطَرَبُوا أَضْطَرَابًا كَثِيرًا ، وَقَدْ لَخَصَّ أَقْوَالَهُمْ مَهْدِيَّةً . وَلَا سَيِّلَ إِلَى مَعْرِفَةِ الْإِعْرَابِ قَبْلَ مَعْرِفَةِ الْمَعْنَى الْمُذَكُورِ فِي الْآيَةِ .

فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : مَعْنَاهُمْ أَنَّ الْمَثَلَ مُضْرُوبٌ بِتَشْبِيهِ الْكَافِرِ بِالْتَّاعِنِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ هُوَ مُضْرُوبٌ بِتَشْبِيهِ الْكَافِرِ بِالْمَنْتَعِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ هُوَ مُضْرُوبٌ بِتَشْبِيهِ دَاعِيِ الْكَافِرِ بِالْتَّاعِنِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ هُوَ مُضْرُوبٌ بِتَشْبِيهِ الدَّاعِيِّ وَالْكَافِرِ بِالْتَّاعِنِ وَالْمَنْتَعِ بِهِ ، ثُمَّ أَخْدَى السَّمِينِ يَقْدِرُ

(١) مِنْ جَمِيعِ لَرَاءِ الْمُتَقْدِمِينَ مِنْ تَابِعِيَّةِ وَالتَّقْسِيرِ فِيمَا يَبْيَنُهَا مِنْ تَابِعِيَّةِ ثَانِيَّةِ .

(٢) تَقْلِيلٌ مِنْ مَقْمَةِ تَحْقِيقِ الْكِتَابِ « بِتَصْرِيفِ سَيِّرَةِ الظَّرِيرِ » : مَقْمَةُ التَّحْقِيقِ مِنْ ٣١ : ٢٤ .

(٣) سُورَةُ الْبَرِّ آيَةُ ١٦١ : ١٥٧ -

المعنى على الأقوال السابقة ، ويطيل في ذلك ، ويقتبس كثيراً من المختصرى، وألى حيان
أثناء تحليله وعرضه ، وينتهى إلى القول في الآية : « أنه لما شبه قصه الكافرين في إعراضهم
عن الداعى لهم إلى الحق بقصة الناعق ، فدم ذكر الناعق ليتبين عليه ما يكون منه ومن
المنعق به »^(١)

غير أننا نلاحظ على السعى الحلى ، وهو يعرض الصور البلاغية تسليط عليه عقلية
الجمع كما سيطرت عليه في المسائل النحوية ، وكان هدفه هو جمع أطراف هذه الصور من
كتب العلماء .

ثم يحدثنا المؤلف عن التشبيه ، وحديثه عنه لا يقل شائعاً عن حديث ذوى التخصص
والبراعة في هذا الشأن ، فهو في معرض تحليله للآيات التشبيهية يفرق بين التشبيه المفرد ،
والتشبیه المركب فيقول : التشبيه المفرد هو مقابلة مفرد بمفرد ، أو مقابلة جزء من الكلام
المتشابه من الكلام المشبه به ، أما إذا كان التشبيه من باب تشبيه جملة بجملة ، فلا ينطوي
في ذلك إلى مقابلة الألفاظ المفردة ، بل يتوجه إلى المعنى »^(٢)

ويسلط الضوء على القضية بصورة أكثر كثافة فيقول : « إن التشبيه المركب في اصطلاح
البيانيين إما أن يكون طرفاً مركباً ، أى تشبيه مركب يمركب كقول بشار :

كان نثار النعف فوق رؤسنا . وأسيافنا ليل ثوابي كواكب

وذلك أنه يشبه الهيئة الحاملة من هي آجرام مشرقة مستطيلة متناسبة المقدار ، متفرقة
في جوانب شين مظلم يليل سقطت كواكب »^(٣).

فالتشبيه المركب إذن عند المؤلف هو أن تقابل الهيئة الاجتماعية ب الهيئة الاجتماعية أخرى ،
ولا يقابل الأفراد بالأفراد »^(٤).

أما حديث المؤلف عن المجاز ، فيتناوله تناولاً شاملأً لجميع أقسامه ، من المجاز اللغوى ،
والعقلى ، ومجاز الحذف ، ومجاز الحروف ، والمجاز المرسل باشكاله المختلفة ، وهو في توجيهه
للآيات يعزز ما يرمى إليه بالشاهد الشعري الكثيرة ، ويعجب القارئ عندما يوجه شواهد

(١) انظر : الدر المصنون ٢/٢٢٢ ، والكتاف ١/٢٢٨.

(٢) الدر المصنون ٢/٢٢٢.

(٣) المصدر نفسه ٧/١٧٧.

(٤) المصدر نفسه : ٣٥٩/٣.

توجيهها بيانياً . وليس تحوراً وهو فارسه ، وتلحظ عليه في توجيهها تأثره الواضح بعلماء البلاغة والأصول وبخاصة الرمخشري والمر بن عبد السلام ، وأنترك الآيات توضح لنا ذلك من خلال تفسير الرجل .

ففي قوله تعالى: «إِنَّ أَرَائِيَ الْعَصْرَ حَمْرَأً»^(١) يقول : «والحمر : العتب أطلق عليه ذلك مجازاً ، لأنَّه أيل إلىه ، كما يطلق الشيء على الشيء باعتبار ما كان عليه ، كقوله تعالى: «هُوَ أَقْرَبُ الْيَتَامَى»^(٢) . ويدى المؤلف أن المجاز فيما علاقته ما كان عليه أقرب مما فيما كان علاقته ما ينزل إليه ، يقول : «ومجاز هذا أقرب»^(٣) .

ويتحدث عن مجاز الحرف في قوله تعالى: «وَاسْأَلْ الْقَرْيَةَ»^(٤) ، يشرحها بقوله «يحتمل ثلاثة أوجه : الأول : المشهور : أنه على حذف مضاف تقديره «واسأل أهل القرية» ، وأهل العبر ، وهو مجاز شائع ، والثاني أنه مجاز ، ولكنه من باب إطلاق اسم المحل على الحال المجاورة كالرواية المزدادة . الثالث : أنه حقيقة لا مجاز فيه ، وذلك أنه يجوز أن يسأل القرية نفسها ، والإليل لمجيئه ، لأنَّه ليس يجوز أن ينطلي له الجماد والبهائم»^(٥) .

وبارغم من أن المؤلف جماعة يأخذ من هنا ومناك إلا أنه قد ياتي بما يسر ، فيبين الفرض البالغ من المجاز العقلي فيقول في قوله تعالى: «إِنَّمَا تَكُونُوا يَتَرَكَّمُ الْمَرْءُ وَأَنْتُمْ فِي بَيْرِجٍ مَسْبِيَّةٍ»^(٦) نسب الفعل «مسبيدة» إلى الدرج آى : ضميراً مجازاً كقولهم : قسيدة شاعرة ، والموصوف بذلك أهلها . وإنما عدل إلى ذلك مبالغة^(٧) .

وتقسم المؤلف المجاز بحسبه أنواعه لم يمنعه عن الخلط أحياناً فهو يختلط بين المجاز العقلي والاستعارة ، وذلك حين جعل إسناد الهبرط إلى ضمير الحجارة استعارة في قوله تعالى: «وَلَنْ تَنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ قُلُوبِ اللَّهِ»^(٨) حيث قال : «إسناد الهبرط إليها استعارة»^(٩) .

وقد يجتمع المجاز اللغوي مع المجاز العقلي في تحليل السمين كما في قوله تعالى: «أَيُّلَّةٌ الَّذِينَ افْتَرَوْا الصَّلَاةَ يَأْتُهُمْ فَمَا زَيَّتْ تِجَارَتَهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَمِّينَ»^(١٠) يقول : والشرا هدا مجاز عن الاستبدال بمعنى أنهم لما تركوا الهدي ، وأثروا الشلاة ، جعلوا بمنزلة المشترفين لها بالهدي ، ثم درسخ هذا المجاز بقوله «فَمَا زَيَّتْ تِجَارَتَهُمْ فَلَمْ يَنْتَدِرُوا إِلَيْهِ»^(١١) .

(١) سورة يوسف آية ٧٣

(٢) سورة الرحمن آية ٨٢

(٣) سورة يوسف آية ٤٦

(٤) سورة الرحمن آية ٤٤

(٥) سورة الرحمن آية ٧٨

(٦) سورة الرحمن آية ٧٤

(٧) سورة الرحمن آية ٢٠

(٨) سورة الرحمن آية ٤٣

(٩) سورة الرحمن آية ٦٣

التجارة ، والمعنى : فما ربحوا في تجارتهم ، وذكر شوادر شعرية نظير هذا الترشيح نختار منها قول الشاعر :

وَلَا رَأَيْتَ النَّسَرَ عِزَّ ابْنَ دَائِيَةٍ
لَا جَعَلَ النَّسَرَ عِبَارَةً عَنِ الشَّيْبِ ، وَابْنَ دَائِيَةٍ وَهُوَ الْفَرَابِ عِبَارَةً عَنِ الشَّيْبِ مَجَازًا ،
رَشْحَهُ بِقَوْلِهِ : « وَعُشَّشَ فِي وَكَرِيهِ جَاشَ لَهُ صَدْرِي »^(١)

والشوادر الشعرية المبرهنة على التوجيه البلاعى لا تتوقف كذلك عند حديث المؤلف عن الاستعارة ، فهو يستعرض سلة شوادر من النظم والنشر عند شرحه للاستعارة في قوله تعالى : « قَاتَلَتِ الْيَهُودَ يَدَ اللَّهِ مَقْلُولَةً »^(٢)

يقول السمين : « وَغَلَ الْيَدِ وَيُسْطِلُهَا هُنَا اسْتِعَارَةً لِلْبَخْلِ وَالْجُودِ ، وَإِنْ كَانَ لَيْسَ شَمْ يَدِ وَلَا
جَارِجَةٌ ، وَكَلَامُ الْعَرَبِ مَلَأَنِي مَذَلَّةً ، فَلَمَنْ يَنْقُضَ بِكَلَامِيَّيْهِ ، قَالَ الشَّاعِرُ :
يَدَاكِ يَدَا مَجِدٌ فَكَفَّ مَقْيِدَةً وَكَفَ إِذَا مَاضِيْنَ بِمَالِ تَنْفِقَ

وقال آخر وهو أبو تمام :

تَوَدُّ يَسْطِلُ الْكَفَ حَتَّى لَوْ أَنَّهُ دَعَاءٌ لَقَبِيسٍ لَمْ تَطْعَمْ أَنَاسِهِ
وَقَدْ اسْتَعَارَتِ الْعَرَبُ ذَلِكَ حِيثُ لَا يَدُ أَبْيَهُ ، وَمِنْهُ قَوْلُ لَبِيدِ
إِذْ أَصْبَحَتِ يَدِيَّ الشَّمَالَ ذَمَامَهَا .

وقال آخر :

جَادَ الْحَمْنَ بِسْطِ الْيَدَيْنِ بِوَابِلٍ شَكَرَتْ نَدَاءَ تَلَامِعَهُ وَوَهَادِهِ
وَقَالُوا : يَسْطِلُ الْيَاسِ كَفِيَّهُ فِي صَدْرِي ، وَالْيَاسُ مَعْنَى لَاعِنَ ، وَقَدْ جَعَلُوا لَهُ كُفِينَ
مَجَازًا^(٣)

وَمِنْ أَمْثَلِ الْكَتَابِيَّةِ قَوْلَهُ تَعَالَى : « قَاتَلَتِ اللَّهُ لَقَدْ أَفْرَدَ اللَّهُ عَلَيْنَا »^(٤) يَقُولُ السَّمِينُ ،
اسْتَئْنَ اللَّهُ بِفَلَانِ كَتَابَهُ عَنِ اسْطِفَانَ ، قَالَ الشَّاعِرُ :

وَاللَّهِ أَسْمَاكِ سَمَا مِيَارَكَأَأَتْرَكَ اللَّهَ بِهِ إِيَثَارَكَأَ^(٥)

(١) الْبَرَّ الْمَسِينُ ٦١/١

(٢) سُورَةُ الْمَائِدَةِ آيَةٌ ٦٤

(٣) الْبَرَّ الْمَسِينُ ٢٤٢/١

(٤) سُورَةُ يُوسُفَ آيَةٌ ٩١

(٥) الْبَرَّ الْمَسِينُ ٦٠٤/٦

وقوله تعالى: « هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ فَأَنْتُمْ لِيَاسٌ لَهُنَّ »^(١) يقول السمين : وكني باللباس
عن شدة المخالطة كقول النابية الجعدي :

إذا ما الضجيج ثقى جيدها
تثبت عليه ذكانت لباساً^(٢)

أما التعریض فمن أمثلته عنده قوله تعالى: « ذَلِكَ جَوَاهِرَاتُمْ يَنْعِيُونَهُ مِنَ الْمَسَايِقِنَ »^(٣) . يقول فيها المؤلف : إنما الصادقون : تعریض بكلبهم حيث قالوا : نحن
متذمرون في تحريم هذه الأشياء بإسرائيل ، والمعنى الصادقون في إخبارنا عنهم ذلك^(٤) .

ومن الواضح بمكان أن هذه النماذج المختارة دالة على مدى اهتمام السمين بالجانب
البلاغي في كتابه « الدر » وليس كما زعم محقق الكتاب أن السمين لا يعتير بالتجزية البلاغي
عند توجيه الإعراب ، ولا يمكن ذلك دالاً عنه بحجة أنه « من باب البلاغة »^(٥) .

والذي نراه أنه يشبع المسائل البلاغية التي تحتاج إلى إشباع ، فهو عالم متفهم لمعانى
البيان القرآنى ، غير أنه يحرص كثيراً على الاقتباس من أهل الاختصاص ، ويتناول أقوالهم ،
ويعرض آرائهم ، دون إبراز رأيه في المسألة ، وهذا قلل من ظهور أثر شخصيته في الكتاب .

(١) سورة البقرة آية / ١٨٧

(٢) الدر المصنون ٢٩٥/٢

(٣) سورة الانعام آية ١٦

(٤) الدر المصنون ٢٠٩/٥

(٥) مقدمة تحقيق الدر المصنون من ٢٧ .

الفصل الرابع

الأدباء والنقاد

- * ابن الأثير الجزري
- * ابن أبي الإصبع
- * ابن المنير
- * نجم الدين بن الأثير

الفصل الرابع الادباء والنقاد

وكان للغويين والتحاة جهد مشكور ، وأثر موفر في الدراسات البيانية للقرآن الكريم . كان للنقد والأدباء أثر لا يقل شانًا عن أثر اللغويين والتحاة، فقد كان النقد الأدبي عاملاً من أهم العوامل التي ساهمت في نشأة البيان وتطوره ، والصلة بين النقد والبيان صلة وثيقة داتة .

والنقد والأدباء هم كتاب من الدرجة الأولى ، لذلك فقد كان لهم أثر واضح في بحوثهم البيانية ، لأنهم سبقوها بصيغة أدبية ، لما امتازوا به من أدب رفيع ونحو سليم ، ولهذا فقد اعتبر الجاحظ طريقتهم في البلاغة أمثل طريقة يقول : « ولم أرقط أمثل طرifice في البلاغة من الكتاب ، فإنهم التصعوا من الآلاظف ما لم يكن متعمراً وخشياً ، ولا ساقطاً سوقياً » (١) .

وأتجه الأدباء والنقاد بدراساتهم للقرآن الكريم إلى الناحية الفنية ، والجمال الفني ، حتى استطاعوا الكشف عن بلاغته ويدعوه إيقاناً منهم أن القرآن الكريم قد بلغ الذروة في البلاغة والفصاحة .

وفي الواقع فإن البلاغة أخذت على أيديهم شكلاً آخر غير الاشكال التي عرضناها ، والتي سنعرض لبعضها الآخر فيما بعد . فقد كان لهم بجانب دراساتهم الأدبية دراسات قرانية ودينية ، وهم في هذه وتلك يغلب عليهم الأسلوب الأنبياني والخيال الرائع ، فقد جعلوا للدراسات البيانية روحًا ، ويعشا فيها حياة بعد موت ، فإذا هي حية شاهقة تتحرك أمام الناظرين ، وإذا بالأمثلة توحى بكل بديع وعجيب ، لأن شواهدتهم كانت وفيرة ، وتحليلهم لها كان دقيقاً ، وكان لهم موازنات رائعة بين نظم العرب والنص القرآني بفرض التكيد على إعجاز القرآن الكريم ، ولا عجب في ذلك فهم أصحاب خبرة ومعرفة بجيد الكلام ورديته ، مما جعل لإرائهم أعظم الأثر فيمن لحق بهم وسار على نهجهم .

وأترك الآن أعمال أولئك الكتاب والنقاد لتتحدث عن نفسها لقصورى وعجزى عن وصفها الوصف الكامل ، ومن أهم الكتاب والنقاد الذين يربذ اسمهم ولع في الفترة المخصصة ليحيثنا ابن الأثير الكاتب والنقد ، وابن أبي الإسحاق الشاعر والنقد ، ونجم الدين بن الأثير الحلبى ، وابن المنذير صاحب الانتصاف من الكشاف .

(١) البيان والتبيين الجماهري ج ١ من ١٣٧ - ١٦٥ .

«المثل السائِر في أدب الكاتب والشاعر» لابن الأثير (٦٣٧ هـ)

نشأ شيوخ الدين بن الأثير في أسرة علم وأدب (١) فكان كاتباً ممتازاً ، ومؤلفات كلها في الأدب والرسائل والبيان ، وأهم مؤلفاته « المثل السائِر » ولقد ركزنا على هذا الكتاب خاصة لأنّه عُرف في أوساط الباحثين على أنه كتاب أدب ويلاعنة فقط ولم يعرف على أنه كتاب لبيان القرآن وهو في كتابه هذا قد تحول بالبيان عن طريقة السكاكي إلى طريقة القديماء ، والتي يتسع فيها معنى « البيان » ليشمل كذلك - مباحث المعاني والبديع .

وعندما نلقي بالمألف في مقدمة كتابه « المثل السائِر » نشعر أننا أمام رجل قرأ ما كتب من أعمال السابقين في علم البيان ، وانتفع به أكبر انتفاع ، ولم يقف أمامه موقف النادم البصيري فحسب ، بل يبحث ويتنقب عن أنسس جمالية لم تكشف من قبل ، يضيفها إلى ما عرف منها . يقول في المقدمة : « وقد أذف الناس فيه - أي علم البيان - كتباً وجلبوها ذهباً ، وحطبو حطباً ، وما من تأليف إلا وقد تراحت شيئاً وسميه ، وعلمت شيئاً وسميه ... وكانت عثرت على ضرور كثيرة منه في غربون القرآن الكريم ، ولم أجد أحداً من تقدمي تعرض لذكر شيئاً منها ، وهي إذا عدت كان في هذا العلم بمقدار شطره ، وإذا نظر إلى فوائدها وجدت محظوظة عليه ياسره ... وهذا نور الله لا ينبع أشياء لم تكن من قبيلي ميتدة ، ومنحنى بركة الاجتهاد التي لا تكون أقوالها ثابعة ، وإنما هي متيبة » (٢) .

وإذا أخذنا على المؤلف شدة اعتقاده بنفسه ، فإننا نقبل منه ذلك عندما نرى تقديره لعلم البيان ، واجتهاده في تنظيمه ، واستكمال أبوابه ، واحتفاظه بشخصيته واضحة في إبداء الرأي الذاتي على نحو ساطع ، وهو بذلك ينفرد في هذا المنسى بمقارنته بمن حوله ، وإذا نحن درسناه جنباً إلى جنب مع جهد الآخرين (٣) .

وتحظى - أيضاً من خلال مقدمة المؤلف - أن طريقة في النقد طريقة أدبية تعتمد على الترقى السليم ، الذي هو انتفاض من ذوق التعليم ، وأن الدرية والمارسة تجدى تماماً من دراسة

(١) انظر : ترجمته في : « بليات الأعيان لابن حلكان ٢٠٨/٢ ، شذرات الذهب ١٨٧/٥ ، والتلجم الزاهرة ٢٨/٢ ، وعيون الأنبا في طبقات الأنباء لابن أصيبيه ١٨٩/٢ ، وينية الوعاء من ٤٤ ، والمثل السائِر » المقدمة للassistantين د / أحمد الحولي ، د . بدوى طهان .

(٢) انظر : المثل السائِر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير تحقيق د. الحوفي د . طهان ج ١ من ٣٣ ، من ٢٤ / ط . دار تهفة مصر .

(٣) انظر : تاريخ النقد الأدبي عند العرب . د . إحسان عباس من ٦٠٨ بتصريف دار الثقافة / بيروت سنة ١٩٧٨ .

القواعد النظرية ، وهذا ما تجله فيه ، وينقره عليه . يقول : « واعلم أنها الناظر في كتابي أن مدار علم البيان على حاكمائق السليم ، الذي هو أدنى من ذوق التعليم ... بأن الدرية والإدمان أجدى عليك نفما ، وأهدى بصراً وسمعاً وهم يربانك الخير عياناً ... »^(١).

وقد بني ابن الأثير كتابه على مقدمة ومقاتلين ، أما المقدمة فتشتمل على أصول علم البيان ، والمقدمتان تشتملان على فروعه ، فال الأولى في الصناعة الفنية ، والثانية : في الصناعة المعنوية . وقد قسم ابن الأثير المقدمة إلى عشرة فصول ، خمس الأولى منها بموضوع علم البيان ، تكلم فيه عن أعميته ، وذكر أن منزلة لتأليف النظم والنشر ، بمقدمة أصول الفقه للأحكام وأدلةها^(٢).

ويilmiş المؤلف في مباحث المقدمة فيتحدث عن موضوع علم البيان ، ويقول : إن موضوعه هو الفصاحة والبلاغة ، وصاحبها يسأل عن أحوالها المعنوية والمعرفة^(٣) وليس البيان عنده كما تعرّفه اليوم ، وإنما يجعله مرادفاً لكلمة « البلاغة » مواقعاً في ذلك الباحث ، ومن سلك مسلكه ، مخالفًا بذلك منهج السكاكي ، ولعل هذا ما حدا باستاذنا الدكتور / زغلول سلام أن يقرر : أن كلمة أدب « عند ابن الأثير تquals كلمة « بيان » »^(٤).

ونتكلم في الفصل الثاني عن أدوات علم البيان ، وأداته ، وما يتبعها أن يتزود به الشاعر والكاتب من المعرفة والثقافة ، وهي عنده معرفة علم العربية وعلم اللغة ، وأمثال العرب ، وأيامهم وأئتها البالغين في هذه الصناعة ، ومعرفة الأحكام السلطانية ، وحفظ القرآن الكريم ، لأجل الاقتباس والتضمين وحل آياته ، وحفظ الحديث النبوي ، السلوك به مسلك القرآن الكريم في الاستعمال ومعرفة العروض والقوافي ، وهو ما يختص بالنظم دين الناشر ، ويجعل ابن الأثير ملاك هذا كله الطبيع والذيق ، فإنه إذا لم يكن قم طبع فإنه لا تتفق تلك الآلات شيئاً ، ومثال ذلك كمثل النار الكامنة في الزناد ، والمديدة التي يفتح بها ، إلا ترى أنه إذا لم يكن في الزناد نار لا تقدر تلك المديدة شيئاً^(٥).

ويخصوص الفصلين الثالث والرابع للمعاني ، عقد أحدهما الحكم على المعاني ، والثاني للترجيح بينهما ، ويرى أن صاحب « البيان » مقتدر إلى هذين الفصلين . يبحث في أحدهما المعنى الظاهر والمؤول . وقدر أن الأصل في المعنى أن يحمل على ظاهر لفظه ، ومن يذهب إلى التأويل ينقر إلى دليل كقوله تعالى : « قَرِيبَكَ قَطْهُرَ »^(٦).

(١) انظر : المثل السادس ج ٦ من ٣٥.

(٢) المثل السادس ج ١ من ٣٧.

(٣) انظر : تاريخ النقد العربي لاستاذ د . زغلول سلام

(٤) المثل السادس ج ١ من ٣٧.

(٥) مسوقة المختار آية ٤.

فالظاهر من لفظه «الثاب» ما يليس ، ومن تأويل ذهب إلى أن المراد هو : القلب ، لا المليوس ، وهذا لا بد له من دليل ، لأنه عدول عن ظاهر اللفظ^(١) .

ويفرق المؤلف بين التفسير والتلويل ، فيجعل التفسير أعم من التلويل « وكل تأويل تفسير ، وليس كل تفسير تلويلًا ، وتقسم التلويل إلى أنواع منه ما يفهم منه شيئاً واحد لا يحتمل غيره ، ومنه ما يفهم منه الشيء وغيره ، ومنه ما هو أدق وألطف ، ومنه قوله تعالى « وَلَا تَقْنُطُ أَنفُسَكُمْ »^(٢) .

فإن هذا له وجهان من التأويل أحدهما : القتل الحقيقي الذي هو معروف والآخر : هو القتل المجازى ، وهو الإكياپ على المعاصي ، فإن الإنسان إذا أكب على المعاصي قتل نفسه في الآخرة ، ومنه كذلك قوله عليه السلام « ألمؤلِّكَنَ يَدًا ، أَتَرْكَنَ لَهُوَقَابِينَ »^(٣) .

فَلَمَا ماتَ يَتَّيَّبَ . جعلن يطاؤون بَنَ أَيْدِيهِنَ ، حَتَّى يَنْظُرُنَ أَيْمَنَ أَطْلَوْنَ يَدًا ، ثُمَّ كَانَتْ زَيْبَ^(٤) أَسْرَعُهُنَ لَهُوَقَابِا بِهِ ، وَكَانَتْ كَثِيرَةَ الصَّدَقَةِ ، فَلَعِنَ حِينَتَهُ أَنَّهُ لَمْ يَرِدْ الْجَارِجَةَ ، وَإِنَّمَا أَرَادَ الصَّدَقَةَ ، فَهَذَا القول يدل على المعنيين المشار إليهما «^(٥) .

وهكذا يعزز ابن الأثير ما يرمي إليه بالشواهد القرآنية ، والحديث النبوي والجيد من شعر العرب ، وهو في ذلك كله يحصل ذوقه وطبعه ، حتى ليشعر القارئ معاً بنشوة وطرب لا يعدهما مع غيره من عاصروه .

أما الترجيح بين المعاني ، فهو عنده ميزان الخواطر ، الذي يميز به الترجيح البصري ، والترجح الفقهي ، وهو ما يقع بين معتبرتين ، قد يكون أحدهما حقيقة والآخر مجرد ، وقد يكونان حقيقتين ، وقد يكونان مجازين ، ويلاحظ ابن الأثير أن الترجيح بين المعاني المختلفة يعلم بديهية النظر كالترجيح بين الحقيقة والمجاز ، أما الترجيح بين الحقائقتين ، أو بين المجازين فإنه يحتاج إلى نظر^(٦) . وهو في هذا الفصل أيضاً يكثر من الشواهد المتعددة والمتباعدة .

والحقيقة أن العلماء متفاوتون في الحكم على ابن الأثير في هذين الفصلين ، فنرى بعضهم يرجح تأثره فيما بالأصوليين لأنه يستند من كلامهم في دلالات العبارات ، والترجح بينها ، ترجيحاً يعطيهم يتسعون في دراسة تقدير الاحتمالات في نصوص القرآن ، والحديث ، وما يعطي ظاهر النص وما يعطي باطنها ، أو بعبارة أخرى ما يعطي منطقه ومفهومه^(٧) .

(١) المثل السادس ج ١ من ٦٦ (٢) سيرة النساء آية / ٢٩

(٣) انظر : البخاري (٤) هي زينب بنت جحش زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٥) انظر : المثل السادس ج ١ من ٦٦ (٦) المصدر نفسه ج ١ من ٧٠ وما بعدها يتصرف بمسير

(٧) انظر : البلاقة شلو وتأريخ ص ٣٣٩ - ١٦٨

أما بعضهم الآخر فيرى أن ابن الأثير كان تأثراً الكبير بابن سنان الفقاجي وخاصة في الجزء الذي عقده عن المعانٍ ، وشروطها ، ولم يقتصر تأثيره بابن سنان على هذا الفصل فقط ، بل انتسب إلى البطل العام الكتاب أيضاً^(١).

ويجعل المؤلف الفصل الخامس في « جوامع الكلم » ، ويحمل حديثه عنها في الفصل السادس الذي تحدث فيه عن « الحكم التي هي شالة المؤذن ، والتي لا تقتصر على البلوغ ، بل هي في كلام العامة ، كما هي في كلام الناصحة ، والعجيب أنه يرى أنها تجري ضمن هذين المشعدين في صورة لا يستطيع أن يأتى بمثيلها البلاغة^(٢)».

ثم يعرض المؤلف لقصصه وبالبلاغة في الفصل الثامن ، والكلام القصبي عنده هو الظاهر الآتي « وإنما كان ظاهراً بينا ، لأنه مأول الاستعمال لما كان حسنة ، وحسنه مدراك بالسمع ، والذي يدرك بالسمع إنما هو اللقطة^(٣)».

ولذا أمعن الباحث نظره في هذا الكلام ، رأى أن ابن الأثير يصف الكلمة المفردة بالقصاصحة ناصراً للقطط على المعنى ، لأن المعنى - في نظره - يعني فيه ضعفأً وتباهياً ، وهو في ذلك يخالف رأى عبد القاهر المشهور ، الذي ينصر فيه المعنى على اللقطة ، لكنه يعود في ذاته في رأيه عند حديثه عن جمال التراكيب « ولعل الذي دفع ابن الأثير لهذا الرأى هو طبيعة عمله ومهنته ، وكونه كاتباً ، ومهنة الكتابة - وبخاصة في عصره - تعتمد على انتقاء الألفاظ ، وعلى التصوير والتعبير أكثر من المعنى »^(٤).

ونلاحظ - أيضاً - على ابن الأثير أنه يوافق إلى حد كبير ابن سنان في سر القصاصحة الذي جعل من أسباب قصاصحة المفرد أن يكون له في السمع حسن وعزبة كتابيف « عذب ، وعذيب » ، وقد خالف هذا القول وفندته محمد الجرجاني ، صاحب الإشارات وهو سابق لابن الأثير - وكان الأجرد بصاحبنا أن يذكر هذا الرأى أو يبين وجهة نظره فيه^(٥).

ويعود المؤلف ليحدثنا عن القصاصحة مرة أخرى في المقالة الأولى - ويقسم القصاصحة فيها إلى قصاصحة في المفرد ، وقصاصحة في الكلام ، ويمضي في ذكر شروط اللقطة المفردة ، ويجري

(١) انظر : تاريخ النقد العربي من ٣٧٢ وما بعدها . وانظر: سر القصاصحة لابن سنان ص ١٢١ .

(٢) انظر : المثل السادس من ٧٨ ، ص ٨١ (ينصرف) .

(٣) انظر : المثل السادس من ٩٧ . (٤) انظر : البلاغة تطور وتاريخ ص ٣٧٦ .

(٥) انظر : الإشارات والتبيينات في علم البلاغة ص ١ .

في ذلك - أيضاً - مجرى ابن سنان في سر الفصاحة ، لكنه يستدرك عليه بعض الاستدرادات ويخالفه في مواضع كثيرة ، ولعل أهم خلاف بينهما هو أن ابن الأثير لم يجعل للمقاييس الوضعية والمنطقية وحدهما الحكم الأول والأخير في النس ، بل جعل التوكّف هو المرجع الآخر .^(١)

ويرى ابن الأثير أن حنطات التفاوت ، والتفاصل في الكلام يقع في تركيب الألفاظ ونظمها أكثر مما يقع في مفرداتها لأن التركيب أسرع وأشق .^(٢)

ويستشهد على ذلك بآية من القرآن هي قوله تعالى: «وَهِيَ أَرْضُ الْبَقِيَّ مَاتِكُ وَيَا سَمَاءُ أَقْعُصُ تَرْبِيَّكُ الْمَأْذُورُ وَاسْتَوْكُ عَلَيْكُ الْجَوَادُ» .^(٣) ويقول يمدةً لـ«القم الطالبين»^(٤) وارجع المزنة في الآية إلى تركيبها بقوله: «إنك لم تجد مارجنته لهذه الألفاظ من المزنة الظاهرة ، إلا لأمر يرجع إلى تركيبها ، وأنه لم يعرض لها هذا الحسن إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية ، والثالثة الرابعة ، وكذلك إلى آخرها» .^(٥)

ويوازن ابن الأثير بين وضع لفظة واحدة في آية من القرآن وبين من الشعر ، فجاءت في القرآن جزءة متنية ، وفي الشعر ركيكة ضعيفة ، فما ثال التركيب فيها هذين الوصفين الضدين - أما الآية فهي قوله تعالى: «إِنَّا لَكَفَيْتُمْ كَانِتُمْ رَافِعِينَ وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ بِعَذَابِنَا إِنَّكُمْ كَانُتُمْ يَقْدِرُونَ يَنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَخِنُ بِمِنْ أَنْفُقَ» .^(٦)

وأما بيت الشعر فهو قول المتني:

كُلْدَ لَهُ الْنَّوْمَةُ وَهِيَ تَنْذِي وَقَنْ يَمْشِقُ يَدَ لَهُ الْقَرَامَ .^(٧)

وهذا البيت من أبيات المعانى الشريفة ، إلا أن لفظة «تنذى» قد جاء فيه ، وفي الآية من القرآن ، فخططت من قدر البيت ، لضعف تركيبها ، وحسن موقعها في تركيب الآية .^(٨)
ولقد جاءت هذه الموازنة في مكانها الصحيح ، لأن المؤلف وضع بد القارئ على الحسن وضده ، ويزدكي على أن القرآن أفضح الكلام والناظر في أسرار فصاحتته يغوص في بحر عميق لا يرار له .^(٩)

(١) انظر تاريخ النقد العربي ١ . د . زغلول من ٣٦٣

(٢) مثل السائر ج ١ من ٩٤ (٣) سورة هود آية / ٤٤

(٤) انظر السائر ج ١ من ١٦٦ - ويرى أن هذا المثال هو نفسه اختيار عبد القاهر الجرجاني في دلاته

إلا أنه يتفق معه في التحاليل أيضاً شكلاً وبخصوصها . انظر: دلائل الإعجاز من ٣٩ ، من ٤ .

(٥) سورة الأحزاب آية / ٢٠ (٦) ديوان المتني ٧٥/٤

(٧) انظر مثل السائر ج ١ من ١٦٧ .

(٨) انظر: المصدر نفسه ج ١ من ١٦٩ ، من ١٧٩ .

ثم ينتقل ابن الأثير من أحوال اللقطة المفردة إلى الألفاظ المركبة ، ويستهل حديثه عن تركيب الألفاظ المفردة في العبارة، الذي يحدث عنه من فوائد التاليفات والامتزاجات ما يخبل للسامع أن هذه الألفاظ ليست تلك التي كانت مفردة .

ومثال ذلك كمن أخذ لأنّه ليس من ثواب القيم الفالية ، فإنّها وأحسن الوضع في تاليتها فخيل للناظر بحسن تاليّة . وإنّما صنعته أنها ليست تلك التي كانت متفردة مبتدأ ، وفي عكس ذلك من يأخذ لأنّه من ثواب القيم الفالية فيقصد تاليّتها . فإنه يضع من صنعتها ، وكذلك يجري حكم الألفاظ العالية مع فساد التاليف ، وهذا موضع شريف يتبين الانفلات إليه والعنابة به^(١) .

ويلاحظ أستاذنا الدكتور زغلول سلام على هذه العبارة أربع ملاحظات جديرة بالتسجيل في هذا المقام : أما الملاحظة الأولى فكونه جعل الألفاظ المفردة طبقات بين شريف ورضيع . وثانيةها : أنه قارن بين الألفاظ والكلمات أو الجواهر ، وبين نظم هذه ونظم تلك . والثالثة : أنه راهم الصنعة الظاهرة أى صنعة اللقطة ، ولم يأخذ في اعتباره في هذه الفقرة معانى النظم ، وهي معانى التحوّل كما تكلم عنها الخطابي وعبد القاهر . والرابعة ، أنه ألم إلّاماً وافياً برؤى جماعة « أصحاب الصنعة اللقطية » من أصحاب طريقة العرب ، وربما نقل في هذه العبارة كثيراً من كلام ابن رشيق بالفظه^(٢) .

وضياء الدين بن الأثير في كل ما كتبه عن فصاحة المفردات ، والألفاظ المركبة يستمد من ابن سنان الفقاجي ، وكأنه لم يشرح أكثر من شرح كلامه مع إضافة بعض ملاحظات فرعية هنا وهناك^(٣) .

ثم عرض ابن الأثير الصورة البيانية من تشبيهه واستعارة ومجاز وكتابية ، وهي ما تهمنا بصورة خاصة ، لصلتها الوثيقة ببحثنا ، وحديثه عن أقسام البيان هنا - يبدو متداخلاً ، ومن أراد أن يتعرف على معالجته لهذه الفنون البيانية ، فعليه أن يلتفت إلى ثانيا الكتاب الذي جاءت مفرقة فيه .

وبعيداً المؤلف حديثه عن هذه الفنون بالمجاز ، لأنّه يضم بقية الأقسام تحت جناحيه - فقد ابن الأثير له الفصل السابع من المقدمة ، ويرى « أنه مهم كبير من مهام علم البيان ، لا بل هو علم البيان بأجمعه ، ثم عرف الحقيقة والمجاز ، وعرض لاقتسامهما ورفض التطرف في

(١) انظر : المصدر نفسه ج ١ من ٢٠٩ . (٢) انظر : المصدر نفسه ج ١ من ٢٠٩ .

(٣) انظر : تاريخ النقد العربي من ٦٦٦

القول بالحقيقة أو القول بالمجاز ، ولكنه وقت موقعاً وسطاً يرضي جميع الأطراف يقول : « وقد ذهب قوم إلى أن الكلام كله حقيقة لا مجاز فيه ، وذهب آخرون إلى أنه كله مجاز لا حقيقة فيه وكل ما هذين المذهبين فاسد عنده ، وليس اللغة كلها مجازاً ، ولا كلها حقيقة ، وإنما فيها الحقيقة والمجاز^(١)».

ثم ينتقلنا إلى المجاز مرة أخرى في مقالته الثانية من الكتاب ، ففيقسمه تسعين : توسيع في الكلام وتشبيه ، ثم جعل التشبيه شريين : تشبيه تام ، وهو الذي يذكر فيه المشبه والمشبه به ، والآخر : التشبيه المحنوف ، وهو الذي يذكر فيه المشبه دون المشبه به ، ويسميه (استعارة) ، وهو ما يعرف عند البلاغيين بالاستعارة المكنية ، ولكنه لم يذكر القسم الآخر ، وهو الاستعارة التصريحية.

يقول : « والذي اكتشف لي بالنظر الصحيح أن المجاز ينقسم تسعين : توسيع في الكلام وتشبيه ، والتشبيه شريان : تشبيه تام ، وتشبيه محنوف^(٢)».

ثم تعرّض المؤلف لاقتراحاتي وعلاقاته المختلفة بطرق الاطلاع على مؤلفات الأصوليين فقد ذكر أنه اطلع على كتاب «ابن حامد الغزالى» في أصول الفقه . شمنه مبحثاً عن المجاز وقسمه فيه أربعة عشر قسماً^(٣) . وهو تقسيم راعى فيه الغزالى العلاقات . فجعل كل علاقة للمجاز المرسل قسماً مستقلاً ، واعتبر ابن الأثير على هذا التقسيم وجعله فاسداً ، لأن كثيراً من أقسامه يدخل ضمن التوسيع والتشبيه والاستعارة . وهذا تحامل من ابن الأثير البلاغى على الغزالى الأصولى . لأن هذا التقسيم للمجاز وعلاقاته والتي تمثل إلى أربعة عشر قسماً ، والتي عليها صاحب المثل على الغزالى - تقسيم مشهور عند علماء الأصول ، وقد يصل عند بعضهم إلى خمسة وعشرين نوعاً كابن النجاشى الجنوبى ، ويرتفع منسوب هذه الأنواع فيصل عند ابن عبد السلام إلى أربعين نوعاً^(٤)».

وأورد ابن الأثير ما ذكره الغزالى من أقسام ، وتقديرها قسماً تسعين ، فناسب في بعضها ، ولم يصب في الآخر . ومثال ذلك قوله تعالى «إِنَّ أَرَائِي أَعْصِمُ خَمْرًا»^(٥) . وإنما كان

(١) انظر المثل السادس ج ١ من ٨٤ (٢) المصدر نفسه ج ٢ من ٧٠

(٣) بالتحقيق وجدنا أن الكتاب المذكور وهو «المستحسن» للغزالى انظر ج ١ من ٣٤١ ط . دار الفكر / بيروت .

(٤) انظر : الكوكب المنير لابن النجاشى ج ١ من ١٥٦ ط . جامعة أم القرى ، ونهاية السول للassistantى ١/٢٦٦ . والتعميد في أصول الفقه للassistantى من ١٩٢ ، ورسائل في الماجستير ، مراسة كتاب الإشارة من ٣٣٨ .

(٥) سورة يوسف آية / ٣٦

يحصر عنياً ، وهذا القسم عند ابن الأثير ، داخل في القسم الأول لصفة المشابهة بين المقول .
والمقول إليه ، وهو من باب الاستعارة ، لا بل أوغل في المشابهة من ذاك ، لأن الفخر من
العنب ، وليس الأسد من الرجل ، ولا الرجل من الأسد ^(١).

واعتراض ابن الأثير - هنا - ليس مسيحياً ، لأن الفخر ، وإن كانت من العنب ، لا وجہ
للتتشبه بينهما في الشكل ، أو في الهيئة ، أو في الأثر أو غير ذلك ، وإنما الفخر منه ، فمصح
كلام الفرزالي ، الذي تعتقده البلاغة العربية حتى وقتنا الحاضر ، والتي تجعل الآية من باب
المجاز المرسل ، والصلة فيه ما ذكره الفرزالي ، ولا ندرى لماذا فعل ذلك ابن الأثير ، وهو
المعروف ببراءته هذه الأمور .

وكما تتبع ابن الأثير الفرزالي بالتقى في أقسام المجاز ، تتبع كذلك ابن جن في المجاز ،
ورد عليه ^(٢) ، وقد يفهم من ذلك أن ابن الأثير - رحمة الله - كان ذا شخصية هجومية حادة ،
أو أنه كان متقوفاً على جميع من سواه من العلماء القدامى ، وكيفما كشف الأستاذ الدكتور إحسان
عباس القناع عن هذا الأمر فيقول : قد يرجع السبب في ذلك إلى حالة من حوله ، وإلى
تميزه في هذه الفترة ، إذ كان أكثر من حوله إما أن يقف عند حدود المحاولات الجزئية ، أو
يكفى بجمع الشواهد المصطلح البلاغى فإن أراد أحدهم التفرد وسع من نطاق ذلك
المصطلح ^(٣).

وننتقل إلى التشبيه - الذي اعتبره ابن الأثير من المجاز ، وهو أمر مختلف فيه بين العلماء
وقسميه إلى قسمين : مظهر ومحض ، والتشبيه المضرور عنده أبلغ من التشبيه المظاهر ، وأرجون
غير أن كليهما في قضية البيان سواء ^(٤).

ثم يقسم المؤلف التشبيه المظاهر إلى أقسام أربعة :
إما تشبيه معنى كقولنا « زيد أسد » ، وإنما تشبيه صورة كقوله تعالى :
« قَيْدَنُهُمْ قَاهِرَاتُ الطَّرْفِ عِنْ كَافَّهُنَّ بَيْتَنَ مَكْنُنَ » ^(٥) ، وإنما تشبيه معنى بصورة
كقوله تعالى : « وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَفْعَالُهُمْ كَسْرَابٌ يَقِعُ » ^(٦) ، وإنما تشبيه صورة
معنى كقول أبي تمام :
وَقَنَّكَ بِاللَّالِ الْجَيْلِ وَبِالْمَدَا « فَنَّكَ السَّبَابَةِ بِالْمَجْبَتِ الْمَقْرَمِ » ^(٧).

(١) مثل السائر ج ٢ من آياته وما بعدها (٢) المصدر نفسه ج ٢ من آياته من ٨٧

(٣) تاريخ النقد الأدبي عند العرب من ٣٠٧ (٤) مثل السائر ج ٢ من ١٢١ ، ١٢٥

(٥) الصالات آية ٤٩ ، ٥٨

(٦) سورة التور آية / ٢٩

(٧) شبه فنكه باللال وبالمدعا - وذلك صورة منشية - يطلق المسبابة ، وهو فنكه معنوي .

ويعده أن أبلغ هذه الأقسام هو تشبيه معنى بصورة ، لتشبيه المعانى الموجعة والمتسللة ، بالصور المشاهدة ، وإن الطف هذه الأقسام هو تشبيه صورة بمعنى ، لأن فيه نقل صورة إلى غير صورة .

ومن الشواهد القرائية لهذا النوع من التشبيه قوله تعالى: «الله نور السموات والأرض مثلك نور يكشأها فيها مصباح»^(١) (يطلق على الآية بقوله: أما تمثيل نور الله تعالى - بمشكاة فيها مصباح ، فإن هذا مثال شربة الله للنبي عليه السلام ، ويدل عليه أنه قال: «يُوَدِّ من شجرة سواركة»، وإذا نظرت إلى هذا الوضع وجده تشبيهاً طيباً عجيباً ، وذلك أن قلب النبي عليه السلام ، وما فيه من النور ، وما هو عليه من الصفة الشفافة - كالزجاجة التي كانها كوكب بصفاتها وإضائتها^(٢)).

وكان قسم ابن الأثير التشبيه من حيث المعنى ، عاد فقسمه مرة أخرى من حيث اللقطة أقساماً أربعة هي : تشبيه مفرد بمفرد ، وتشبيه مركب بمركب ، وتشبيه مفرد بمركب ، وتشبيه مركب بمفرد . وهذه الأقسام هي نفسها أقسام التشبيه المضرر الأداة .

ومن شواهد التشبيه المضرر الأداة عنده - قوله تعالى: «واشتغل الرأس شيئاً»^(٣) يحلله بقوله : شبه انتشار الشيب باشتعال النار في سرعة التهاب ، وانتشر تلافيه ، وفي عظم الأكم في القلب به ، وأنه لم يبق بعده إلا الخسود^(٤) وقوله تعالى: «فَنَّ لِيَاسُ لَكُمْ . وَأَنْتُمْ لِيَاسُ أَنْهَ»^(٥) ، فشبه المرأة بالباس الرجل ، وشبه الرجل بالباس المرأة^(٦).

ويطيل ابن الأثير في التمثيل للتشبيه المضرر الأداة قراناً وشمراً وبنراً ، لدرجة تغير القارئ ، وتشعره أن هذا الرجل ذو طاقة أنيبة وأفرة ، وقدرة عجيبة على تشقق جوانب التشبيه تشقيقاً فنياً واسعاً ، وتناوله تناول الأديب المتمكن ذي النظرة الجمالية الواجهة^(٧) .

ثم نراه يشير إلى تفريقة علماء البيان بين التشبيه والتتمثيل ، ويفيد دعوه من ذلك ، ويرى عدم أنه هو والتمثيل شيئاً واحداً ، لا فرق بينهما في أصل الوضع^(٨) . ويقتصر بعد ذلك إلى بيان فائدته التشبيه بقوله : فالتشبيه إذن يجمع صفات ثلاثة : المبالغة والبيان ، والإيجاز فإذا مثل الشيء بالشيء ، فإنما تقصد به إثبات الخيال في النفس بصورة المشبه به ، أو بمعناه ، وذلك أوكد في طرق التوكيد فيه ، أو التأكيد منه^(٩) .

(١) سورة النور آية / ٣٥

(٢) سورة مرثوم آية / ٤

(٣) سورة البقرة آية / ١٨٧

(٤) المثل السادس ج ٢ من ٣٣

(٥) المثل السادس ج ٢ من ١٣١

(٦) ملخص دراسات البيانية الجريش ، بتصرفه من ٦٤٧

(٧) انظر : المثل السادس ج ٢ من ١١٥

(٨) انظر : المثل السادس ج ٢ من ١٢٣

كذلك ذكر أن من التشبيه ضرورة يسمى المطر والمكس وهو أن يجعل التشبيه به مشبهًا ، والتشبيه مشبهًا به . ويعضمهم يسميه « غلبة الفروع على الأصول والفرض منه المبالغة ، وهذا ما يعرف عند المتأخرین بالتشبيه المقلوب »^(١).

أما الاستعارة فقد تناولها المؤلف في مقالة الثانية من الكتاب وهي الخاصة بالصناعة المعنوية ، وبدأ الكلام عليها ممهدةً لها بحديث عن المجاز ، وهي عنده من أوصاف الفصاحة والبلاغة العامة التي ترجع إلى المعنى ، وهي ضرب من المجاز - كما سبق - والذي قسمه إلى توسيع وتشبيه واستعارة^(٢).

وتحد الاستعارة عنده « نقل المعنى من لفظ إلى لفظ لمشاركة بينهما ، مع طي ذكر المقول إليه »^(٣) . ويسهل المؤلف إلى ضرب الأمثلة من الاستعارة ، لأنه يستفيد بها المتكلم ، ما لا يستفيده من ذكر الحد والحقيقة^(٤).

ويفرق ابن الأثير بين التشبيه والاستعارة ، وذكر أن قوماً قد خلطوا التشبيه المضرر الأداة بالاستعارة ، ولم يفرقوا بينهما . وخطأتم^(٥) وفرق هو بينهما بقوله : « والفرق إذن - أن التشبيه المضرر الأداة يحسن إظهار أداة التشبيه فيه ، والاستعارة لا يحسن ذلك فيها »^(٦) . ويرجح الفضل في التمييز بينهما إلى القاضي الجرجاني ، الذي ذكر في « الوساطة » أنه قد ورد ما يظن الناس استعارة ، وهو تشبيه ، أو مثل ، وحقق القول في ذلك^(٧).

وأخيراً يختتم ابن الأثير الموضوع بعرض كثير من الاستعارات القرآنية وما ورد فيها في الحديث ، والمأثور من كلام العرب ، ثم يخربنا من خلال ذلك كله أن الاستعارات قليلة في القرآن مع كلة التشبيه المضرر الأداة^(٨).

وهذا الرأى غير دقيق من ابن الأثير ، لأن ما ذكره الرماني والشريف الرضي بشأن الاستعارات في القرآن يبطل رأى صاحبنا^(٩).

ومن استعارات القرآن قوله تعالى: « الـ يَكْتَبُ أَذْلَانَهُ إِلَيْكُنْ تَقْرِيجُ النَّاسِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ »^(١٠) . وعلق على الآية قائلاً: « ظالمات والنور استعارة للذكر والإيمان

(١) كلام ابن الأثير هنا - متقول عن ابن جن ، وابن جن نقله عن الأصوليين ، لأن التسمية أصولية .

انظر : الخصائص ج ١ من ٣٠٨.

(٢) انظر : المثل السادس ج ٢/٧١ . (٣) المصدر نفسه ٢/٨٣.

(٤) انظر : المصدر نفسه ٢/٩٥ . (٥) يقصد أبا هلال المسكري والقاضي والأمدي وأبن سنان .

(٦) المثل السادس ج ٢/٧٦ . (٧) انظر : بين المثلين وبخصوصه للقاضي الجرجاني ج ٤ .

(٨) المثل السادس ج ٢/٩٦ .

(٩) انظر : الكتب في إعجاز القرآن الرماني والخمس ليبيان الشريف .

(١٠) سورة إبراهيم آية / ٤١ .

أو القليل والمدى ، والمستعار له مطوي الذكر ، كانه قال : لخرج الناس من الكفر الذي هو كالظلمة إلى الإيمان الذي هو كالنور^(١) .

ومن ورد من الاستعارة في الأشعار النبوية قوله تعالى : « لا تستحييوا بتأثر المشركين » فاستعارة النار للرأي والمشورة ، أي لا تهتدوا برأي المشركين ، ولا تخذلوا بمشورتهم^(٢) .

ويلاحظ أحد الرواد أن ابن الأثير لم يضف جديداً في باب الاستعارة ، كما لم يضف في التشبيه من قبل وإنما استقاد من سبقة ، وبالرغم من وضوح هذه الاستقاد إلا أنها استقاده محدودة والحق أن كلامه في الاستعارة ، وما يتصل بها من المجاز قاصر مقصراً شديداً^(٣) .

كذلك عرض الكتابة والتعريف ذاكراً في مستهل حديث أن علماء البيان من أمثال الغافس وأبي هلال ، وأبن سنان التخاجي ، قد خاطروا الكتابة بالتعريف ، ولم يفرقوا بينهما ، ولم ينكروهما إلا مقتربين ، وقد عرف كلاً من الكتابة والتعريف بقوله : فالكتابية هي كل لفظة دلت على معنى يجوز حمله على جانب الحقيقة والمجاز بوصف جامع بين الحقيقة والمجاز ، والتعريف : هو اللفظ الدال على الشيء من طريق المفهوم لا بالوضع الحقيقى ولا المجازى^(٤) والتعريف أخفى من الكتابة ، لأن دلالة الكتابة لفظية وضعيّة من جهة المجاز ، ودلالة التعريف من جهة المفهوم ، لا بالوضع الحقيقى ولا المجازى ، وإنما سمي التعريف تعريفاً ، لأن المعنى منه يفهم من عرضه ، وغرض كل شيء جاء فيه^(٥) .

والكتابية عند ابن الأثير إذا وردت تجاذبها جائياً حقيقة ومجاز ، وجاز حملها على الجانين مما ، ويوجه ابن الأثير الآيات القرآنية على ضوء ما قرره يقول في قوله تعالى : « أَوْ أَقْسَمُ النِّسَاءَ »^(٦) يجوز حمله على الحقيقة والمجاز ، وكل منها يصح به المعنى ، ولا يخل ، ولهذا ذهب الشافعى - رحمة الله - إلى أن المنس هو مصافحة الجسد فتجب الوضوء على الرجل إذا نس المرأة ، وذلك هو الحقيقة في المنس ، وذهب غيره إلى أن المراد بالمس هو الجماع ، وذلك مجاز فيه ، وهو الكتابة^(٧) .

ويبدو تأثر ابن الأثير هنا - بعلماء الأصول ، لأن هذا النوع يسمى عندهم « الجمع بين الحقيقة والمجاز في المفهوة واحدة » وهي مسألة ظهرت في مباحثهم لإيجاد حلول بعض المسائل الشرعية ، ولم يتعرض البلاطين لذلك ، لا من قرب ولا من بعيد^(٨) .

(١) مثل السائر ٩٥/٢ (٢) المصدر نفسه ٦٧/٣ (٣) انظر : البلاطة طبود وتاريخ من ٣٢٩ .

(٤) مثل السائر ٩٦/٣ (٥) المصدر نفسه ٦٩/٢ (٦) المائدة [١] .

(٧) مثل السائر ٩١/٣ (٨) انظر : الرسول إلى الأصول الفقهاء ج ١ ص ١١٩ تحقيق د . محمد أبو زيد ط الرياش ، والإشارة إلى الإيمان من ٢٦٢ درساتي دراسة كتاب الإشارة من ٤٦٧ : ص ٤٢٠ .

وإذا كان ابن الأثير يسلك الكتابة في المجاز ، فإن التعریض عنده لا يدخل في المجاز ، وكما میز بين الكتابة والتعریض دعاه ذلك إلى التبیین بینهما وبين الاستعارة ، فالكتابية ليست نوعاً مستقلاً من المجاز ، وإنما هي جزء من الاستعارة ، ونسبتها إلى الاستعارة نسبة خاص إلى عام « فيقال : كل كتابة استعارة ، وليس كل استعارة كتابة »^(١) .

ثم قسم الكتابة إلى قسمين : أحدهما ما يحسن استعماله ، والأخر ما لا يحسن استعماله كما عرض إلى تقسم بعض البلاطيين لها إلى : تمثيل وإراداف ومجازرة ، وشرحها ، وعقب عليها باتها غير صحيحة ، ولكن تعليقه يبدو فيه شيئاً من الاضطراب والتناقض .

ثم انطلق ابن الأثير في تبعيأساليب الكتابة من الشعر والنشر شارحاً لها ، وبلا أدنى شك فإن طريقة ابن الأثير توافق طريقة عبد القاهر وتختلف في الوقت نفسه طريقة السكاكي التي تقصد بها إلى تأصیل قواعد الbagha ، وصيغها في قوایل منطقية ، وربما التقى ابن الأثير منه في كثرة التعریفات والتشقیقات ، لكن شتان بين تعریفات يطلب عليها الاتجاه الفلسفی ، وأخرى يظهرها النون الفنی ولعل هذا ما حدا أستاذنا الدكتور زغلول أن يقول « وكتاب "المثل المسائر" يعد في مقدمة كتب البلاغة التي تجمع التبرير إلى النون والتحليل »^(٢) .

وإذا انتقلنا من الصور البیانیة إلى المحسنات البیدعیة وجدنا صاحبنا لا ينظر إليها كعلم قائم بذاته كما فعل معاصره ، ولكنه يتسع في مفهوم علم البيان بحيث يشمل مباحثات علم المعانی والبیدع .

ثم قسم المحسنات إلى لفظیة ومعنىونیة ، وعلمه في هذا متأثر شكلاً لا موضوعياً بما عرف عن السكاکی من تقسم المحسنات إلى لفظیة ومعنىونیة^(٣) .

تكلم المؤلف في المقالة الأولى عن المحسنات البیدعیة اللفظیة وقسمها إلى أقسام منها : السجع والتصریع والتجنیس ، والترصیع ، وإزیم ما لا يلزم ، والموازنة ، واختلاف صیغ الانفاظ وتکریر الحروف ، وهو في دراسته لهذه الأنواع لم يقف عند حد تعریفها ، وبيان أقسامها ، وإنما حلّها بالشواهد المعنیة .

(١) مثل المسائر : ٤٥/٢

(٢) انظر : تاريخ النقد العربي من ٣٦٤

(٣) انظر : مقدمة بیدع القرآن ، جذنی شرف ، من ٣١

ويعرض ابن الأثير هذه الآلوان البدعية رابطاً بينها وبين التأليف ^(١) ولا موضع للربط بينهما فيما يبدو ، فهذه شروب من الحلي التي يزدان بها الكلام ، ويحسن ويكسب رونقاً ، أو خصائص جمالية ، ولا دخل لها في النظم وتأليف العبارة ، وذلك أن السجع والتصريح ، والوازنة شروب من الإيقاع ، والتجنيس والترصيح وإنهم ما لا يلزم شروب من الحلي الصوتية ذات الجرس المتجانس ^(٢) .

وفي مقالته الثانية الخاصة بالصناعة المعنوية تكلم بإسهاب عن التجريد والالتفات ، والتقارب ، والتضمين ، والطباقي ، وصحة التقسيم ، والمخالفات المعنوية ، والأهمي والأغافل ، وذج ابن الأثير في هذه المقالة بمسائل نحوية كثيرة ، كتأكيد الضميرين ، والتعقيد اللفظي ، والتقديم والتأخير ، ومن تدخل في علم المعانى .

ثم يختتم المؤلف كتابه ببحث في السرقات الشعرية ، ويقسمها إلى خمسة أقسام وبعد ابن الأثير متخصصاً في هذا النوع نسبياً ^(٣) – وإن كان مسبوقاً بالبحث فيه ^(٤) ويتقاربون في تناولهم لهذه القضية ، وتتفاوت كذلك درجاتها عندهم ، وقد كان الدافع الأول لنشوء هذه القضية ، هو اتصال النقد بالثقافة ، ومحاولة الناقد أن يثبت كفايته في ميدان الأطلاع ^(٥) .

ذلك – إذن – عرض موجز لكتاب « المثل السائر » الذي أضاف إلى بلاغتنا كثيراً من الملاحظات الذكية التي أثرت المباحث البينانية ، والذي جمع فيه بين التبريب والنطق والتحليل ، وبهذا كان ابن الأثير رائدأً من رواد المدرسة الثالثة صاحبة الاتجاه الذي يمزج بين التقسيم العقلي ، والنطق الأنبي ، وهو ما سماه الرحيم الشيخ أمين الخولي « التداخل والاختلاط بين المدرستين حين يأخذ دارس بطرف من هذه ، وطرف من تلك ، على ما تدفعه إليه طروفه ومؤثراته حياته » ^(٦) . وهذا ما تعارف عليه المحدثون بأنه الاتجاه الجديد في درس البلاغة العربية ، وهي البلاغة التي لا تفصل بين العقل والنطق ^(٧) .

(١) انظر : ابن الأثير وجهوه في النقد والبلاغة ١ . د زنبل سلام من ٢٨١ وما بعدها .

(٢) انظر : البيان العربي . د . بدوى طبان من ٣٦ .

(٣) منه بالبحث في ذلك أبو م罕ل العسكري والجرجاشي صاحب « الوساطة » انظر : أبو م罕ل العسكري ومقاييسه البلاغية والتقنية د . بدوى طبان من ١٧١ .

(٤) تاريخ النقد الأدبي د . إحسان عباس من ٣٩ .

(٥) فن القول ١٠٣/٩٠ . ط دار الفكر - القاهرة سنة ١٩٤٧ م

(٦) ملخص عن البلاغة . أحمد حسن الزيات من ٣١ م . عالم الكتب بالقاهرة ١٩٦٧ م

ولهذا نقول : إن ابن الأثير قد وضع أساس اتجاه جديد في البلاغة العربية في مصر اتجهت فيه على يد السلاسل ومن تبعه ، إلى التقين والتعميد ، والإغراق في التقسيمات والتعريفات ، كما امتازت دراسته للبيان العربي بالإحاطة والشمول ، والتوسُّع به إلى حيويته ونضارته ، ولقد اقتضى أثره في منهجه وطريقته ابن أبي الإصبع لكنه عدل عن تسمية البيان بالبيان .

«بديع القرآن» لابن أبي الإصبع (ت ١٥٤ هـ)

شُغل ابن أبي الإصبع المصري^(١) في أواخر حياته بالبحث في إعجاز القرآن، واتجه إلى هذا البحث اهتماماً يترعرع فيه الأدب بالثقافة الدينية، وهذا الشغل الذي نتجه ما أللله من كتب في القرآن وإعجازه وبيانه، ومن أهمها «بيان البرهان في إعجاز القرآن»، و«بديع القرآن»، ويسعى أيضاً «بدائع القرآن»، وإن كان قد اشتهر في البلاغة بكتابه «تحرير التحبير» الذي أثار هو وكتابه «بديع القرآن» اهتمام علماء البلاغة المعاصرين، والتابعين، فاشتراكاً عندهما وناقشاً ما جاء بهما^(٢).

ويبعدون من خلال مقدمة ابن أبي الإصبع أنه أراد أن يتم كتابه «البرهان في إعجاز القرآن»، فاستخلاص من «تحرير التحبير» «أبواب البديع الخاصة بالقرآن»، وأفردتها في «بديع القرآن» يقول: كتاب «بديع القرآن» الذي هو تتمة للإعجاز المترجم «بيان البرهان» أفردته من كتاب هو وظيفة عمرى، ونشرة اشتغالى في إبان شبيتي، وبماحثى في أوان شيخوختي مع كل من تلقته من علاة العلماء، وأذكياء الفضلاء، وبنبلاء البلاغة في علم البيان، وكل من له عناية بتفسير القرآن، ونظر ثاقب في تقد جواهر الكلام.....^(٣)

و واضح من كلام المؤلف أن بيان القرآن كان شغله الشاغل في شبيته وشيخوخته على السواء، وأنه حاول أن يفيد من جهود العلماء السابقين في علم البيان، ورجع في ذلك إلى مراجع شخصية من بلاغة وتقدير وتفسير وحديث وأدب، منها: «بديع لابن المعتز»، وخطبة المحاضرة الخامسة، والنكت في إعجاز القرآن الرمانى، «إعجاز القرآن الباقلاوى»، ودلائل الإعجاز، وأسرار البلاغة لمعبد القاهر، والكتشاف للزمخشري، ونهج البلاغة الإمام على، «مجاز القرآن لابن عبيدة»، وأمثال الساشر لابن الأثير، وسر الفصاحة لابن سنان، والعقد القوي لابن عبد ربه وغيرها من المراجع التي يلقت بضمها وتسعى مرجحاً^(٤).

ولو قارينا هذه المجموعة الضخمة من المراجع التي رجع إليها ابن أبي الإصبع في «بديع القرآن» بذلك التي استشارها في تأليفه «تحرير التحبير»، لوجدناها هنا تربو على ضميتها

(١) انظر: ترجمته في: مسن المحاضرة ٣٢٧/١ ، والتلور الزاهراة في ملوك مصر والقاهرة ٣٧/٧ ، كشف الظنون ١٨٨/١ ، ومشترات الذهب ٤٣٩/٥ ، وبخزانة الأدب العموى من ٨٣ .

(٢) انظر: تاريخ النقد العربي ١ ، زنقول سلام من ٢١١

(٣) بديع القرآن لابن أبي الإصبع تحقيق د. حافظ شرف من ٤ ،

(٤) المصدر نفسه من ٤ : ١٢ .

هناك . وهذا الاتساع الضخم في مجال المصادر التي اعتمد عليها تجعل الكتاب صورة جديدة لجهد المؤلف ، وليس مجرد تلخيص أو استخراج ما يختص بالقرآن من بديع من كتاب «تحرير التحبير» ، فنحن إذن أمام عمل أصيل وإضافة لها قيمتها ، وللهذا السبب قدمتنا عرضنا لكتاب «بديع القرآن» على «تحرير التحبير» : لأن كلامهما استثنى بباب لم ترد في الآخر^(١) .

* وبديع القرآن * نسبح وحده : لأنه جمع الأنواع البدعية التي عرفت عن السابعين إلى عصره^(٢) بالإضافة إلى ما اخترعه من أنواع في كتابه «تحرير التحبير» وطبق جميع الأنواع على آيات الذكر الحكيم ، وحللها تحليلًا دقيقاً ، وبين ما تثيره من معانٍ في النفس ، مظهراً ما فيه من بيان ، بيّننا سلامة نظم القرآن وسلامة أسلوبه ، وبلاهة معانٍه ، وفصاحة نظمه يتسلّب يندر من سببه إليه . ولعله ثالث أصوله الأولى عن المنشوري^(٣) .

ولهذا يُعتبر الكتاب رد فعل لفكرة الباقلاني ، التي بسطها في كتابه «إعجاز القرآن» ، والتي حاول فيها أن يخرج ببيان القرآن وإعجازه من حيز البدع^(٤) ، وجاء ابن أبي الإصبع ليبرهن على أن الأنواع البدعية التي يعرّفها العرب ، موجودة في شعایر القرآن الكريم ، وليس متقدمة على الشعراء والكتاب ، فيكون ذلك أحد وجوه إعجازه .

ويحق قلم يصنع أحد من العلماء قبل ابن أبي الإصبع صنيعه في تأليف كتاب تَسْمِينَ فيه بلاهة القرآن ودبيعه ، ليسهل من وراء ذلك استخراج إعجازه ، وتقرير طرق إلتقابه وإيجازه ، فكان بذلك منفردًا في هذه الدراسة ، وإن سببه غيره إلى تطبيق بعض هذه الأنواع في القرآن^(٥) .

ويرغم ما وصل إليه ابن أبي الإصبع من جهود بدعيّة ، فإن الاستاذ الدكتور إحسان عباس يعتبرها مجرد جهود شكليّة ، ويجهّز النقد إلى المزيد من الوقوف عند الشكليات ، وأعمت طرقه بكثرة المصطلحات دون أن يضيف إلى محتوياته شيئاً جوهرياً^(٦) . ولستنا مع الاستاذ الباحث فيما ذهب إليه ، لأن البديع عند ابن أبي الإصبع ليس مجرد صور شكليّة للأفاظ بل إنه غاية التعبير النفسي ، وذروة هذا الفن ومتناه^(٧) .

(١) ملخص الشخصية المصرية في الدراسات اليبانية د . مصطفى الجوىشى من ٤٤٤ .

(٢) لأن جاء في فترة سبقها نشجع الدراسات اليبانية وتترعّمها .

(٣) انظر : تاريخ النقد العربي ١ د . زغلول سلام من ٣٥ .

(٤) انظر : إعجاز القرآن الباقلاني تحقيق السيد أحمد صقر من ٢٨٩ .

(٥) انظر : مقدمة بديع القرآن من ٦ .

(٦) تاريخ النقد الأدبي عند العرب د . إحسان عباس من ٥٩١ .

(٧) تاريخ النقد العربي ١ د . زغلول سلام من ٢٤٥ - ١٨١ -

ويقسم المؤلف البيع إلى أقسام ثلاثة : الأصول منها ما يذكر المفتر عن الأولان تدوينه
وهما : قدامة وابن المتن ، ثم الفرع وهي الأبيات التي جاءت بعددما إلى زنته ، وأخيراً
جديدة الذي أضافه من عندو ^(١) ، وعرض لما في القرآن الكريم من محاسن بدعيه بلغ بها
مائة باب وثمانية أبواب ^(٢) . ويلاحظ عليه أنه في معالجه لذن البيع قد أدخل بعض مباحث
علم العائش والبيان ، وهذا مما يرثى من شأن الكتاب ويجله : لأنه استطاع أن يستوعب بيان
القرآن ويدعوه كله بالمعنى الذى عرفه القدماء ، وليس بالمعنى المعروف منذ عهد السكاكى .
و لهذا يعطي من تناحية أخرى أن البيع عند ابن أبي الإصبع ، وربما قبله كما رأينا عند ابن
الآثير ، أخذ يتسع ليشمل جوانب المعانى والبيان . ولهذا استطاع المؤلف فى الكتاب أن يثبت
أن القرآن قد جمع صفات بلادة العرب ومميزتها ، وهذا ما جعلهم يدركون إعجازه ، ويتحققون
جماله ، وأياته تتاسب بالتعاليم الهاوية والقيم الإنسانية .
ومما يثير فضول الكتاب أيضاً أن مؤلفه أخذ على نفسه عهداً لا يستشهد فيه إلا بالآيات
القرآنية ، ولم يخالف عهده وستشهد بالشعر إلا إذا أراد أن يؤكد على أمر لا تحس إلا بذلك
أو ليقارن بين الشعر وبين آية من القرآن يفرض الكشف عن بلاغته ، وحسن بدعيه ، وهو
يذكر عن هذه المؤازن ، وتحصمن لذلك باباً . ومن أمثلة ذلك ، موازنته بين قول المسئل :
(الطويل) .

وَنَذِكِرْ إِنْ شَيْئَنَا عَلَى النَّاسِ قُولَمْهُ وَلَا يُنَكِّبُنَا الْقُولَمْ حِينَ تَنْقُولْ^(٢)
يَقُولْ : فَلَيْكِ إِذَا وَارَتْتَ بِقُولَهِ تَعَالَى لَا يَسْأَلُنَا مَا يَفْعَلُ وَهُمْ يَسْأَلُونَ^(١) ، تَبَيَّنْ
كُلَّ مَا بَيْنَ الْكَلَامِينَ مِنَ الْفَرْقِ ، وَأَمْثَالُ هَذَا الْبَابِ كَثِيرَةٌ ، وَهُدَا أَحَدُ جُوْجَهِ الْإِعْجَانِ وَهُوَ قَيْمَاسِ
الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ بِكُلِّ مَعْجَزٍ مِنَ الْكَلَامِ^(٤) وَيُكْثِرُ أَبِنُ أَبِيسِ الْإِصْبَعِ مِنْ مَثَلِ هَذِهِ الْمَوازِنَاتِ ، وَهُنَّ
لَيْسُ بَيْنَ شِعْرٍ وَشِعْرٍ ، وَإِنَّمَا بَيْنَ شِعْرٍ وَقُرْآنٍ ، وَهُدَا يُظَهِّرُ بِلَاقَةَ الْقُرْآنِ وَعَلَيْهَا عَلَى سَائِرِ
كَلَامِ الْبَشَرِ .

وهو دقيق الملاحظة في تحليله للآيات القرآنية التي يوازن بينها وبين الشعر، كما في مابعه «صلة التقسيم» في قوله تعالى: «واللَّذِينَ يَعْمَلُونَ مَا أَتَوْلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلْنَا مِنْ قَبْلِكُمْ».

(١) انظر : تصميم ذلك لمقدمته لكتاب البديع من ١٤، من ١٥

(٢) استدرك أ. د. الجوهري على ابن أبي الأصييع، وأثبت أن عدة آيات بذيع القرآن ماتة بآيات ومتسع آياتها بآيات ياب وشماتية، ولم يسلم له بكل ميئتكاته. انظر الملامح الشخصية المعتبرة من ٥٣٢ وما يليها.

(٣) انظر: بيان العماسة ٢١/١

(٤) بدین القرآن من ۹۶

- 18 -

فَوَالْأَيْرُقُ فِمْ يَعْلَمُ ^(١) يقول : « أَمَا الْأَيْةُ فَأَسْتَوْفِتُ أَقْسَامَ الزَّمَانِ ، فَإِنْ إِيمَانُ هَؤُلَاءِ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أُنْزَلَ عَلَى الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ إِيمَانٌ فِي الْحَالِ ، وَبِمَا أُنْزَلَ عَلَى مَنْ قَبْلِهِ إِيمَانٌ فِي الْمَاضِي ، وَلِيَقُولُوهُمْ بِالْآخِرَةِ إِيمَانٌ فِي الْاسْتِبْلَاقِ ، ثُمَّ زَادَ إِيمَانَهُمْ بِالْآخِرَةِ وَصَفَّاً ، إِذْ أَخْبَرَ أَنَّهُ إِيمَانٌ مُتَقْنٌ لِيُدَلِّ بِذَلِكَ عَلَى قُوَّةِ تَسْدِيقِهِمْ لِلنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ . وَيُشَوِّهُمْ بَنَانَ مَا أَخْبَرَ بِوَقْعِهِ سَيِّعَ يَقِيْنًا لَا شُكُّ فِيهِ وَلَا شُبُّهَةَ . فَحَصَّلَ مَعَ هَذِهِ الْأَيْةِ الَّتِي عَدَتْهَا اثْنَيْنِ عَشَرَةَ لَفْظًا ، وَبَيْنَ قَوْلٍ زَعِيدٍ ، وَهُوَ أَجْلُ بَيْتِ جَاهٍ فِي صَحَّةِ التَّقْسِيمِ وَأَبْلَغِهِ :

وَأَعْلَمُ مَا فِي الْقِيمِ وَالآتِينَ قَبْلَهُ وَلِكَتَنِي عَنْ عِلْمٍ مَا فِي غَيْرِ تَعْمَمٍ ^(٢) (الموهول) .

عُلِمَتْ مَقْدَارُ مَا بَيْنِ الْبَلَاغَتَيْنِ إِلَى أَنْ يَقُولُ « وَأَيْنَ يَقُولُ الْبَيْتُ مِنْ الْأَيْةِ فَإِنْ بَيْنَهُمَا مِنْ الْبَعْدِ مَا بَيْنِ الْمُتَكَلِّمِ بَيْنَهُما » ^(٣) . وَهَذَا يَدِلُ عَلَى أَنَّ الْمُؤْلِفَ لَا يَسْوَقُ شَوَاهِدَهُ لِيُرِئَ مَا فِيهَا مِنْ جَمَالٍ وَبَيْعَنَ حَسْبٍ ، وَإِنَّمَا يَوَازِنُ بَيْنَهَا لِيُؤْكِدَ عَلَى أَنَّ بِلَاقَةَ الْقُرْآنِ اتَّهَى إِلَى نَهَايَةِ الْبِلَاغَةِ .

وَبَيْدَا الْمُؤْلِفُ فِي تَفْصِيلِ أَبْوَابِ الْبَيْعِ وَمُنْتَهِجِهِ يَقُولُ فِي ذِكْرِ الْبَابِ وَتَعْرِيفِهِ ، وَمَا جَاءَ فِيهِ مِنْ أَقْوَالِ السَّابِقِيْنِ ، ثُمَّ يُورِدُ الشَّوَاهِدَ الْقَرَانِيَّةَ ، وَيَتَبَعُهَا بِشَاهِدَهُ مِنَ الْمُدْبِّرِ التَّبَرِيِّ وَالشَّعْرِ الْجَيْدِ ، عَلَى طَرِيقَةِ الرَّوَادِ الْقَدَّامِيِّ . وَلَا يَكْتَنِي فِي شَوَاهِدِهِ بِمَا ذُكِرَ الْقَدَّامِ . وَإِنَّمَا يَبْتَكِرُ شَوَاهِدَ آخَرِيِّ ، وَهَذَا جَوَدُ مُشَكِّرِ الْمُؤْلِفِ ، وَاسْتَنَا مَعَ الْفَاتَيْنِ بِأَنَّ الْمُؤْلِفَ أَتَبَعَ نَفْسَهُ فِي اسْتِقْصَاءِ شَوَاهِدَ جَمِيْدَةَ غَيْرِ الشَّوَاهِدِ الْأُولَى ، وَرَدَتْ فِي الْمَصَادِرِ الْقَدِيمَةِ ^(٤) لِأَنَّ الدَّارِسَ الْبِلَاغَةَ حَرِيصٌ عَلَى أَنْ يَتَلَاقِهَا مِنْ تَبَعٍ وَتَجَوَّدَ غَيْرَ رَاكِدٍ .

عَلَى أَنْ جَهُودُ الْمُؤْلِفِ لَمْ تَنْقُتْ عَنْهُ مُجْرِدَ استِخْرَاجِ الْبَيْعِ أَوْ جَمْعِ شَوَاهِدِهِ مِنَ الْقُرْآنِ وَغَيْرِهِ ، أَوْ إِسْهَانِهِ شَاهِدَ جَدِيدٍ ، بَلْ وَقْفُ أَمَاهَا وَفَقَاتِ تَحْلِيلِيَّةِ جَمَالِيَّةِ نَاقِهِ لِمَنْ سَبَقَهُ ، وَكَانَ لِهِ جَوَالَاتِ فِي النَّقْدِ مَعَ الشَّعْرَاءِ السَّابِقِيْنِ ، وَيَقْدِهِ لَمْ يَقْفَ عَنْ الشَّعْرَاءِ ، بَلْ كَانَ يَوْجِهُهُ كَذَلِكَ إِلَى الْفَسَرِيْنِ ، وَيَحْاجِمُهُمْ وَيَنْتَزِعُهُمُ الرَّأْيِ وَيَدْحُضُ الْحَجَّةَ بِالْحَجَّةِ ^(٥) .

وَيَمْزِجُ فِي أَبْوَابِهِ بَيْنَ الْبِلَاغَةِ وَالنَّقْدِ ، وَالْمَنْاقِشَةِ وَالتَّحْلِيلِ ، وَالْمَوازِنَةِ وَالْإِبْكَارِ ، بِحِيثُ يَمْثُلُ حَلْقَةً مُضِيَّةً فِي تَارِيخِ الْبَيْانِ الْعَرَبِيِّ ، وَيَخَاصِّهُ فِيمَا يَتَصَدِّلُ مِنْ ذَلِكَ بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ » . وَلَكِنَّهُ لَا يَسِيرُ فِي مَحاوِلَةِ تَطْبِيقِ أَبْوَابِ الْبَيْعِ عَلَى بَيْانِ الْقُرْآنِ فِي مُسْتَوْى وَاحِدٍ ، وَلَا يَكُونُ تَوْفِيقَهُ فِيهَا كَلَّا تَمَّ ، بَلْ كَثِيرًا مَا تَحْسَنُ أَنَّهُ يَقْتُمُ الْبَابَ إِتْحَاماً مَذْدُوِّلاً لَا يَلْبِي بِهِ ^(٦) . فَضَلَّاً عَنِ إِطْلَاقِ الْمُصْنَعَلَحَاتِ الْخَامِسَةِ عَلَى قَوْنَى قَدْ تَكُونُ تَوْعِمَاً وَاحِدَأَ ^(٧) .

(١) سورة البقرة آية / ٤ (٢) انظر : درواني من ٢٩ طهار الكتب

(٣) انظر : بديع القرآن من ٧٠ وما يليها . (٤) تاريخ النقد الآتيين د . إحسان عباس من ٩١

(٥) انظر : «آية التحرير والتبيين» من ٧٤ (٦) انظر تاريخ النقد العريسي آدم ، نظائر مسلم من ٢٥

(٧) انظر : مذاهب بلاغية د . جطلوب من ٤١٢ -

ومن أبواب البديع التي ذكرها ابن أبي الإصبع « الاستعارة »، وفي بداية حديث عنها ذكر اختلاف العلماء في تعريفهم لها ، فناقش الرماني والرازي في تعريفهما ، وبعد عرضه لهذه التعريفات ، وضع تعريفاً خاصاً به قائلاً : « الاستعارة تسمية المزوج الشفي باسم الراجح الجلي »^(١) . ورجم تعريفه لرشاقة العبارة ، وما لا شك فيه أنه تعريف أذيب بارع ، يختلف عن تعريف سابقيه .

ثم يقسم الاستعارة إلى ضروب مختلفة - شأنه في ذلك شأن القدس - وممثل لها من القرآن الكريم ، غير أن شواهده تميزت بالتحليل الأدبي المعتمد على أساس جمالية تثير العواطف ، وتهز النفس ، وهو ينبع في ذلك نهج عبد القاهر ، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: « والشَّيْءُ إِذَا تَنَفَّسَ »^(٢) يقول : « فإنَّ خروج النور من المشرق عن انشقاق النهر الأولى إلى حين طلوع الشمس أولًا فنولاً أشبهُ الأشياءِ بخروجِ النَّفَسِ شَيْئاً فَشَيْئاً »^(٣) .

وأبن أبي الإصبع يفضل الاستعارة على المجاز ، ويرى العدل إليها أولى لما تعطي من المعانى التي لا تحصل من لفظ الحقيقة ، ويرى كذلك أن الاستعارة التخييلية يكثر وقوعها في الآيات التي يتسلك بها المشبهة كقوله تعالى: « الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَزْوَى استَوى »^(٤) .

ويحرص ابن أبي الإصبع على أن يوضح الفرق الدقيق بين الاستعارة والتشبيه البليغ لأنها قد تلتقي به فيقول : « ولما كانت الاستعارة قيد المبالغة في التشبيه التبست بالتشبيه المحسن في بعض الملاضع ، فاحتاجت إلى الفرق ، وهو : أن تعلم أن حق الاستعارة أن يطوي معها ذكر المستعار البتة ، فلا يعرف إلا بدلالة الحال عليه ، أو فحوى الكلام .

ومن ه هنا اختلف العلماء في قوله تعالى: « مَثَّلُهُمْ كَتَلَ الَّذِي اسْتَوْقَدَ تَارِيَّةً اشْتَأْتَ مَا حَوْلَهُ ذَقَبَ اللَّهُ يَنْذِرُهُمْ وَذَرُهُمْ فِي ظَلَمَاتِهِ لَا يَتَبَيَّنُونَ »^(٥) فذهب المحققون من علماء البيان إلى أن هذا تشبيه بليغ لا استعارة ، لكن المستعار له مذكرة ، وهم المتألقون ، وقال من سماه استعارة : قد طوي ذكر المتألقين في الجملة بمحنة المبدأ ، وهذا ليس بشيء فإن الكلام في الآية الكريمة قد صدر بذادة التشبيه ، والضمير المضاف إليه في « مثَّلُهُمْ » عائد إلى المتألقين^(٦) .

(١) انظر بديع القرآن لابن أبي الإصبع من ١٩

(٢) سورة التكوير آية / ١٨

(٣) انظر : بديع القرآن لابن أبي الإصبع من ٢١

(٤) سورة الفرقان آية / ٦

(٥) سورة البقرة آية : ١٧٧

(٦) انظر : بديع القرآن من

ومن أبواب الديباج «المجاز» والمجاز عنده خلاف الحقيقة ، ويرى أن الاستعارة على اختلاف أقسامها مجاز قال : «المجاز جنس يشتمل على أنواع كثيرة ، كالاستعارة والمبالقة والإشارة ، والإرداد ، والتمثيل ، والتشبيه ، وغير ذلك مما عدل فيه عن الحقيقة الموضوقة للمعنى المراد »^(١).

وهو يقسم المجاز إلى مجازين : مجاز استعارة ، ومجاز حذف كقوله تعالى : « قاتل الأقرنة »^(٢) أو « المير » وما أشبهه ، وتقول الشاعر : (وافار) إِذَا شَرَّلَ السَّمَاءَ بِنَارٍ فَقِيمَ رُعْيَتَاهُ وَلَنْ كَانُوا يَغْصَبُوا^(٣)

ثم تحدث عن الكتابة فتردفها بقوله : « هي عبارة عن تعبير المتكلم عن المعنى القبيح بالقطن ، وعن النجس بالظاهر ، وعن الفاحش بالمعنف »^(٤) ومن الشواهد القرآنية التي أوردها قوله تعالى : « كَانُوا يَأْكُلُونَ النَّحَامَ »^(٥) ، ثم بين الكتابة في الآية الكريمة بقوله : كتابة عن الحديث لأنه ملزمه أكل الطعام . وكتوله تعالى : « أَنْ جَاءَ أَهْمَةً يَنْكُمْ مِنَ الْفَاقِدِينَ »^(٦) ، ثم علق عليها بقوله : لأن المخفي من الأرض الذي يقصد لقضاء الحاجة ، فسمى الحديث باسم موضوعه .

وقوله تعالى : « وَلَكُنْ لَا تَرَوْعُونَ يَمِنًا »^(٧) كتابة عن الجماع^(٨).

وقد استطاع ابن أبي الإصبع بمهارته الأدبية ، وبراعته الفنية أن يكشف عن فوائد الكتابة ويعصرها فيما يلى :

- ١ - التعبر عن المعنى القبيح باللفظ الحسن .
- ٢ - التعبر عن المعنى النجس بالظاهر .
- ٣ - التعبر عن المعنى الفاحش بالمعنف .
- ٤ - التعبر عن المعنى الصعب بالسهل .
- ٥ - الإيجاز .
- ٦ - المسترو الصياغة .
- ٧ - التعمية والإلغاز .

(١) انظر : بدیع القرآن من ١٧٦ ، وتحرير التعبر من ١٥٧

(٢) سورة بیہت آیہ / ٨٢

(٣) الیت لم اعریه بن مالک المعروف بمعرف المکناد .

(٤) انظر : بدیع القرآن من ٩٣

(٥) سورة المائدة آیہ / ٧٥

(٦) المائدة آیہ / ٦

(٧) سورة البقرة آیہ / ٢٣٠

(٨) بفتح القرآن من ٣

(٩) بفتح القرآن من ٣

يبرز ذلك كله تعريفه السابق - الكناية الذي يقول فيه : « هي عبارة عن تعبير المتكلم عن المعنى التبيّن بالقطط الحسن ، وعن النجس بالظاهر ، وعن الفاحش بالخفيف ، هذا إذا قصد المتكلم نزاهة كلامه من المسب ، وقد يقصده بالكناية عن ذلك ، وهو أن يعبر عن الصعب بالسهل ، وعن البساط بالبيان أو ي يأتي للتعمية والإلган ، أو للستر والصيانت »^(١).

ويرأسة المؤلف للكناية دراسة جديدة وفريدة ، لأنها دراسة أدبية تكشف عن الفوائد الكامنة في الصورة البلاغية . فقد جعل ابن أبي الأصبع للكناية « رحمة » ، ويعتبر فيها حياة ، فإذا هي صور متحركة : ذلك لأنه درسها على أنها صورة أدبية ، وطريقة من طرق التعبير الفنى الجميل التي يسلكها الأديب للتغيير مما يعيش في صدره من معان ، ويوجول في نفسه من خواطر ، توحى بكل بديع عجيب . وهذا الاتجاه الأدبي في دراسة الكناية ليس غريباً من أديب مطبوع ، ونأخذ فد « وهذا الاتجاه الأدبي قد وضع أنسه ابن الأثير ، بل تمدّ ذلك إلى شيئاً جديداً . هو الكشف عن الفوائد الأدبية التي تكمن في الصور البلاغية ، وهذا الكشف الجديد قد غاب عن ابن الأثير ، وتوصل إليه ابن أبي الإصبع وإنفرد به فهو من جديده الذي لم يسبق إليه »^(٢).

والواقع أن المتخصصون في « بديع القرآن » يجد مؤلفه يعالج موضوعات البيان من منجز وتشبيه واستعارة وكناية شمن الفنون البدوية . ولكنه يتبّه بها اتجاهًأ أدبية ، ويتناولها تناولاً موجزاً ومرتباً ، يطلب عليها الطابع التدققي ، وينبئ بها عن الاتجاه التقني ، مخالفاً بذلك السكاكي ومن لف لفة ، ولعل ذلك يعود إلى نونق ابن أبي الإصبع الرقيق ، وذهنه الصافي ، وهذه المحدد من كتابه « وهو التربية الأدبية الجمالية »^(٣).

ولا تنحصر هذه التربية الأدبية الجمالية على أبواب البيان فقط ، ولكنها يبحث عنها في الأبواب البدوية التي تدخل ضمن علم المعانى والتقديم والتاخير ، الذي لا يبحث فيه عن العلة المعنوية ، وإنما يبحث عن العلة الجمالية البدوية . ذكرى جمال التقديم والتاخير في قوله تعالى : « قَلْنَ لَمْ تَقْطُلُنَّ وَلَنْ تَقْتُلُنَّ قَاتِلَنَّ الَّذِي تَرْقِيَهَا النَّاسُ وَالْجِيَارَةَ »^(٤) يسبب جناس الأزدواج يقول : لهذا التقديم والتاخير تأثير في النظم يجعل له في القلوب من الجلاطة والتقطيم والرويق ، ما لا يُعْتَرَ عنه ، ولا يعرف لذلك سبب ظاهر إلا وقع تجنّس الأزدواج بقوله : قلنا لم تقتلنا وإن قتلتنا^(٥).

(١) انظر بديع القرآن من ٥٣ (٢) انظر : الأسلوب الكنايى فى نشأة وتطوره : لمحمو شيخين

من ٢٢ - مكتبة الكليات الازهرية سنة ١٩٧٨

(٣) انظر : ملفوم الاستماراة في بحوث الفوين والقلاد والبلاغين د . أحمد الصاوي ط . الهيئة المصرية للطباعة سنة ١٩٧٦

(٤) سورة البقرة آية / ٢٤ (٥) انظر : بديع القرآن من ٤٣

فاما استعجاب الأقسام فإنه سبحانه أمر بالعدل وهو معاملة المكلف نفسه وغيره بالإنصاف . ثم أمر بعد العدل بالإحسان ، وهو أسم عام يدخل تحت التفصيـل بعد العدل . وقدم ذكر العدل : لأنـه واجب ، وتلاه بالإحسان لأنه مندوب . ليقـع نظم الكلام على أحسن تركيب ، وبخـس ذـى القربـى بالذكـر بعد دخـوله في عمـمـ من أمر بمعاملـة بالـعدـل والإـحسـان لـبيان فـحـلـ ذـى القـربـى وـفـضـلـ الثـوابـ عـلـيهـ ، وـتـهـىـ عنـ الفـحـشـاـ وـالـنـكـرـ وـالـبـغـىـ بـصـيـفـةـ تـعـرـيفـ الجـنسـ ، لـيـسـتـفـرـقـ كـلـ ماـ يـجـبـ أـنـ يـتـهـىـ عـنـهـ ، كـمـاـ اـسـتـفـرـقـ كـلـ ماـ يـجـبـ أـنـ يـذـمـرـ بـهـ ، وـالـمـاـبـةـ الـلـفـظـيـةـ فيـ قـوـلـهـ تـعـالـىـ : يـأـمـرـ وـ يـنـهـ ، وـالـمـاـبـةـ فيـ قـوـلـهـ سـيـحـانـهـ ، بـالـعـدـلـ وـالـإـحسـانـ وـإـيتـاءـ ذـىـ القـربـىـ ، وـقـابـلـ ذـكـرـ بـقـوـلـهـ : الـلـهـشـاـ وـالـنـكـرـ وـالـبـغـىـ ، قـابـلـ ثـلـاثـةـ بـثـلـاثـةـ ، وـالـأـخـرـ مـخـالـفـةـ لـلـأـكـلـ . وـحـسـنـ النـسـقـ فيـ تـرـكـيـبـ عـطـفـ الـجـمـعـ بـعـضـهـ عـلـىـ بـعـضـ كـمـاـ يـتـنـفـ ، حـيـثـ قـدـمـ الـعـدـلـ ، وـعـطـفـ عـلـيـهـ الإـحسـانـ ، لـكـونـ الـإـحسـانـ مـازـادـ عـلـىـ الـوـاجـبـ ، وـالـعـدـلـ الـوـاجـبـ ، وـعـطـفـ إـيتـاءـ ذـىـ القـربـىـ عـلـىـ الـإـحسـانـ لـكـونـ الـإـحسـانـ أـسـمـاـ عـامـاـ ، وـإـيتـاءـ ذـىـ القـربـىـ خـاصـ فـكـاهـةـ نـوـعـ مـنـ ذـكـرـ الـجـنسـ . ثـمـ أـتـىـ بـجـمـلـةـ الـأـمـرـ مـقـدـمةـ ، وـعـطـفـ عـلـيـهـ جـمـلـةـ النـهـىـ ، ثـمـ رـتـبـ جـمـلـ المـشـورـاتـ وـالـمـنـهـيـاتـ بـحـيثـ لـمـ يـتـقدـمـ مـاـ يـجـبـ تـأـثـيرـهـ ، وـلـاـ يـتـاخـرـ مـاـ يـجـبـ تـقـديـمـهـ ، فـائـسـ حـسـنـ التـرـكـيـبـ مـقـرـنـاـ بـحـسـنـ النـسـقـ ، وـأـمـاـ الشـهـيـمـ فـلـانـ صـدـرـ الـكـلـامـ يـدـلـ عـلـىـ عـجـزـهـ ، كـدـلـالـةـ الـبـيـتـ الـمـسـمـعـ عـلـىـ عـجـزـهـ وـأـمـاـ حـسـنـ الـبـيـانـ فـلـانـ لـفـظـ الـآـيـةـ لـيـتـقـدـفـ فـيـ قـوـمـ مـعـنـاهـ مـنـ سـمـعـهـ ، إـذـ سـلـمـ مـنـ التـقـيـدـ فـيـ لـفـظـةـ ، عـلـىـ مـعـنـاهـ دـلـالـةـ وـاضـحةـ تـأـقـرـبـ الـطـرـقـ وـأـسـهـلـهـ ، وـأـسـتـوىـ فـيـ فـهـمـ الـنـكـرـ وـالـبـلـيدـ وـالـقـرـيبـ مـنـ الـسـنـاعـةـ وـالـبـعـيدـ ، وـأـمـاـ الـاـنـتـلـافـ فـلـانـ كـلـ لـفـظـةـ لـاـ يـصـلـحـ مـكـانـهـ غـيـرـهـ ، وـأـمـاـ الـمـسـاـواـةـ فـلـانـ لـفـاظـ الـكـلـامـ قـوـالـبـ لـاـ تـقـضـلـ عـنـهـ وـلـاـ تـقـصـرـ دـوـنـهـ . وـأـمـاـ تـمـكـنـ الـفـاـصـلـةـ فـلـانـ مـقـطـعـ الـآـيـةـ مـسـتـقـرـ فـيـ قـرـارـهـ ، مـعـنـاهـ مـتـلـقـ بـماـ قـبـلـهـ إـلـىـ أـوـلـ الـكـلـامـ ، لـأـنـ لـاـ تـحـسـنـ الـمـوـعـظـةـ إـلـاـ بـعـدـ التـكـيـفـ بـبـيـانـ الـأـمـرـ وـالـنـهـىـ ، فـلـانـ الـوـعـدـ وـالـبـعـيدـ [يـجازـهـ مـرـتـبـ عـلـىـ اـمـتـالـ الـأـمـرـ وـالـنـهـىـ وـمـخـالـفـتـهـ] ، وـالـتـكـرـ بـعـدـ الـمـوـعـظـةـ . أـمـاـ الـبـيـانـ فـهـوـ دـلـالـةـ الـأـنـفـاظـ الـقـلـيلـةـ عـلـىـ الـمـائـنـ الـكـثـيرـ بـالـلـفـاظـ الـحـقـيـقـةـ الـصـرـيـحـةـ لـاـ بـلـطـقـ الـإـشـارـةـ ، وـلـاـ إـرـدـافـ ، وـلـاـ التـشـيلـ وـلـاـ شـرـبـ مـنـ شـرـوبـ الـحـدـفـ وـالـتـقـيـرـ^(١).

ذلك إذن شوأـدـ علىـ اـهـتـامـ الـمـؤـلـفـ بـالـاتـجـاهـ الـأـدـبـيـ وـالـاسـتـقـصـارـيـ فـيـ شـرـحـ شـوـاءـدـ الـقـرـائـيـةـ ، فـهـوـ لـاـ يـكـنـيـ بـتـحـلـيلـ مـاـ فـيـ الـآـيـاتـ مـنـ لـوـنـ بـدـيـعـيـ وـاحـدـ يـمـثـلـ الـبـاـبـ الـوـارـدـ فـيـهـ ، وـإـنـماـ يـعـتـصـرـ مـاـ فـيـهـ مـنـ مـحـسـنـاتـ بـدـيـعـيـةـ لـدـرـجـةـ الـإـسـرـافـ كـمـاـ فـيـ الـآـيـةـ السـاـبـقـةـ التـيـ ذـكـرـ فـيـهـ مـاـ يـرـيـوـ عـلـىـ عـشـرـ مـحـسـنـاتـ ، وـذـكـرـ لـأـنـ يـعـدـ أـبـوـبـ الـبـدـيـعـ مـقـايـيسـ جـمـالـيـةـ ، فـيـقـرـرـ مـاـ يـكـثـرـ مـنـهـ فـيـ الـقـرـآنـ تـلـوـنـ سـبـبـ الـجـمـالـ ، وـيـسـمـوـ قـدـرـ الـبـلـاغـ ،^(٢)

(١) انـظرـ : بـدـيـعـ الـقـرـآنـ مـنـ ١٨٣ـ : مـنـ ١٨٥ـ .

(٢) انـظرـ : مـلـاحـقـ الشـخـصـيـةـ الـمـصـرـيـةـ فـيـ الـدـرـاسـاتـ الـبـيـانـيـةـ دـ . الـجـوـريـشـ مـنـ ٥٧٦ـ .

والواضح من كتاب «بديع القرآن» أن مؤلفه صاحب هدف معلن فني - كما أسلفنا - هو التربية الأدبية ، والرياضة الجمالية^(١) ، علاوة على ذلك فهو يرسم للباحثين منهاجاً ، ويقتضي لهم طرفة يسلكون في النقد الأدبي ، ودليل ذلك خاتمة كتابه التي يقول فيها : «.... وقد تقدم في هذا الكتاب تبيان طريق الاستنباط والاستخراج ، فمن أحسن على مطالعته احتلاته بلحمه ودمه ، وقدر على استنباط كل ما فيها ، وفي غيرها من الكلام البليغ الفصيح ، والله أعلم^(٢)».

وتفوق ذلك كله فهو غيره على الكتاب العزيز ، ينفي الشعر عنه ، ويرى على من أثبتته فيه يقوله : «..... أما القرآن العزيز فلم يقع فيه من ذلك (أي الشعر) - إلا ما هو على مثال البيت المفرد فقط ، والبيت المفرد لا يسمونه شعرًا قصيدة أو لم يقصد ، وعلى ذلك أدلة لا يتسع هذا المكان لذكرها ، وقد أثبت بها مستنسنها في كتابين^(٣) أحدهما : الشافية في علم القافية والأخر - الميزان في الترجيح بين كلام قادمه وبين كلام خصمه^(٤)».

والواقع أن القرآن العزيز يجب أن ينفي عن الشعر ببرهاناً مقدراً أو أكثر ، أو أقل ، وبذلك ذلك قوله تعالى: «قَمَا هُوَ يَقْرِئُ شَاعِرَ لِلْيَلَامَاتِ تَقْرِيَّةً»^(٥).

ويعد أن عرضنا لخطبة المؤلف ، ومنهجه في التأليف ، ودوره في تنشيط الدرس البياني القرائي ، أو البياني على حد اختيار المؤلف - من خلال ما سبقناه من نماذج ، وشهاده وتحليلات ، يحسن بنا أن نجمل السمات التي يمكن أن تكون وساماً على صدر ابن أبي الإصبع المصري في بحثه البلاغي ، ذكر منها الاستاذ الدكتور الجريش : الفضخامة ، والتظيم ، والنون ، والأدبية ، والروحية ، والوضوح^(٦) ، ومن مقاييس البديع الجمالية التي انفرد بها والتي ذكرها أستاذنا أيضًا : السهولة والصدق وحسن الجوار ويكتفي ابن أبي الإصبع فخرًاً ما قاسم به من غربلة لتراثنا البلاغي الشخص ، فجاء كتابه منارة تهدى الباحثين عبر الزمن .

(١) انظر : ملخص الشخصية المصرية في الفرس البياني من ٥٧١

(٢) انظر : بديع القرآن من ٣٥٣ (٣) المصدر نفسه من ١٦٦

(٤) والكتابان مقتنيان لسره الخط . (٥) سورة العنكبوت آية ١١ /

(٦) انظر : ملخص الشخصية المصرية : المدخلات الثالثية / ٤٤٠ / ٥٧٧ / ٥٥٢ / ٥٤٦ / ٥٨١ / ٥٨٢ .

كتاب « تحرير التحبير » لابن أبي الإصبع

وهو الكتاب الثاني في الديباج لابن أبي الإصبع ، الله فيما يبدو بإشارة أحد أحفاد الشاعر المصري ابن سناه الملاك ، والكتاب له من اسمه تصيب كبير^(١)، يقول : « إني ترثيت تحرير ما جمعته ... ودققت النظر فيه حسب طاقتى ، وصححت ما قدرت على تصحيحه ، ووضع كل شاهد موشهء »^(٢).

وهو كتاب قام بدراسة البيانية والدينية فيه حول القرآن الكريم والشعر والنقل جمياً ، ليثبت من وراء ذلك ، إعجاز القرآن الذي هوغاية من الدراسة البلاغية ، وينقد آراء السابقين ، وشهادتهم ، ولذلك امتاز هذا الكتاب عن سابقه لأنه كان يعتمد على النقد لا على النقل^(٣).

والظاهر أن كتاب « تحرير التحبير » قد بلغغاية في هذا العلم في عصر المؤلف ، كما شهد المؤرخون بذلك ، قال عنه صاحب خزانة الأدب : « وهو أحسن كتاب ألف في الديباج ، لأنـه لم يتكل على النقل دون النقد »^(٤) ، وذكر صاحب شذرات الذهب أن كتاب « تحرير التحبير » لم يصنف قبله .

وقد تجددت نظرية ابن أبي الإصبع إلى ذاتية الديباج ، واتجاهه في مدى تحسينه ، انتصاراً من تابعيه أمثال السبكي^(٥).

وإن نظرة سريعة إلى مقدمة كتاب « تحرير التحبير » تزrina أن مؤلفه رجع إلى عدد وفير من المصادر التي بلغت أكثر من أربعين مصدراً ، منها ما هو متفرد بهذا العلم ، ومنها ما كان هذا العلم أو بعضه داخلاً فيه ، وإن هذا العدد ليتضاعف في كتابه « يديع القرآن » كما سبق .

وكتاب « تحرير التحبير » أضخم من « يديع القرآن » وأكثر أبواباً ، استهل المؤلف بمقمية تحدث فيها عن مؤصل علم الديباج : ابن المعتز وأسماء بن منقذ ، وصنيعهما في الديباج

(١) فالتحبير بمعنى التلخيص ، والتحبير بمعنى التزيين ، فيكون معنى المعنوان ، « تلخيص الديباج وتقريبه ثم تزيينه وتحسينه ، بما يتحقق وموشهءه ، وهذا ما أراده ابن أبي الإصبع على وجه التزبيب

(٢) انظر : تحرير التحبير ص

(٣) انظر : مقدمة تحرير التحبير الدكتور حفني شرف ص ٦٦ .

(٤) انظر : خزانة الأدب ص ٣٩٩ لياقتوب العمري .

(٥) انظر : السبكي والدرس البلاغي في مصر . د. محمود شبابيك ص ١٠٩ .

وعدة ما انفرد كل باختراعه ، وما تواردا عليه ، وبعد ذلك قسم الكتاب إلى ثلاثة أقسام : تكلم في القسم الأول على الأصول ، وهي الأدوات التي ذكرها ابن المعتز في بدعة ، وأساسة في نقه ، وعددتها ثلاثون نوعاً^(١).

وتكلم في القسم الثاني على الأدوات التي عدتها قرروا ، وعدتها خمسة وستين نوعاً^(٢) . ويقصد بها الأدوات التي اكتشفها المتأخرین بعد قدامه وابن المعتز . وفي القسم الثالث تكلم على ما استخرجه بنفسه ، وهي ثلاثون نوعاً^(٣) ظن أنه لم يسبق إلى شيئاً منها ، والحقيقة أن جديده سلم له منه أربعة عشر لوناً ، وسبق إلى ستة عشر لوناً^(٤) . وبذلك يكون مجموع ماجمهه ابن أبي الإصبع في تحريره ، مائة وخمسة وعشرين فناً ، بحثها بالأسلوب الأديب الذي اكتملت عنده حاسة النقد والنقد .

ومنتج المؤلف في دراسته هذه يقوم على الاختصار دون الإطالة . فهو يذكر الفن البديعى وتعريفه من الناحية الاصطلاحية ، وتدارك ما يتعرض له عناه الفرى ، ثم ينالش آراء السابقين في تعريفاتهم ، ويختتم المناقشة برأيه الذى ارتضاه ، وهو نفس المنهج المتبع في « بديع القرآن » .

ثم يتبع ذلك كله بالشوادر القرائية ، والأحاديث التنبوية ليثبت وجود الباب في القرآن الكريم ، ثم يتبعه بالشوادر الشرعية . ويتقتصر شواهد على الواضح ، ثم يحاول إيضاح المشكك ، أو كشف غامض ، أو زيادة بسط في الكلام فيما جاء من الكتاب العزيز ، أو في بيت قد أهلل تقصي الكلام عليه^(٥) .

والعجب أن ابن أبي الإصبع حين لا يجد لأحد الفنون البديعية شاهداً كاملاً زراه ينظم له شاهداً من عنده .

أما أنوار الدبيع التي أضافها ولم تسلم له « باب التهكم » الذي عرفه المؤرخ وأصطلاحياً يقوله : « هو عبارة عن الإتيان بلفظ الشارة في موضع الإنذار ، والبعد في مكان الوعيد ، والدرج في معرض الاستهزاء ، ومنه قوله تعالى: « يُشَرِّقُ النَّارِيَّةَ يَأْتِيَ لَهُمْ عَذَابًا إِلَيْهَا »^(٦) .

(١) وآليها باب الاستئثار ، وأخراها باب الإنثال من من ص ٩٧ : ص ٢٤١ ، تحرير التعبير ، الجزء الأول ، كاملاً .

(٢) وآليها باب الاحتراض ، وأخراها باب التوأم . انظر : تحرير التعبير ، من ص ٢٤٠ : من ٢٤٤

(٣) انظر : التحرير من من ٥٧ : ص ٧٦ ، وآليها باب التعبير ، وأخراها باب حسن الخاتمة : حـ ، كله

(٤) انظر : ابن أبي الإصبع بين علماء البلاقة من ٣.٧ : من ٣٣

(٥) انظر : تاريخ النقد العربي : الدكتور زغلول سالم من ٥٢

(٦) النساء آية / ١٢٨ / ١٢٨ - ١٩٠ -

(٧) انظر : تحرير التعبير من ٥٦٨ .

والحقيقة أن التهكم ليس من اختراع ابن أبي الإصبع ، بل ذكره من قبل المؤشرى وليس التهكم نتاج خفة الروح المصرية ، والميل إلى التفكك كما زعم أحد الباحثين^(١) .

وفرق ابن أبي الإصبع بين التهكم والهزل الذى يراد به الجد ، أن التهكم ظاهره جد ، وباطنه هزل وهو ضد الأول ، لأن الهزل الذى يراد به الجد يمكن ظاهره هزاً ، وباطنه جداً^(٢) .

ولا ينكر باحث أن ما أضافه ابن أبي الإصبع سُلِّمَ له منه أنواع ، وما سُلِّمَ المؤلف لم يسمِّ أحد إليه ، ومن ذلك : التمزيج والمنوان ، والإيساخ والصيدة ، والانتقال ، والشماتة ، والتصرف ، والتسليم ، والافتتان ، والقول بالواجب ، وحصر الجرئى ، والاتصال ، والإيداع .

ونكتلى بعرض أحد الفنون التي سُلِّمتَ لابن أبي الإصبع ، ومنها الافتتان ، الذى عُرف بقوله : هو أن يَقُولَ المتكلِّمُ فياتٍ يفتتن متصادين من فنون الكلام ، في بيته واحد ، أو جملة واحدة مثل التسبيب ، والمحاسنة ، والمجاه ، والهنا ، والغزا ، وما جاء من ذلك في القرآن الكريم قوله تعالى : **«كُمْ تَنْتَجُ الَّذِينَ آتَيْتُمْ وَيَذَرُ الظَّالِمُونَ فِيهَا جِئْنَا** »^(٣) . تجمع هذا الكلام بين الوعد والوعيد .

ومما جمع بين التعزية والفحش قوله تعالى : **«كُلُّ مَنْ عَلِمَنَا قَاتَلَنَا فَيَقُولُ تَجْهِيَّزْنَا نَفْ**
الْبَلَلَى وَالْأَكْرَامَ»^{(٤)-(٥)} .

أما الذي نلاحظه على معالجة ابن أبي الإصبع لفنون البديع في الكتاب ، أنه أدخل بعض مباحث البيان والمعنى في البديع ، كالإيجاز ، والإطناب ، من المعانى ، والتشبث ، والاستعارة والمجاز ، والكتابية في البيان ، وهذا يعني أن البديع عنده يتسع ليشمل جوانب المعانى والبيان ، ويعرض صور البيان كاستعارة التي استهل بها كتاب البديع الذي جاء مختصرًا من « التحرير والتخيير » ونكتلى بما ذكرناه عن الاستعارة في البديع .

وهذا يعني من جهة أخرى أنه لم يتصل بالسكاكى ، ب رغم من معرفة البيئة المصرية له في ذلك الوقت ، ولحل السبب الذي حداً بين ابن أبي الإصبع لا يرجع إلى مفتاح السكاكى ، أو يذكره ضمن مراجعه ، هو اختلاف منهج الرجلين ، فإن ابن أبي الإصبع ينحو منحى أدبياً ، يعتمد على

(١) انظر : السبكى والدرس البلافى فى مصر . د. محمود شيايك من ١٠٧

(٢) انظر : تحرير التخيير من ٧٧ .

(٣) سورة مرion آية / ٧٦

(٤) سورة الرحمن آية ٢٦، ٢٧ .

(٥) انظر : تحرير التخيير من ٨٨ ، من ٨٩ .

العاطلة والفرق ، أما السكاكي فاعتمد النهج العقلي الفلسفي ورفع من شأن المنطق في معالجة البلاغة كما تكررنا من قبل .

والتشبيه عند ابن أبي الإصبع من أنواع البديع أيضاً ، ويقسمه إلى قسمين : متفق ومختلف ، فالمتفق منه ، تشبيه حقيقة جسم بجسم ، أو جوهر بجوهر كقولنا : حمرة الخد كحمرة الورك ، والمختلف تشبيه مجاز للمبالغة كقوله : حاتم كالغمام ، وحد التشبيه البليغ : إخراج الأغمس إلى الأظهر بالتشبيه ، مع حسن التأليف .

وتقسم التشبيه الصناعي إلى نوعين : تشبيه بذاته ، وتشبيه بغير أداة ، وفائدته قرب المشبه من المشبه به ، وتوعماً آخر لم يمثل له من القرآن سماء : الترايد^(١)

أما المجاز عنده فعبارة عن تجوز الحقيقة ، وعد من المجاز : الاستعارة ، والبالغة ، والإشارة ، والإرداد ، والتضليل ، والتشبيه ، وغير ذلك ، مما عدل عن الحقيقة الموضومة المعنى المراد ، وأدرج الحذف ضمن المجاز - كما فعل عن الدين بن عبد السلام - ، ومنه حذف الموصوف ، وإبقاء الصفة الدالة عليه ، وحذف جواب « لو » كقوله تعالى « تَكُنْ أَنْتَ قَرَأْنَا سَقِيتَ بِهِ الْبَيَانُ »^(٢) ، ومنه : الاسم المضاف ، الذي حذف المضاف منه ، واقتيم المضاف إليه مقامه كقوله تعالى : « وَأَشْرِبُوا فِي قَلْوَبِهِمُ الْأَجَلَ »^(٣) أي حَبَّ العِجْلِ ، وهو بنفس توجيه عن الدين بن عبد السلام في كتابه « الإشارة إلى الإيجاز»^(٤) أما الكتابة فقرفها بقوله : « هي أن ي撇 المتكلم عن المعنى القبيح بالنظر للحسن ، وعن الفاحش بالظاهر ، كقوله تعالى : « كَانَا يَأْكَلُونَ الطَّعَامَ »^(٥) كتابة عن الحث^(٦) .

(١) من أمثلة التشبيه بذاته منه قوله تعالى : مثل نورة كشكشة فيها مصباح ، التور / ٣٥ ، ومثاله فيما هو بغير أداة قوله تعالى : وزواجه أمهاتهم ، الأحزاب / ٦ ، وذكر توعماً غالباً التشبيه تكون أمواه أفعالطن واليقين كقوله : « وتحسبيهم أياً كانوا » وهو رثود ، الكهف / ١٨ . انظر تفصيل ذلك التحرير والتحبير من ١٥٦ وما بعدها .

(٢) سورة الرعد آية / ٣١ (٣) البقرة آية / ٩٣

(٤) انظر : التحرير والتحبير من ٤٥٧ وما بعدها ، وكتاب : الإشارة إلى الإيجاز لعن بن عبد السلام

من

(٥) سورة المائدة : آية / ٧٥

(٦) انظر : التحبير من ١٦٣ . وهو نفس ما مثل به الكتابة في كتاب « بديع القرآن » انظر من ٥٢ .

وَمَا يُشِيرُ دُعْشَةُ الْبَاحِثِ أَنْ تُرِى بَعْضُ الْبَلَاغِيِّينَ يَسْمِي هَذَا الْجَهْدَ الْبَيْهِيِّنِ سُخْفَةً^(١) لَا
دُنْنَ لَهُ، وَلَكِنَّا لَا نَعْدِمُ مِنْ يَتَصَفُّ الرَّجُلُ، فَهَا هُوَ أَسْتَاذُنَا، الْكَتَّابُ زَغْلُولُ سَلَامُ أَحَدُ رِوَادِ
الْبَحْثِ الْبَلَاغِيِّ فِي عَصْرِنَا الْمُحْاضِرِ – يَقُولُ : « إِنْ دِرَاسَةَ ابْنِ أَبِي الْإِصْبَعِ لِأَنْوَاعِ الْبَيْعِ فِي
هَذَا الْكِتَابِ » تَحْرِيرُ التَّبَيِّنِ » يَصِلُّ هَذَا الْقَنْ إِلَى ذُرْرَتِهِ، وَقَدْ يَبْدُو فِي أَعْيُنِ النَّاسِ شَرِيكًا مِنْ
الْمُبَشِّرِ، وَلَكِنْ يَبْعَثُ الصَّبِيرَ وَالْتَّقْحِيمَ يُمْكِنُنَا أَنْ نَحْصُلَ إِلَى أَنْ هَذِهِ الدِّرَاسَةُ حَاقَّتْنَا أَنْ تَطْلُعَنَا
عَلَى جَوَابَتِنَا مِنْ جَصَّانِسِ الْأَسْلُوبِ الْعَرَبِيِّ، وَتَكْشِفَنَا مِنْ نَوَافِحِ مِنْ جَمِيلِ التَّبَيِّنِ، وَمِنْهَا
استِكْشافُ كُلِّ ثِيَّبَةٍ، وَلَوْنٍ، وَصَوْتٍ فِي الْفَلَةِ يَمْكُنُ أَنْ تَجْعَلَ التَّبَيِّنَ وَتَلَزِّمَهُ .

وَالْمَلَأُ الَّذِي يَأْخُذُهُ أَسْتَاذُنَا عَلَى صَاحِبِنَا هُوَ مِنْهُجُهُ الَّذِي لَا يَتَسَلَّلُ فِيهِ تَسْلِيسُ تَالِيفِ
غَيْرِهِ مِنْ عَلَمَاءِ الْبَلَاغَةِ الَّذِينَ يَبْيَنُنَّ لِتَائِفَتِهِمْ مِنْهُجًا كَضِيَاءَ الدِّينِ بَنِ الْأَئِدِيرِ فِي الْمُثَلِّ
السَّائِرِ .^(٢)

وَبِالْمَقَارَنَةِ بَيْنَ الْكَاتِبَيْنِ (بَدِيعُ الْقَرْآنِ وَتَحْرِيرُ التَّبَيِّنِ) لَاحَظَنَا أَنْ هُنَّا فَرِيقًا بَيْنَهُمَا، فَنَقْدَ
تَكَلُّمُ فِي « بَدِيعِ الْقَرْآنِ » عَنْ مَائَةِ نَوْعٍ وَّشَسْعَةِ أَنْوَاعٍ وَفِي « تَحْرِيرِ التَّبَيِّنِ » عَنْ مَائَةِ وَخَمْسَةِ
وَعِشْرِينَ نَوْعًا، وَمَعْنِي هَذَا أَنْ كُلُّا مِنَ الْكَاتِبَيْنِ أَسْتَاذُنَا بَنِ الْأَيَّوبَ لَمْ تَرِدْ فِي الْآخِرِ، وَعَدَدُ
الْأَيَّوبَ الَّتِي وَرَدَتْ فِي « تَحْرِيرِ التَّبَيِّنِ » وَلَمْ تَرِدْ فِي « بَدِيعِ الْقَرْآنِ » اثْنَيْنِ وَعِشْرِينَ بَابًا مِنْهَا
الْهَزَلُ، وَالْخَلُوُّ، وَالْهَجَاءُ، وَالْإِلْفَانُ، وَالْتَّعْمِيَّةُ، وَالْتَّشْطِيرُ، وَالْتَّجَزِيَّةُ، وَالْتَّطَوِّرُ، وَالْمَعْدُّ،
وَالْحَلُّ إِلَخَ .

أَمَّا الْأَيَّوبُ الَّتِي لَمْ تَرِدْ فِي « تَحْرِيرِ التَّبَيِّنِ » وَوَرَدَتْ فِي « بَدِيعِ الْقَرْآنِ » فَهُنَّ كَثِيرَةُ
أَيْضًا، وَمِنْهَا : بَابُ التَّزوِيدِ، وَالْتَّقْصِيلِ، وَالْإِلْجَاءِ، وَالْتَّنْتَهِيَّةِ، وَالْمَرْزِنِ وَالْإِيمَاءِ، وَالْتَّقْرِيقِ،
وَالْجَمْعُ، وَعَدَدُهُ الْأَنْوَاعُ الَّتِي جَاءَتْ فِي الْبَدِيعِ وَلَمْ تَرِدْ فِي تَحْرِيرِ التَّبَيِّنِ، لَيْسَ مُسْتَبِيلَةُ
الْوَقْعِ فِي كَلَامِ الْبَشَرِ، وَلَكِنَّهَا وَجَدَتْ فِي كَلَامِهِ .^(٣)

وَالْأَيَّوبُ الْمُشَرِّكَةُ فِي الْكَاتِبَيْنِ فَيَذَكُرُهَا ابْنُ أَبِي الْإِصْبَعُ مِنْ غَيْرِ إِضَافَةِ أَوْ تَعْدِيلٍ، وَكَانَ
الْأَجَدُ بِهِ أَنْ يَجْمِعَ الْجَدِيدَ فِي بَابٍ مُسْتَقْلٍ يَلْحِقُ بِكَتَابِهِ الْأَوَّلِ، وَلَا دَاعِيٌ لِلتَّكَارُورِ كَمَا يَفْعُلُ
كَثِيرًا مِنَ الْمُؤْلِفِينَ .

(١) انظر : تاريخ النقد الابنوي عند العرب د. إحسان عباس من ٥٩١

(٢) انظر : تاريخ النقد العربي لاستاذنا الدكتور زغلول سلام من ٣٥٢

(٣) انظر : ابن أبي الإصبع بين علماء البلاغة د. جعنى شرف من ٣٤٧ - وما يبعها . ومقتبسة كتاب
« تحرير التبیین » الدكتور / شرف من ٦١ .

ويحسب المؤلف أنه ذُرَّ القرآن عن الأبواب التي لا تتفق وموضوعه ، والتي لا تليق بكتاب جاء منها عن الهرزل والإلزار ، والتممية ، والفلو ، والإغراق . يقول : « ولا يقع شين من الإغراق والفلو في الكتاب العزيز ، ولا الكلام الصريح الفصيح ، إلا مقتولًا بما يخرجه من باب الاستحالة ، ويدخله في مكان الإمكان كـ «قد» للاحتلال ، وـ «لو» ، وـ «لولا» للامتلاع ، وكـ «للمقارنة» ، وإـ «إادة التشبيه» ، وأشباه ذلك من القرآن اللفظية وإنما توجد هذه الأنواع في كلام المخالف لـ «الخالق»^(١) »

ومما يجدر ذكره أن منهج الكتابين ليس سردًا لفنون البديع فحسب ، بل مما دراسة نقدية وافية تتميز بالتحليل الدقيق والنوق الرقيع الذي يتم عن شخصية مستقلة في التحليل والنوق والمناقشة ، ولهذا فقد أثار الكتابان « تحرير التحبير » ، و « بديع القرآن » اهتمام علماء البلاغة المعاصرین ، والتابعين فأخذوا عنهما ، وناقشو ما جاء بهما ، كالنويري في « نهاية الأدب » ، والبغدادي في « خزانة الأدب » ، وأبن حجة الحموي في « الفزانة وشرفات الأدراق » وأخذ السبكي عن بديع القرآن في « عروس الأذراح »^(٢) »

(١) انظر : تحرير التحبير من ٢٢١ ، من ٢٢٢ .

(٢) انظر : تاريخ النقد العربي لاستاذنا الدكتور زغير سالم من ٣٤١

كتاب «الانتصاف من الكشاف لابن المثير الاسكندراني» (ت ٦٨٣ هـ)

كان ابن المثير ناصر الدين أحمد بن محمد بن متصور الجندي الجرجي الاسكندراني المالكي - بارعاً في الفقه والاس Howell ، والنظر والمرتبة والبلاغة ، وكان له اليد الطولى في الأدب وقوته^(١).

تسلم ابن المثير أعلى مكانة علمية في عصره في مصر بصلة عامة ، والاسكندرية بصلة خاصة ، يفهم ذلك من شهادة أحد شيوخه ، وأئمة عصره عن الدين بن عبد السلام الذي قال فيه : « الديار المصرية تفتخر بروجلين في طرقها : ابن دقيق العيد يقوس ، وابن المثير بالاسكندرية^(٢) ».

ويعد كتاب الانتصاف من الكشاف لابن المثير من المؤلفات ، التي أثني عليها ابن عبد السلام - كذلك^(٣) . وهو عبارة عن مناقشات مع الزمخشري المعتزلي ، صاحب الكشاف ، تصدى فيه للدفاع عن عقيدة الأشعرية للرد على الاعتزال ، مستندة في ذلك بحسان بن ثابت الانصاري ، صاحب رسول الله عليه السلام وشاعره يقول : « ولولا الاستنان بحسان بن ثابت الانصاري ، صاحب رسول الله ، وشاعره ، والمناقف عنه ، بدرج القدس ، لقلنا لهؤلام المتقين بالعدلية ، وبالناجين سلاماً ، ولكن كما نافع حسان عن رسول الله أعداه ، فنحن ننافق عن أصحاب سنة رسول الله عليه السلام أعداهم^(٤) ».

فالانتصاف إذن ألف أساساً للدفاع عن عقيدة الأشعرية ضد الاعتزال ، ويرى المؤلف أن دفاعه عن مذهبها ، لا يقال في نظره - عن الدفاع عن حرمة الوطن^(٥) .

وعلى أية حال فالباحث لا يعد نقاشاً نحوياً أو تفسيراً معنوياً ، أو لغرياً ، أو غير ذلك مما يضمه كتاب «الانتصاف» المؤلف على الكشاف ، مما لا يهمنا التعرض له ، وإنما الذي يهمنا حقاً هو المناقشات البلاغية التي أولاها اهتمامه ، والتي أفسح لها صاحبنا جانباً كبيراً من كتابه ، وهي مناقشة فنية هادئة ، تختلف كل الاختلاف عن مناقشته مع الزمخشري في

(١) انظر ترجمتي في : «البيان المنصب لابن فريحون» من ٧٦ ، وشذرات النسب لابن العمار ٢٨١/٥ ، وروايات القيبات ١٣٢/٦.

(٢) انظر : حسن المحاذرة السفيطي ١٢٧/١ .

(٣) الانتصاف من الكشاف ، هامش الكتاب الزمخشري ج ١ من ٤١٤ . وينحن لا تقر ابن المثير في هذا المنطق الشرط ، والمبالغة في القسوة لأن الأصل الا يحدث الفلاح في الرأي بين الظماء مدارنة .

(٤) المصدر نفسه ج ١ من ٤١٤ .

مذهبه الاعتزالي ، وبهذا السبب وقع عليه اختيارنا ضمن الأنبياء الذين اهتموا بالكشف عن بيان القرآن ويلاعنه .

إذن فالكتاب يطلعنا على نظرات بلاغية ذات قيمة بين رجلين من رجالات البلاغة مختلفي المذهب والاتجاه ، وهذا يدل من جانب آخر على ما كان للزمخشري من قيمة بلاغية أ عجب بها ابن المنير لو لا ما أفسدها من اعتزال سُقُرُتْ هي لخدمته ، ويدل من جهة أخرى على أن ابن المنير كان رجلاً بلاغياً واثناً من نفسه - وكيف لا - وهو ينالش متكلماً ذا قدم راسخة في البلاغة وعلومها ، أدار تفسيره كله حول علمي المعان والبيان .

ويتبيننا تعليلات ابن المنير على الكشف ، فوجئنا بما لم نكن نتوقعه ، لأن القارئ يظن منذ الولادة الأولى لقراءة عنوان الكتاب ، أنه سيلقي رجلاً ذرب اللسان بتأضل عن عقيدة الأشاعرة ، أمام أحد رواد المعتزلة ومتكريها ، غير أن ابن المنير يكتُب في نظر الباحث عندما يُؤثِّرُ القيمة البلاغية على الخصوبة الجدلية ، والاتجاه نحو الجانب الأنبياء والفنى بعيداً عن المنطق الفلسفى ، والكى التهنى العقيم ، فبرغم الخلاف المذهبى بين الرجلين ، فإنه لم يفسد للبلاغة أية قضية .

وسوف نتناول بعض الأسئلة الدالة على عمق النافسة التي يتسم بها صاحب الاتتصاف ، وسعة أفق البلاغي ، ومناقشته الباردة ، وكما يقولون - فالبعض العبق أهدا ، يرى الزمخشري أن « الذين أسلموا في قوله تعالى : « إِنَّ أَذْنَانَ النَّبِيِّ إِنَّمَا يَنْتَهُ مَذَى وَثْقَةٍ يَحْكُمُ بِهَا التَّبَيِّنُ الَّذِينَ أَسْلَمُوا إِلَيْنَا مَانِوٌ وَالرَّبَّابِيُّونَ وَالْأَتَيْبَارِ » (١) صفة أجريت على النبيين على سبيل المدح ، كالصفات الجاربة على القديم - سبحانه - لا للقصولة ، والتوضيح ، وأزيد بإجرائها التعریض باليهود ، وأنهم بعداء من ملة الإسلام ، التي هي دین الأنبياء كلهم في القديم والحديث ، وأن اليهودية يعزل عنها » (٢) .

وابن المنير يرفض هذا الرأي ، ويرى غير ذلك « لانه لا يحسن في مدح النبي أن يقتصر على كونه رجلاً مسلماً ، فإن أقل متبوعيه كذلك ، ولأن الدح إنما يكون غالباً بالصفات الخاصة التي يتميز بها المدح عن ذونه ، والإسلام أمر عام ، يتناول أمم الأنبياء ، ومتبعهم كما يتناولهم . وإذا كان هذا الرأي أكثر صفاً ، واقرب إلى النزق من رأي الزمخشري ، فإن صاحبنا يضيف إليه ما هو أكثر فتنية من رأي الزمخشري ، يقول : « فالوجه - والله أعلم - أن الصفة قد تذكر للعظام في نفسها ، ولائحة بها ، إذا وصف بها عظيم القدر ، كما يكن

(١) سورة المائدة آية / ٤٤

(٢) انظر : الكشف للزمخشري ٦٣٦/٦

ثبوتها بقدر موصوفها ، فالحاصل أنه كما يراد إعظام الموصوف بالصلة العظيمة ، قد يراد إعظام الصفة بعزم موصوفها^(١).

ولا يكتفى ابن المير بهذا القول الذي ، ولكنه يسوق أمثلة من القرآن الكريم ، والشعر الجيد : ليعزز وجهة نظره ، يقول : « وعلى هذا الأسلوب جرى وصف الأنبياء بالصلاح في قوله تعالى : **وَقَاتَلُنَا أَهْلَكَنَا بِإِشْهَادِنَا** **أَنَّا مُسَالِمُونَ** »^(٢) ، وأمثاله تتوهها بمقدار الصلاح إذ جعل صفة الأنبياء ، بعضاً لآحاد الناس على الذائب في تحصيل صفتهم ، وكذلك قيل في قوله تعالى : **« الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْقَنَ ، فَمَنْ حَرَكَهُ يَسْتَعْجِنُ بِعَذَابِ رَبِّهِمْ ، كَفَرُوا فَعَذَابُ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ** »^(٣) . ويستفيدون **لِلْدِيَنِ أَمْقَوْا**^(٤) . فأخبر عن الملائكة المقربين بالإيمان تعظيماً لقدر الإيمان ، وبعثا للبشر على الدخول فيه ، ليسروا الملائكة المقربين في هذه الصفة ، ولا فمن المعلوم أن الملائكة مؤمنون ليس إلا ، ولهذا قال : « ويستفرون الذين أمنوا » يعني من البشر ، ثبوت حق الآخرة في الإيمان بين الطائفتين ، فذلك - والله أعلم - جرى وصف الأنبياء في هذه الآية بالإسلام تتوهها به ، ولقد قال القائل في أوصاف الأشراف ، والناظم في مدحه عليه :

فَلَيْلَ مَنْهَى مُحَمَّدٌ يَقِيمِيَّتِي ، فَلَيْلَ مَدْحُوتْ قَبِيَّتِي يَمْحَى

والإسلام وإن كان من أشرف الأوصاف ، إذ حاصله معرفة الله تعالى بما يجب له ، ومستحبيل عليه ، ويحيى في حقه ، إلا أن النبيرة أشرف وأجل : لاستعمالها على عموم الإسلام ، مع خواص المواهب التي لا تسعها العبارة ، فلو لم يذهب إلى الفائدة المذكورة في ذكر الإسلام بعد النبيرة في سياق المدح ، لخرجنا عن قانون البلاغة المأكوف في الكتاب العزيز^(٥).

و واضح من مناقشة ابن المير للزمخشري ، أنه يتميز بطول النفس ، وعمق الفكرة ، ورهافة الحس ، ولقد كان أستاذنا الدكتور الجويش منصفاً عندما حكم على بلاغة ابن المير بأنها بلاغة أدبية فنية خالصة ، موضوعها القرآن الكريم^(٦) ، وهذا وحده يمكنه سبيلاً في إشراق شخصية ابن المير ، وإضاعتها .

ومن أبرز الجوانب المضيئة في مجالس صاحب الانتصاف للنص القرائي ، كثرة شواهد من القرآن والشعر على ما يذهب إليه ، مع التحليل ، والتفسير ، والموازنة أحياناً ،

(١) انظر : الانتصاف من الكشاف لابن المير . هامش الكشاف / ٦٣٦/١ . تحقيق الاستاذ مسطفي حسن - دار الكتاب العربي / دمشق سنة ١٩٨٩ .

(٢) سورة المسالك آية / ١٧٢ (٣) سورة غافر آية / ٧

(٤) انظر : الانتصاف من الكشاف : ٦٢٨/١

(٥) انظر : ملخص الشخصية المصرية في الدراسات اليابانية من ٦٠ .

وريط التعبير القرائي بالجو النفسي ، وأهمية التصوير الفن في القرآن الكريم ، وهذا اتجاه شيق به ابن المثير عصره ، ونستطيع أن نضع أيدينا على نماذج كثيرة تبين ذلك ، لكننا نكتفي ببعضها مجرد الإشارة والتبيه .

ولننظر إلى تعليق الرجلين على قوله تعالى: «**يَقْعُلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي أَذْانِهِمْ وَنَسَاجِعِ حَذَرِ الْقَوْيِ وَاللَّهُ مُبِينٌ يَا أَكَابِرُو**»^(١) ، يقول الزمخشري: «... فإن قلت فالإصبع التي تشد بها الآلة أصبع خاصة ، فلم ذكر الاسم العام بين الناس؟ قلت: لأن السبابة مقالة من السب ، فكان اجتنابها أولى بآداب القرآن ... الا ترى أنهم استبعدها فكتوا عنها بالسبحة ، والمهلة ، والدعامة»^(٢) .

وابن المثير يزد هذا الرأي ويبرئ أنه غير لازم أن يسدوا في تلك الحالة بالسبابة ولا بد ، فإنها حالة حيرة ودهش ، فاي أصبع اتفقوا أن يسدوا بها فعلا ، غير معذجين على ترتيب معتمد في ذلك ، فيذكر مطلق الأصابع أدل على الدهش والغمبة ، أو فلعلهم يذبحون في هذا الحال سد آذانهم بالوسطي ، لأنها أصم للذان ، وأحجب للصوت ، فلم يلزم اقتصارهم على السبابة ؟ ... ثم إذا كان الفرض من التثليل تصوير المعانى في الانهان تصوير المحسوسات فذلك خلائق يذكر الصراحت ، واجتناب الكثيات والرموز »^(٣) .

والمتخصص في تعليق الرجلين ينشرح صدره ، ويرتاح فؤاده ، لبيان ووضوح كلام ابن المثير ، ذلك لأنه يراعي الحالة النفسية التي يعايشها المنافقون من الحيرة والدهش - وهل المفاجأة ، واجوئهم ، إلى أصابعهم - أي أصبع - للتحليل دون الصوت القاتل .

فابن المثير يربط بين الحالة النفسية والتعبير القرائي ، ويجعله أحد أغراض البلاهة ، تلمح ذلك في مواضع كثيرة من كتاب «الانتصاف »^(٤) .

ويتابع ابن المثير شيخه عن الدين بن عبد السلام في استخدام الفعل المشاريع دون الماضي ، استحضاراً للصورة في ذهن السامع^(٥) ... وهذا التصوير والاستحضار ، إنما يتتمكن في أداتها الفعل المشاريع دون اسم الفاعل والماضى . فقوله تعالى: «**أَتَمْ قَرَآنَ اللَّهِ**

(١) سورة البقرة آية / ١٩ (٢) آنظر: الكتاب التزمخشري / ٨٤/١ ، ٨٥

(٣) آنظر: الانتصاف من الكتاب / هامش / ٨٤/١ ، ٨٥

(٤) آنظر: أمثلة ذلك تعليقه على آية / ٤٧ من سورة التملح / ٣٦٨ ، وآية / ٢ من النساء / ٣٦٥ / ٤٦١/١

(٥) آنظر: الإشارة إلى الإيجاز للعز بن عبد السلام من ٢٦ وما يليها ، رسالتنا العز حياته وكتابه الإشارة من ٢٩٨ ، وما يليها .

أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ نَارًا فَتَصِيبُ الْأَرْضَ مُنْفَرَةً^(١) ، فعدل عن الماضى المطابق لقوله
«أنزل»، لهذا المعنى . ومنه قول الشاعر (معد يكتب) :

وَإِذْ لَقِيَتِ الْفَوْلَ يَسْعَىْ + يَسْتَقِبُ كَالْمَسْبِيقَةِ مَسْبِحَانِ
فَأَخْسَدَهُ فَأَشْرَبَهُ نَخْرَتْ + ضَرِيعَا لِلْقَيْتِينِ وَلِلْجَيْتَانِ

عدل إلى المشارع ، إرادة لتصوير شجاعته ، واستحضاره لمعنى السامع ، والفرض البلاعى
لاستخدام الفعل المشارع دون الماضى ، هو استحضار الصورة في التقوس ، وتصويرها في
القاوب ، وهذا ما ذكره البلاغيين ، ومنهم الزمخشري ، إلا أن ابن الميد أضاف في العرض
مع وفرا شواهد من القرآن والشعر .^(٢)

والعجب أن بعض الباحثين لا يرى في هذا النوع - رغم إجماع البلاغيين عليه - نكتة
بلاغية كاستحضار الصورة ، وكونها مائة أيام الأعين ، بل اعتبر ذلك ثوابا من التصرف
وتخييل الكلام ما لا يحتمله من التأويل ، وإنما يرجع العدول عن صحة الماضى إلى المشارع
في نظره إلى ما تتطلب الفاصلة القرائية من انسجام صوتي ، ^(٣) وقد ناقشتناه وردتنا عليه قوله
من قبل .^(٤)

ومما يحسب لابن الميد في هذا المجال أنه لا يكتفى بالتركيز على الصورة فقط ، ولكنه
يمزج بينها ، وبين التأثير النفسي - كما دعا - من خلال المخالفة اللفظية ، ويهدر ذلك من خلال
تعليقه على سورة العاديات بقوله : « إنما عطف ”أثرن“ على الاسم الذي هو ”العاديات“ »
وما بعده : لأن أسماء فاعلين تعطي معنى الفعل ، وحكمة مجيء هذا المطروف فعلاً من اسم
فاعل تصوير هذه الأفعال في النفس ، فإن التصوير يحصل بإيراد الفعل بعد الاسم ، لما يبيهها
من التناقض ، وهو أبلغ من التصوير بالأسماء المتناسقة .^(٥)

ومن ذلك يكتشف لنا أن الاتجاه نحو التصوير في منهج المؤلف اتجاه أصيل ، يجري معه
حيث جري ، وليس مجرد تناول طائر ، أو طاري ، ويطول بنا السير إذا نحن تتبعنا المؤلف ،

(١) سورة الحج آية / ٦٣ ، وانتظر كذلك - تطبيق ابن الميد على آية ١٦/٩٥ / الانعام ج ٢ من ٤٧ ،
٤٨ من

(٢) انظر : الكتاب الزمخشري / ١ ، ٢٩٥/١ ، والمثل السادس لابن الميد / ٢ ، ١٩٤/٢ ، والطرزان الطبوى ١٣٨/٢

(٣) انظر : من أسرار اللغة د . إبراهيم أنيس من ١٥٦ وما يليها .

(٤) انظر : رسالتنا بالماجستير من ٢٠١

(٥) انظر : الاتصال من الكتاب . مائة الكتاب ج ٤ من ٧٨١ آية ١ : من العاديات .

ومضينا معه للتاكيد على هذا المنهج التصويرى النفسي الذى أنفرد به ، ونكتفى بالإحاله على بعض الواضح الذى نلهم منها الوضوح الفنى ، والنزعة التوثيقية التصويرية^(١).

وتأخذنا الدفءة كلما تمقتنا مع ابن المثير وعكفتنا على تعليقاته ودقته البينية ، والذي لوح بهذه من تأليف الكتاب منذ اللحظة الأولى ، وهو النفاع عن مذهبة الأشعرى ، والواقع أنه كان أكثر دفاعاً عن مذهبة البيان ، وليس المذهب الأشعرى وهذا جانب إيجابى يحفظ لابن المثير عند التاريخ له .

أضاف إلى ذلك : ثلاثة على الرجل الذي راجهه بكتابه ، في أكثر من موضع كقوله : « لست الزمخشري لم يتحدث في تفسير القرآن إلا من حيث علم البيان ، فإنه فيه أقرب الفرسان ، لا يجارى في ميادنه ، ولا يمارى في بيانه »^(٢) ، وفي موضع آخر يقول : « وهذا من مخاسن نكتة الدالة على أنه كان طليباً بالحقيقة في علم البيان »^(٣) .

وفي هنا إنصاف من ابن المثير الأشعرى ، للزمخشري المعذنى برغم اختلافهما مذهبياً ، ولقد أصاب في ذلك كل الصواب .

ويعد أن عرضنا لما يميز اتجاه ابن المثير بصفة عامة ، حان الوقت أن ننتقل إلى تصويره لعلوم البلاغة بمختلف فروعها ، والحقيقة أنها لاحظنا عليه أنه يتفرد من البديع عنواناً لأبوابها الثلاث (المعانى والبيان والبديع) مخالفًا في ذلك الزمخشري الذي حصر البلاغة في علمي المعانى والبيان ، وستحاول بسط هذا التصور بشبين من الإيجاز ، بأدبيات البيان الذي طالما أكد ابن المثير على أهمية التتقىب في صناعته ، لفهم القرآن ، لأن القرآن في نظره يستواني على أسرار البلاغة^(٤) .

ومن المباحث البينانية التي تعرض لها المؤلف : التشبيه والاستعارة ، والمجاز ، أما المجاز فقد طال وقفة المؤلف عنده ، وحيث من استخدامه من غير قيد في كثير من الآيات التي التزم

(١) انظر : المصدر نفسه ٦٤٦/٢ / آية ١ من سورة الإسراء ، مطلاً على ما ذكره الزمخشري من أن لفظة « الليل » جاءت مترددة لتقليل مدة الإسراء . أما ابن المثير فيرى أن : السرى والليل متصاريان قصدًا بهما التصوير . وانظر كذلك الانتصار ٢/٣٢ .

وانظر : تعليقة على آية ٩٦ ، ٩٥ من سورة الأنعام قوله : المراد بذلك البطنين : تصوير الأكل السادس ليتأكد منه بشاعة هذا الجرم في قوله تعالى « إنما يأكلون في بطونهم ثاراً » الانتصار ٤٨/٤٧ .

(٢) انظر : الانتصار ٦١٦/٢ .

(٣) المصدر نفسه : ٦٥٥/١ .

(٤) كتاب الانتصار من الكشاف ١/٣٦ .

فيها يظاهر التسخن ، من غير تأثير أو تجوز ، وبخاصة في آيات الأسماء والصفات تأثيراً منهج أهل السنة (وهو الإسلام) مخالف المذهب الاعتزالي (وهو الأعلم) ، ويرى أننا مأمورون باعتماد الظاهر ، ما لم يمنع مانع^(١).

ويكتفى لنا ذلك من خلال مناقشتنا للزمخشري في قوله تعالى: «يَقُولُ تَقْوِيلُ إِلَّاهَمَّ هَلْ اتَّخَذْتِي ؟ وَتَقْوِيلُ هَلْ مِنْ مَرْبِدٍ ؟»^(٢) ، قال الزمخشري: «..... سؤال جهنم وجوابها من باب التخييل الذي يقصد به تصوير المعنى^(٣) ، وينكر ابن النمير على الزمخشري إطلاق التخييل: لأن العبارة موعمة ، متركة في هذا المقام ، لا ثيق به بوجه من الوجه ... واستعمله الله فيما أخبر أنه سحر وياطل في قوله تعالى: «تَخْيِيلٌ إِلَيْهِ مَمْنُوعٌ أَنْهَا تَكُشُّى»^(٤) فلا يشك في وجوب اجتنابه .

ويفيدنا يكن ابن النمير قد أثرك المجاز في الآية لفظاً ويعني: لأنه يعتقد أن سؤال جهنم وجوابها حقيقة ، وأنه تعالى - يخلق فيها الإدراك بذلك بشرطه ، وقد وردت الأخبار وتظاهرت على ذلك^(٥) .

ويالرغم من هذا الشوط العامي بين ابن النمير والزمخشري ، فإنه يعود فيعتقد في مجازية بعض الآيات ، كما في قوله تعالى: «إِنَّ يَوَمَ الْحِسْبَانَ لَيَوْمٌ مَبِينٌ»^(٦) ، ويطلق عليها بقوله «لأننا نعتقد فيها المجاز ، وتدين الله بتقديسه عن المفهوم الحقيق»^(٧) ، ويشترط لذلك اجتناب الألفاظ المعلمة للفظ التخييل الذي يعني به الزمخشري التمثل^(٨) .

وذكر المؤلف بعض أنواع المجاز على طريقة الأصوليين مثل مجاز التعبير باللازم عن اللازم ومجاز التعبير بالسبب عن السبب ، وهو ما سماه ابن عبد السلام بـ « التجوز بلفظ السبب عن السبب »^(٩) أما الأول فنقوله تعالى: «وَقَدْ أَنْتَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ»^(١٠) .

يرى المؤلف أن التعبير في الآية وقع فيها باللازم عن لوازمه المشهورة به ، كما في قول الشاعر: «أَنَا أَبُو الْكَبِيرِ وَشِعْرِي شِعْرِي

(١) المصادر نسخة ٤/٢٨٩

(٢) سورة ق آية ٣٠

(٣) الكتاب للزمخشري ٤/٢٨٨

(٤) سورة طه آية ٦٦

(٥) الانتصاف من الكتاب ٤/٢٨٨ وما بعدها

(٦) سورة المائدة آية ٦٤

(٧) الانتصاف من الكتاب ١/٢٨٨

(٨) المصادر نسخة ٢/١٤٢

(٩) انظر: الإشارة إلى الإيمان من

(١٠) سورة الانعام آية ٢

أي المعروف المشهور ، لأنه يبني على أنه متى ذكر شعره ، فهم السادس عند ذكره خارص من الجودة والبلاغة ، وسلامة النسج ، لاشتهره بذلك ، فاقتصر على قوله : شعرى اكتالاً على فهم السادس «^(١)».

وتنظر ثقافة ابن المنيرين حين الآخر من خلال مناقشاته ، وتوجيهه لبعض الآيات مما يدل على اتساع ثقافته ، ومن ذلك حديثه عما يسمى الأصوليين بمحاج الشارقة أو المقاربة ، من خلال تعلقه على قوله تعالى : « قَدْ أَذَّنَ أَجْلَهُنَّ فَأَمْبِكُمْ نَمْغَرِبُ أَوْ سَرَّحُونَ يَمْغَرِبُ »^(٢) آية : شارقون بلوغ الأجل^(٣).

غير أن ابن المنيري ركز في تحليله على جمال التعبير المجاز في الآية ، مع العناية ببريطه بالتأثير النفسي يقول : « ولهذا المجاز في التعبير عن المقاربة على الترك ، سرّ يدع وهو التخييف بالحالة التي لا يعيها مطمع في الحياة ، ولا في الندب عن التربية الصعاف ، وهي الحالة التي وإن كانت في الدنيا إلا أنها لتربيها من الآخرة ، وأوصوها بالمقاربة ، صارت من حيزها ، ومعبرًا عنها بما يعبر به عن الحال الكائنة بعد المقاربة من الترك »^(٤).

وهذا توجيه أدبي راق ، ومن ثم فني رفيع ، لا تجد له عند الأصوليين الذين عالجوا مثل هذا النوع من المجاز ، واكتفوا فقط بمجرد سرد الشاهد من غير تعلق أو تحليل^(٥).

وتتابع حديثنا عن الفن الثاني من فنون البلاغة ، ألا وهو علم المعاني ، الذي ذكر منه المؤلف التقديم والتakhir ، واعتبره من البديع ، مما يبين لنا أنه أطلق اسم البديع على علوم البلاغة كلها ، وهذا هو تعليقه على قوله تعالى : « والمساندات حسنة . قالوا إجرات زجر » ، فالمثاليات ذكرها . إن الحكم تواجه^(٦) ، وقد جعل الزمخشري التناضل بين الطائفتين ، إما على أن الأول هو الأفضل ، أو على العكس^(٧) ، وتحليل الزمخشري للآيات جاء وفقاً لعلم المعاني .

وابن المنيري يرد عليه ذلك بقوله « قد جوز أن يكون ترتيبها في التناضل على أن الأول وهو الأفضل ، أو على العكس ، ولم يبين وجه كل واحد منها من حيث صنعة البديع ، ونحن نبيه فنقول : والكلام لابن المنيري وجه البداية بالأفضل الاعتناء بالآخر فقدم ، ووجه عكس هذا

(١) الانتصاف من الكتاب ٢/٢ (٢) سورة آلية

(٣) الانتصاف من الكتاب ١/١ (٤) المصدر نفسه ٤٧٨/١

(٥) انظر : المجاز عند الأصوليين من رسائلنا الماسنستير .

(٦) سورة الصافات من آلية ١ : آية ٤ (٧) الكتاب الزمخشري ٣٣/٤ .

الترقي من الأدنى إلى الأعلى ، ومنه قول الشاعر :

بِهَالِيلٍ يَمْتَهِمْ جَهَنَّمْ وَابْنَ أَمْرٍ تَلْقَى رَمَيْهَمْ أَخْمَدَ التَّحْمِينْ

وختم ابن المتن المناقشة بقوله : « وما ذكرناه بيان لما فيه مقتضى البديع والبلاغة »^(١).

أما البديع فللتنتأ نلاحظ اهتمامه ببيان ما في أي الكتاب العزيز من محسنات البديع ، وهو أكثر الأنواع البلاغية التي تعرّض لها ، ومن أبوابه التي ذكرها في انتصافه : التوربة^(٢) ، والتعريف^(٣) ، والالف^(٤) ، والإزداف^(٥) ، والالتفات والتعميم^(٦) ، والإسهاب ، ورد المجز على المصدر ، وغيره من الأبواب .

ولعل هذه الكثرة الوفيرة من الأبواب البدوية جعلت أحد رواد الدراسات البلاغية في مصر وبخاصة القرآنية ، يقرر « أن المقاييس الجمالية عند ابن المتن هي المقاييس البدوية : لأنه أنسج مجازاً كبيراً من بحث البلاخ لمقياس البديع الجمال ، يقاس به بلاغة القرآن الكريم »^(٧).

(١) الانتصار من الكتاب ٤/٣٣ / حاشية الكتاب

(٢) المصدر السابق نفسه ٣/٣٩٦ (٣) نفسه ٢/٤٤

(٤) نفسه ٢/٤١ (٥) نفسه ٣/٢٢٧

(٦) نفسه ٦/٧ (٧) انظر : ملخص الشخصية المصرية في الدراسات البلاغية من

ـ جوهر الكنز، لنجم الدين احمد بن إسماعيل بن الآثير الحلبي (ت ٧٣٧ هـ)

مختصر كتاب «كنز البراعة في أدوات ذوي البراعة»، لنجم الدين احمد بن إسماعيل بن الآثير الطباني (ت سنه ٧٣٧ هـ)^(١)، والكتاب كما ذكر المؤلف اختصار لكتاب والده عمار الدين إسماعيل بن احمد بن الآثير الشافعى الطباني (ت ٦٩١ هـ) وهو في علم الأدب، وضمنه من أنواعه ما لم يسبق إليه أديب، ولا نحا نحوه في فنه إلا ثواب أديب^(٢).

وبين المؤلف السبب الذي من أجله اختصر كتاب والده، فيقول: «ولقد وجدت فيه إسهاباً على من يروم حفظه، أو يقيد لفظه، فقصدت اختصاره، رغبة في سهولة تناوله... مع غاية الاختصار الذي لم يخل بما يحتاج إليه، ولا يمل عند مطالعته»^(٣)، وبذلك يكون المختصر قد جمع أجمل ما حواه كتاب الكنز من المعانى والألفاظ.

ولعل أول ما يسترخي انتبه الباحث أن الكتاب يتباهى إلى حد كبير «المثل السائى» لضياء الدين بن الآثير، فهو يبدأ كتابه بذكر ما يحتاج إليه كاتب الإنشاء من العلوم والفضائل ليعد كتاباً ويذكر في ذلك إحدى عشرة أداة، ويقرر أنه ليس لكتاب وصول إلى برؤ مقاصده إلا بهذه الأدوات وهي :

- ١ - أن يحفظ كتاب الله، وأن يطلع على أسراره بكثرة تلاوته، ليتدرّب باستعماله في مطابق كلامه، والاستشهاد به في الواقع المناسب لكل آية من آياته.
- ٢ - حفظ جملة من الأحاديث النبوية لنفس الفرض الذي سلك به مسلك القرآن.
- ٣ - معرفة الطريق إلى تعلم الكتاب وأوضاعها، ومعرفة النحو، وذلك ليأمن معرفة اللحن في كلامه أو تلاوته.

ويرى ابن الآثير أنه لا يمكن الاطلاع على أسرار الكتاب العزيز، ولا الأحاديث النبوية إلا بعلم البيان، ومعرفة علم البيان مقتنة إلى علم النحو، ويرغم ذلك، فإنه يرى - كذلك أنه لا ينبغي لكاتب أن يضيّع زمانه في استيعاب علم النحو، بل يجب عليه أن يتناول منه بقدر الإمكان، لإزالة شروره.

(١) انظر : ترجمتي في : الدرر الكامنة في أعيان الملة الثامنة ١٠٤/١ ، وكشف الظنون لمحاجي خليفة ٦٦٥/٢.

(٢) انظر : جوهر الكنز لنجم الدين بن الآثير . تحقيق أستاذنا الدكتور زغلول سلام من ٣٧ - منشأة المارف / الإسكندرية سنة ١٩٧٧ م

(٣) انظر المصدر السابق من ٢٨

(٤) انظر : المصدر السابق من ٢٩ : من ٣٢

٤ - معرفة اللغة العربية ، الحوشية وغير الحوشية ، حتى يتتجنب الحوشى من لفاظها في
كلامه، وأما غير الحوشى فلن يستعملها في مواضعها ، وأن يلم بالأسماه المترافقه ،
والمشتركة ، وأوصافها المختلفة .

٥ - معرفة جمله عن الفقه ، والاطلاع على ما قاله المفسرون لكتاب العزيز ، من شرح الآيات
المحكمات ، وأسباب نزولها ، وما في الكتاب العزيز من الأمر والنهي ، والاحكام والمعانى
والإعجاز والإيجاز والفصاحة ، والبلاغة والبيان ، والبياع ، وأخبار الأولين والآخرين
الخ.....^(١).

والمؤلف بهذا الباب يقرر أن نظم الكلام الذي يرتكبه الكاتب ، ليس سهلاً ميسوراً ، وإنما
يحتاج إلى ثقافة ومهارة ، ويقترب في ذلك من نهج خماسة الدين ابن الأثير .

ثم يعقد المؤلف بياضاً في الفصاحة والبلاغة ، ويستهل بالحديث في حدودها .
ويتابع الخنزير الراندي في تعريفه ، فيعرف الفصاحة بقوله « إن الفصاحة خلوص الكلام من
التعقيد ، وأصله من القصيم ، وهو الين الذى أخذت عنه الرغبة ، وأن البلاغة بلوغ الرجل
يعمارته كنه ما فى قلبه من الاحتراز عن الإيجاز المخل ، والتطويل الممل »^(٢) .

ويعرض فيعرض شروط فصاحة الآلفاظ مفروضة ومركبة على ما بينها ابن سنان الخاجى
في « سر الفصاحة »^(٣) ، وأبن الأثير في « المثل السائر »^(٤) ، وهذه الشروط عده تتراجم
المشارة شروط منها^(٥) .

- تباعد مخارج المعرف لأن « الألفاظ إذا تباعدت مخارجها كانت أحسن من المتقاربة
المخارج ... ومنه استعمال الكلمات العربية غير الحوشية ، ولا المتعرة »^(٦) ، ومن الفصاحة
الاحتراز من الكلام المبتدىء بين العامة ، والاحتراز عن الكلام المغير به عما يكره ذكره ، إلا
أن تتضمن إليه قرينة تصرفه عن المعنى المكره ، فإنه يجب حينئذ استعماله^(٧) .

(١) انظر : جواهر الكثر لابن الأثير من ٢٢ وما بعدها . (٢) المصدر السابق من ٢٤ .

(٣) انظر : سر الفصاحة لابن سنان المخاجى من من ٦٢ : ص ٨٩ / ط . دار الكتب العلمية - لبنان .

(٤) انظر : المثل السائر لابن الأثير ج ١ من ١٠ ، ومقدمة تحقيق كتاب جواهر الكثر للأستاذ الدكتور زغلول سلام . (٥) انظر : جواهر الكثر من من ٣١ : ص ٤٥ .

(٦) والوحشى من اللطف هو غير المستعمل بين قوم معينين دروساً كان اللطف حوشياً بين قوم ، وليس كذلك
بين آخرين .

(٧) تكرره تعالى : « فالذين أمنوا به وعنده وتصوره » الأربعون / ١٥٧ - لفظة التصرير مثناها مكرهه
الما شتم إليها في الآية قرينة : أمنوا . وتصوره ، صار المراد منها التصرير والإكرام ، لا ما يشتم
له في أصلها القوى .

- ومنها الإتيان باللقطة المولفة من أقل الأوزان تركيباً^(١).
- ومن الفصاحة أيضاً - معرفة المعاني وأساليبها على اختلافها وتجابيتها « أي أضدادها » ،
الإتيان بالأسماء المشتركة التي يستخرج منها معنيان تتحابهما ، فيزbin الناظم أو الناثر
كلامه بها ، ويزيد بهجة ، وفصاحة ، وشرط ابن الأثير لذلك التأليف ، والإتيان في الكلام
بما يفهم منه معنيان مختلفان .

ويضع استاذنا الدكتور زغلول سلام - بده على صفات الفصاحة في اللقطة المفردة عند
ابن الأثير ، فيرى أنها تجمع بين صفات حسية ظاهرة ، وصفات معنوية ، ومن الصفات
الحسية تباعد الحروف أو تقاربها ، وتكرارها وتقليلها على الإنسان ، أو كثريتها وطولها ، أو
قصورها وكثرة حركاتها ، ومن الصفات المعنوية غرابيتها وابتداها ، واشتراكها في المعنى^(٢)
فالفصاحة عنده تعنى خصائص جمالية في صوت اللقطة وتوافق حروفها ، وخفتها على الإنسان
ومن علاماتها الشيوع ، لأن الألسنة تطرد الشيول القبيح ، وتنمّس بالخفيف العذب .

وأود أن ألف النظر إلى أن الفصاحة عند ابن الأثير ليست مقصودة على مفردات الألفاظ
بل تكون في الجمل والتركيب ، ويزكى ذلك بقوله : « ومن الفصاحة الجودة في تركيب الألفاظ
وذلك لأن حسن التأليف هو المعتبر في الكلام ، ولا يكتفى بأن تكون الألفاظ في نفسها مليحة
رائقة ، بل لا بد من حسن تأليفها مع آخرتها ، فإن اللقطة والمعنى إذا كانا رائقيين معاً مع
غيرهما من الألفاظ والمعاني تأليفاً غير مرتبطة ، كان ذلك كالحمد الذي أنسدته الناظم في نظمها
فجعل إلى جانب الفص خرزة ، وإلى جانب الرازة صدفة فقد أفسد نظامه . وكذلك لو كان في
الصورة الإنسانية رئيس شخص عن رجله ، أو رجلاء عند رأسه ، أو يداء من صدره ، أو
رجله من كتفه وكانت هذه الصورة غير منتظمة التأليف ، ولا مرتبطة الأعضاء ، ولا مناسبة
الشكل^(٣) .

والمؤلف في عرضه لشروط فصاحة الألفاظ مفردة ومركبة ، يستشهد على كلامه بآيات
الذكر الحكيم ، ويطرّزها بذوق الرفيع ، وبحسه العريق ، وفيه الدقيق .
غير أن الذي يتضح لنا من كلام المؤلف أن جوهر الفصاحة عنده في اللقطة والمعنى مما ،
ولا يصح أن ينفصل أحدهما عن الآخر ، بل هما قربان متلازمان ، تلزم الوجه والجسد ،

(١) كلما كانت الكلمة ثلاثة حروف كانت أرشق من الرباعية ، وإذا كانت رباعية كانت أخف من
الخمسية .

(٢) تاريخ النقد العربي من ١٩٢٠-٦٢

(٣) انظر : جوهر الكلمة من ٤٢

وهو بذلك يوحي في عقولنا قضية اللقط والمعنى ، أو قضية النظم ، وهي قضية قديمة ، كانت مجالاً آخر ورده بين العلماء من عهد الجاحظ إلى عهد الجرجاني ، الذي صاغها ، وسمّاها قضية النظم ، وهو الرأي الذي تبناه ، ودافع عنه في دلاته^(١) فحسبت إليه دون غيره كما أسلفنا في التمهيد .

ويبدو أن المؤلف - هنا - متذكر بتصور العتابي عن اللقط والمعنى (ت ٢٦٣) هـ ، والذين يرى أن الألفاظ للهـ، التي ي Mataة الأجياد للأزواج ، فينبغي أن تتوضع موضعها ، ولا فسست الصورة ، وتغير المعنى ، وفقدت الحسن والجمال ، وسامه ظنها وشان خلقها^(٢) .

وقد كان المؤلف محظياً في اهتمامه الكبير بالمعانى ، لأن البحث البلاغي الذي يقتصر على الألفاظ فقط بحث لا روح فيه ، ولا حياة ، والأجدى بالباحث البلاغي أن يتبع إلى المعانى ، ولا يقف عند البحث في الألفاظ ، ويذهب الاستاذ عباس المقടد إلى أبعد من ذلك في أن الجمال من البلاغة العربية لا يعتمد سهولة الألفاظ ، أو المعانى وحدهما ، بل يكون في الصورة أيضاً^(٣) .

وابن الأثير لم يكتئن أن يتناول البيان بالذكر ، فهو يرى أن مباحثات علم البيان بمتنزه ميزان تعرف به محسن الكلام ، ما رجع ، وما شع ، ومتى إذا عرضت عليه المعانى أبى منها ما فسد ، وما صبح^(٤) .

ويأخذ ابن الأثير في تفصيل علم البيان ، ويرى أن مباحثته هو كلام العرب ، ومحاسنته التي يوصي بها ، وهي جودة الألفاظ وسلامتها ، وبلاغة المعانى ومتkinها^(٥) .

ويؤكد على أهمية علم البيان لكل من نظر في كتاب الله وكلام الرسول ﷺ ، و يجعله شرطاً لاستخراج جواهر المعانى من كنز الآيات القرآنية ، ويقتصر إليه « أى علم البيان » كل من نظر في كتاب الله تعالى ، وكلام رسوله ﷺ إذ كل منها معدن الفصاحة والبلاغة^(٦) .

(١) انظر : تفصيل هذه القضية في : الميزان للجاحظ ١٢١/٢ ، والبيان والتبيين . للجاحظ ولابن الإيجان لميد القافر ٧٧٨ ، والشعر والشعراء ابن قتيبة من ٦٤ ، والذكى في إيجان القرآن للرماني من ٦٦ ، وإن البلقة د . عبد القادر حسين من ٧٤ . ط . نهضة مصر .

(٢) بما هو كلام المتألقي ينسه قوله : الألفاظ أجساد ، والمعانى أزواج ، وإنما تراهما بين التوب ، فإذا قدمت منها مؤثراً ، أو أخرت مقدمها ، ففسست الصورة ، وتغيرت المضى ، كما لو حول رأس إلى موضع يد ، أو إلى موضع رجل ، لتتحول الخلقة ، وتغيرت الخليقة .

انظر : المستشرق ابن حبان المسكري من ١٦١ .

(٣) انظر : مراجعات في الأدب والفنون . الاستاذ عباس محمود المقടد من ٧٨ وما بعدها ، ط دار الكتاب العربي / بيروت سنة ١٩٦٦ م .

(٤) • (٥) : انظر : جواهر الكثر من ٤٦ / ٤٧ / ٤٦ على الترتيب .

وربما كان هذا القول أخطر ما في هذا الباب ، وأعظم أثراً على اللاحقين ، وأقرب نسبياً إلى بحثنا ، بالرغم من وقته التصويرية مع علم البيان ، وينتقل بنا المؤلف من علم البيان إلى علم البديع ، فيعرفه لغة واستعمالاً بقوله : هو عبارة عن الأفاظ المستطرفة التي توجد في محاسن الكلام . ويقال كلام بديع ، وكلام مفترع ، فالبديع يختص بمحاسن الأفاظ ^(١).

و واضح أن البديع عند ابن الأثير هو الإبداع ، أي الإتيان بشيء جديد ، ويرى أن أول من سمي هذا النوع بديعاً هو ابن المعتز ، الذي ألف فيه كتاباً ، ولم يضمنه من أنواع البديع إلا خمسة أبيات ... واقتسمه وأتواءه المخصوصة من آفواه العلماء ، وما زاد عن ذلك فهو على سبيل التكرار ، وإن كان من أرباب هذا العلم من سمي أنواعاً آخر من هذا النوع باسم ، فهو على سبيل تكرار الأسماء المعنى الواحد ^(٢).

وهذا الكلام يعني أنه لا ينترف بما تزيد فيه علماء البديع كابن أبي الإصبع الذي بلغ بها في تحرير التخيير ، مائة وخمسة وعشرون نوعاً .

ويلاحظ ابن الأثير التداخل والاضطراب بين أبيات البيان والبديع فيما صنفه السابقون ، ويشير إلى ذلك التداخل بقوله : ثم إن من علماء البيان من ذكر في مصنفات أبياتاً ، وعددها من البيان ، و منهم من عد تلك الأنواع يعنيها في مصنفات من البديع ^(٣) ، ولهذا السبب صار التفريق بين النوعين أمراً متعرضاً .

ومهما يكن من شئين فإن ابن الأثير قد وقع في نفس ما لاحظه على السابقين ، ولذلك فهو يعود ، ويلتسع لهم العذر ، ويعذر ما فعلوه ويعللها لأنه ما من باب إلا له تعلق باللقط والمعنى ، فمن أين يظهر لنا الفرق بين النوعين ^(٤) .

ثم يعدد أنواع البديع - وهي كما تقدم - سبعون نوعاً منها : الحقيقة والمجاز ، والاستعارة ، والتشبيه ، والأوصاف والتعمّت ، والمطابقة ، والمقابلة ، والجناس ، والكتابة ، والتعريف والتورية ، وشجاعة العربية إلخ . تكتفي بعرض ما يخص البحث من علوم البيان .

(١) انظر : جيهر الكثر من ٤٨ ، ورورت كلة ، بديع في القرآن بمعنى : الطريق الذي يلقي النظر كلوك تعالي ، بديع المسوات والارض ١١٧ / البقرة . وفي الحديث روى بمعنى : الصيرة كقوله صلى الله عليه وسلم : كيف أصنع بما أبدع على منها ، انظر : المثل السائر لابن الأثير ٦٦٧/١ ، والسان ، والصياغ مادة : بداع .

(٢) جيهر الكثر من ٤٩ . (٣) انظر جيهر الكثر من ٤٨ .

(٤) المصدر السابق : نفس المتنجة

يصل المؤلف الحديث عن أنواع البدع بادئاً بالحقيقة والمجاز ، ويرجح المقدمة على المجاز في أول أمره ، لأن الأصل في الإطلاق المقدمة ، ولا تؤول بالمجاز إلا لضرورة تدبر إلى ذلك^(١) ثم يعود ليجعل المجاز أولى من المقدمة في غالب الكلام لتنوع محسن الانفاظ والمعانى كالاستعارة والكتابية والتشبیه^(٢).

ثم يمضي المؤلف ويقسم المجاز على طريقة علماء الأصول ، وذكر منها : مجاز الزيادة والنقصان ، وتسمية الشيء ببعضه ، وبذواعيه ، وباسم أصله ، وبمكانه ، وبقائه ، وإطلاق اسم المطلق على المقيد ، وهو ما يسميه إطلاق العام وإرادة الخاص ، وما درج البلاطين على تسميته : إطلاق الكل على الجزء ، لأن العام هو الكل ، والخاص هو الجزء^(٣).

ويشاربه في أقسامه لل المجاز إلى حد كبير - العز بن عبد السلام ، والخطيب القزويني في الإشاح ، وأبن الأثير يكتفى بتناول القرآن الكريم دون غيرها ، ويجمل أحكام المجاز ، ويعرضها باختصار شديد من غير تعقيد أو تفريع ، لأنه لا يميل إلى التفريعات المنطقية ، والإيرادات الفلسفية النظرية كما فعل علماء المشرق كالرازي والسكاكيني ومن دار في فلكهم ، بل إنه يضرب مثلاً من إيرادات كثيرة منهم ، مع الإشارة إليها عرضياً . فهو لا يريد أن يشغل القارئ ، ومتعلم البلاطة بشيء نظرية مقلية ترهل به في قضايا مجردة ، وتتجدد عن النس ، وواقع الجمال المعنى والمعنى فيه^(٤).

ثم يعرض المؤلف لأبواب المجاز ، وبدأ بالاستعارة ، وهي عنده من أقسام البدع^(٥) ويعرّفها على طريقة الرازي ، وأبن أبي الإصبع ، ويرى أنه كلما ازداد التشبيه خفاً ازدادت الاستعارة حسناً كما فعل صاحب الطراز ، ويعنى ذلك أنه لا يقبل الاستعارة المبتلة ، لأنها تكون قيمة ، ولا يستحسن الاستعارة المبنية على استعارة أخرى^(٦) . وكلما كان المستعار وأضحاً يمكن إدراكه بأكثر من حاسة كان - في نظره - أحسن بياناً ، ومثل لذلك بالفصاحة والظلة^(٧).

(١) (٢) المصدر السابق من ٥١

(٣) نفس المصدر من ٥٤

(٤) انظر : ملحة تحقيق جواهر الكنز لاستاذنا الدكتور زغلول سلام من ١٧

(٥) وقد جملها بعض علماء البيان من باب البيان كالتشبیه ، واعتبروها بعضهم من المعانى والبيان لأنها تجمع المجاز إلى التشبيه .

(٦) انظر : جواهر الكنز من ٥٦

(٧) فتال : والقصة ظهر في الصحن منظلمة ، فإنظلمة ترك يماسة البصر فقط ، والقصة ترك يماسة البصر والمس . انظر : جواهر الكنز من ٥٩ .

ثم يتناول التشبيه ، ويذكر حده ، ويفرق بينه وبين الاستعارة ، ويميل إلى الرأي القائل بجازية التشبيه ، ويذكر حده ، وهو ما عليه جمهور علماء البيان ، وهو الأصح^(١) .

ويقسم التشبيه من حيث الآداة إلى بلية وغير بلية على طريقة ابن الأثير الجزى ، وابن أبي الإصبع ، ويقسمه من حيث المشبه والمتشبه به إلى : أربعة أقسام من حيث الصورة والمعنى ، والإفراد والتركيب .

والجديد في هذا الموضوع أن المؤلف الحق بالتشبيه ما أسماء بالأوصاف والتنوع ، ويفرق بينهما بقوله : « إن الوصف إخبار عن حقيقة الشيء ، وأن التشبيه مجاز وتشليل ، وأحسن الوصف عنده ما ثبت به الشيء حتى يكاد يماثله عياناً للسامع^(٢) ، وهو في ذلك يجري مجرد ابن رشيق في المعدة^(٣) .

ويرى صاحب الكتاب على الجانب التطبيقي ، والاستشهاد بالنصوص القرآنية ، والشعرية ولا يكتفى من الشعر بشاهد واحد كما يفعل مع القرآن ، وإنما يورد جملة منها ، لدرجة أنه أسرف في ذلك كل الإسراف .

ومن الحق أن يقال : إن المؤلف يميل في شواهده إلى الوضوح ولا يختار الخفي الخامض الذي يرافق المقارىء ، ويتبينه في فهمه ، وإن ذلك نراه يميل إلى الشواهد القريبة من عصره . وما يذكر اتجاه الكتاب الأدبي أن مؤلفه يضع بين أيدينا كثيراً من النصوص والمعارف الأدبية ، مما يجعل جوانب من صور العصر الأدبية ، فالكتاب حاصل بالنصوص الشعرية المتأخرة ، بعضها منسوب لأصحابه ، وبعضها غفل .

وسمة الوضوح سمة غالبة على منهج عماد الدين ابن الأثير ، سواء كان ذلك في تلمس أسباب الجمال ، أو اختياره لشواهد ، وهذا الملحوظ بلح علينا في بقية أنواع البديع التي يتناولها .

ولعل آرين مجهود بذلك ابن الأثير ، ذلك الباب الطريف الذي عقده لكتابية ، فهو يحاول في عرضه لهذا الباب أن يصل إلى علة جمالية لكتابية فيقول : « والكتابية من الاكتنان ، وهو الستر وحدها ، ذكر الشيء بواسطة ذكر لوازمه ، ووجود اللازم يدل على وجود الملازم عند

(١) انظر : جواهر الكنز من

٦٠ ٧١ (٢) انظر : المصدر السابق من

٢٩٤/٢

التساوي ، ومعلوم أن ذكر الشيء مع دليله أوقع في النفس من ذكره لا مع دليله ، ولهذا كانت الكتابية أبلغ ^(١)

ويورد المؤلف اختلاف علماء البيان في الكتابية ، ومن عددها منهم حقيقة كالغفر الرازي ، ومن جملها من ياب المجاز ، وهم جمهور علماء البيان ، ومن قال إنها لفظة يتضاد بها جانبيان : حقيقة ومجاز كضياء الدين ابن الأثير ، ونقله عنه صاحب الطراز ، واحتسبوا على ذلك بقوله تعالى : « أَنْ لَا تُمْسِنَّ النَّسَاء » ^(٢) ، وأما من لم يحكم فيها بحقيقة ولا مجاز ، فابن سنان الخناجي ، وأبو هلال العسكري والقاشاني ، وقسم الكتابية إلى تمثيل ^(٣) وإرداد ^(٤) والتبيع ^(٥) وتعريف وألغاز .

وعلى الرغم من أن نجم الدين بن الأثير قد انتفع بما ذكره السابقون في الكتابية وسار على نهجهم ، غير أن الملحوظ أنه كان في معظم أبياته أكثر وضوحاً ، وأشد صراحة ، لكنه مال إلى التعقيد في أقسام الكتابية ، فالكتابية وإن كانت تتسم بالبساطة والخفاء ، إلا أن ذلك يجب أن يكون بعيداً عن الفوضى ، والألغاز الذي يتمثل فيه الفهم ، ويجعل الطريق شائكاً غير معبأ فيؤدي إلى فهم الكلام على غيروجهه الصحيح ، والافتضال أن تكون الكتابية سهلة قربة التناول ، لأن جمالها راجع إلى التقرير ، والتجمسيم ، ولهذا كانت أبلغ .

(١) انظر : جوهر الكفن من ١٠٠

(٢) سورة س آية : ٢٢ ، قالوا : إن الآية يجعل حملها على الحقيقة والمجاز ، وكل منها يصح به المعنى ولهذا ذهب الشافعى إلى أن القسم مصادقة الجسد الجسد ، وذهب غيره إلى أن المراد بالمس الجماع ، انظر : الفرز بن عبد السلام - حياته وكتاب الإشارة إلى الإيجاز من

(٣) وهو التمثيل على سبيل الكتابية .

(٤) والإرداد : أن تذكر شيئاً ، وتذكر معه ما هو دليل عليه ، ورديف له ، كقوله تعالى « ومن أظلم من افترى على الله كتاباً أو كتب بالحق لما جاءه » المتكوب / ٦٨ ، قوله : كتب بالحق لما جاءه كتب به عن ضعف العقل .

(٥) التبيع : حقيقته : العدول عن اللفظ المراد من المعنى الناصح به إلى لفظ هو ورقه ، كقوله تعالى :

« واستترت على اليهودي » هود / ١١ ، قوله الشاعر :

وقد أتنيكى والثقيف في كتابتها . يشتكي في الأزيد ميكى . انظر : جوهر الكفن من ١٠٥

والعجب منه أيضًا - أنه لا يفرق بين الكتابة والتربيه مطلقاً لذلك يقوله : « إن التربيه ذكر لفظ له معنيان ، والكتابه كذلك ، وما قال أحد من العلماء بالفرق إلا أن التربيه أفردت ، وصار الناس يلهجون بذكرها في محاوراتهم ، ونظمهم وشرفهم ، ويستحسنون لفظها ، فصارت كائناً غير الكتابة »^(١).

وهذا مخالف لرأي البلاغيين ، لأن التربيه إرادة المعنى البعيد من اللُّفَظ ، أو إرادة أحد المعنيين للفظ معين ، وهو المعنى المختفى ، ويتحقق بها باب الألغان .

ويمضي المؤلف بعد ذلك في استعراض أنواع البديع المختفية التي سبق ذكرها ، وحرفيًّا بنا أن ننسك عن ذلك خشية الإملال .

ثم يعرض المؤلف لأبواب في موضوعات الشعر ، كالنسيب والافتخار والرثاء ، وينطلق من الرثاء إلى الإغراء ، والتحرير ، ثم الحكم والأمثال ، والعتاب والاعتذار ، والزهد .

وينتهاء الكتاب بباب خاص في صياغة الإنشاء ، وهو حل الشعر ، وحل الآيات القرانية^(٢) وهو في ذلك كله يعتمد على كثير من علماء البلاغة السابقين كالرماني وأسامة بن منقذ ، وأبن رشيق ، وعبد القاهر ، والرازي ، وأبن الأثير الجوزي ، وأبن أبي الإصبع ، والطبراني .

و واضح من منهج المؤلف في كتابه أنه لم يجعل كتاباً مختصاً لكتب وآراء السابقين ، وإنما أراده كتاباً جامعاً لفنون الأدب ، وعلوم البلاغة ، على غير نهج سابق ، وصورة مضيئة للذوق الفنى في القرنين السابع والثامن فى مصر والشام^(٣) .

وقد انتفع بالكتاب جماعة من علماء القرن الثامن منهم : السبكي الذى نقل عنه كثيراً في عروس الأفراح ، وأبن حجة الحموى ، في خزانة الأدب .

(١) انظر : جوهر الكثر من ١١١

(٢) وذلك على غرار ما فعل شيخ الدين بن الأثير في « المثل السادس » و « حل المنظوم » .

(٣) انظر : بتصوف . مقدمة التحقيق للأستاذ الدكتور زغلول سلام من ٥٧ - ٦٠ - ٨ - ٢٦٢-

الفصل الخامس

المفسرون والاصوليون

- * ابن جزي الكلبي
- * البيهقي اowi
- * النسفي
- * الخازن
- * ابن حشيش
- * ابن عبد السلام
- * ابن القين الجوزي
- * الزركشي

المبحث الخامس المفسرون والاصوليون

المفسرون هم الذين ينظرون في كتاب الله - تعالى - فيفسرون الفاظه ، ويوضحن معانيه ، ويبينون مقاصده وأدلهه ، ويشرحون ما فيه من قيم رفيعة ، ونظرات عميقة ، ويظهرون فنون القول وبراعة البيان ، وعجز العرب ، وقوفهم أمام بلاغته مبهورين .

ولقد كان للمفسرين تأثير كبير في تعمية البيان ، والكشف عن أسراره ، وبخاصة بيان القرآن ، لتناولهم آياته ، وإبراز ما فيها من جمال فني ، وبراعة أخلاقية ، حتى نرى البلاطين فيما بعد يستشهدون في مباحثهم البلاغية بامثلة من القرآن الكريم سبقهم إليها المفسرون في الاستشهاد بها .

ولا غرابة في ذلك ، فمعرفة الناطق القرآن الكريم وفهم معانيه ، وإدراك أغراضه وأبعاده هو الهدف الذي يرمي إليه المفسر ، ولا يمكنه أن يقف على ذلك إلا إذا كان على قدم راسخة في علوم البلاغة ، ليتندى إلى أسرار القرآن ويغوص على معانيه ، والبلاغة إحدى الوسائل المهمة التي تكشف أسرار الإعجاز ، وتترجم الآيات التي يمكن حملها على الظاهر ، ولقد نمى السكاكي على المفسر الذي لا يعرف من البلاغة شيئاً فقال : «الوقف على تمام مراد المكيم - تعالى وقدس - من كلامه مفتقر إلى هذين العلمين - المعانى والبيان - كل الافتقار ، فالويل كل الويل لن يتعاطى التفسير وهو فيها راجل »^(١) . واعتبر العلوى المفسر مقتضاً إذا قصر نظره في تفسيره على معرفة المعانى الإعرابية ، وبيان مدلولات الألفاظ الوضعية لا غير ، من غير بيان ما تضمنه من أنواع الفصاحة والبلاغة ، وتقرير مواقعها الخاصة ^(٢) .

ولم يحيط هذا المبحث بجميع المفسرين في الفترة الزمنية التي تناولناها ، وإنما اكتفيت فيه بالذين انحصرت جهودهم في التفسير ولم يكونوا أصحاب اتجاه ينتهيون به ، وهناك آخرين أولئكهم عنابة خاصة في مباحث سبق الإشارة إليها كابن المنيب مع النقاد والأدباء ، والأندلسي والسمين الطببي مع الفوقيين والتحمة .

وبالإضافة إلى جهود المفسرين في بناء صرح البيان ودعم أركانه والنهوض به يأتي دور الأصوليين مشرقاً في ذلك الجانب أيضاً ، وقد يسأل سائل كيف دلت الأصوليون إلى المباحث البينانية ، وهم أصحاب المسائل الفقهية القائمة على الأدلة المستتبطة من الكتاب والسنة ؟

(١) مفتاح الطريق السكاكي . من ٧٧ . (٢) الطراز الطوري . ج ١ . ص ١٣ . - ٢٦٥ -

نقول : إن دراستهم للقرآن الكريم يهدف استنباط الأحكام الشرعية اضطرتهم إلى الوقوف على أساليبه ، وفهم أبعاده ومراميه ، وما فيه من خاص وعام ، وحقيقة ومجاز ، وغيره من الأقسام التي تحصل اتصالاً وثيقاً بالبلاغة العربية ، وتبرر جهودهم البشارة بأكثر من القرن السابع والثامن من الهجرة^١ حتى نرى السبكي يصرح في مقدمة أنه مرج في " عروسه " البلاغة بالأصول قال : « وأعلم أنني منجزت قواعد هذا العلم - البيان - بقواعد الأصول والعربية ، وأعلم أن علمي أصول الفقه والمعانى في غاية التداخل ، فإن الخبر والإنشاء اللذين يتكلم فيما المعانى مما موضع غالب الأصول ، وإن كل ما يتكلم عليه الأصولى من الأمر والنهى والعلوم والتخصص والإطلاق والتقييد ، بالإجمال والتفصيل كلها ترجع إلى علم المعانى ... فإن قلت : أين كان هذا العلم في زمن الصحابة الذين يعرفون أسرار العربية ، وانكشف لهم أوجه الإيمان ؟ قلت : كان مرتكزاً في ملابسهم »^٢ .

وكان تعرُّض الأصوليين لكتير من مباحث علم المعانى ، فقد كان لهم صولات وجولات في ميدان البيان ، وأثر بارز لا يمكن إغفاله في هذا المجال ، ولهذا صدق القائل : « إن الأصوليين قد بحثوا مسائل من البيان صارت من أهم ما تبحث كتب الأصول وتعنى به »^٣ .

ولعل السبب في ذلك هو كثرة مطالعتهم في القرآن الكريم لاستنباط الأحكام الفقهية ، وذلك دعاهم - بطبيعة الحال - إلى الوقوف على الأسرار البشارة للقرآن ، وما فيه من جمال ، وما يحويه من لفاظ دقيقة لها مدلولاتها الخاصة ، ومعاناتها المحددة .

(١) انظر : عروس الأفراح السبكي . ٢٧/١ . ٤٣ .

(٢) المصدر نفسه : ٢٩٨/٢ .

كتاب، التسهيل في علوم التنزيل، لمحمد بن أحمد بن جزى الكلبي^(١)

إن القاريء لكتاب «التسهيل» يتأكد لديه أن ابن جزى مفسر له مكانته الخاصة وشخصيته المستقلة التي تجمع بين الأصالة والتجدد . وما يزيد من قيمة الكتاب العلمية أن مؤلفه ابتدأ بمعتمدين : الأولى : في أصول التفسير وقواعده ، وما يتطرق به من علوم القرآن ، وقد جعلها في اثني عشر باباً^(٢) ، والمقدمة الثانية : وهي مقدمة ثورية خاصة بالآفاظ التي يكثر دورانها في القرآن ، وهذه المقدمة بمثابة معجم مصغر للفاظ القرآن^(٣) .

وتفسير ابن جزى ينفرد بهما عن المقدمتين من بقية كتب التفسير ، وإن كان سبقه فيما ذكره من المقدمة الأولى ، أبو حيان الأندلسي ، غير أنه قد انفرد عنه بما تكلم فيها عن أمور لم يسبق بها مثل الباب الذي عدته لفنون العلم التي تتصل بالقرآن ، وانفرد عن الجميع بمعتمدته الثانية التي استقل بها من غيره ، وهذا يدل دلالة قاطعة على أن ابن جزى كان صاحب حس واتجاه فريد ، وأن هذا الاتجاه جعله أساساً قوياً من الأسس التي بني عليها ابن جزى منهجه في التفسير ، واعتمد عليه اعتماداً كبيراً في تناوله للقرآن .

ذكر المؤلف في هذه المقدمة الكلمات التي يكثر دورانها في القرآن ، أو تقع في موضوعين فأكثر من الأسماء ، والأفعال والحراف ، وجمعها في هذا الباب ثلاثة فوائد :

١ - تيسيرها لحفظ .

٢ - ليكون هذا الباب كالأصول الجامعة لمعنى التفسير .

٣ - الاختصار ، ليستفيء بتذكرها هنا عن ذكرها في مواضعها من القرآن خوف التطويل بتذكرها ، ورثتها على حروف المجم ، وبنية القاريء إذا لم يجد تفسير كلمة في مواضعها من القرآن أن ينظر في هذا الباب . وهذا عمل رائع من المؤلف ، ولو أن كل مفسر قام بعمل معجم لتأليفه ، لازاح قرأمه من الرجوع إلى كتب المعاجم المختلفة .

ومن أمثلة هذا الباب الذي يبين منهجه في ذلك لفظه «أمة» قال : ولها أربعة معان : الجماعة من الناس ، والدين ، والحين ، والإمام : أي الفورة^(٤) .

(١) انظر ترجمتي في : نهاية الابتهاج في تطريب الديباج للشيخ محمد بن نعيم التبيكي . من ٢٢٨ . على هامش الديباج للذهباني ابن فرحون ط ١ . سنة ١٢٥١ هـ مصر . والإحاطة في اختيار غرناطة السان الدين بن الخطيب . تحقيق محمد عبد الله عذان ٢/٣ . الفاتحية القاهرة سنة ١٢٩٧ هـ . ويحمل المؤلفون لرسانة كمالاً . ١١/٩ . الدار الترقي - دمشق .

(٢) انظر : كتاب التسهيل لعلوم التنزيل لابن الكلبي . ج ٤ : ١٥ . ط دار الكتاب العربي - بيروت .

(٣) نفسه : ج ٤ : ١٦ .

-٢١٧-

أنا التواحي البلاغية فالكتاب مملوء بها من بيان وبيان ويدعى ، وأفرد في مقدمته باباً كاملاً لعلم البيان يقول : « وأما علم البيان فهو علم شريف تظهر فيه فصاحة القرآن ، وقد ذكرنا منه في هذا الكتاب فوائد فاتحة ، ونكت مستحسنة رائعة ، وجعلنا في المقدمات باباً في أدوات البيان ليفهم ما يرد منها ملزقاً في مواضعه من القرآن »^(١) .

ونخصمن المؤلف الباب العاشر من مقدمته في الفصاحة والبلاغة ، وشروط كل منها ، ثم نتكلم عن صناعة البديع ، وأفاد بأنه وجد في القرآن اثنين وعشرين نوعاً منها ثم أوردتها وعرفها ، غير أن تعريفه لبعضها جاء تافراً في بعض الأحيان .

أما المجاز فيمترف المؤلف يوجد في القرآن ، وعرف المجاز قوله : هو اللفظ المستعمل في غير ما وضع له علاقة بينهما ، ثم ذكر أنواعه ، وأردف قائلاً : واتفق أهل السنان ، وأهل الأصول على وقوع المجاز في القرآن : لأن القرآن نزل بلسان عربي ، وعادة فصحاء العرب استعمال المجاز ، ولا وجه لمن منعه ، لأن الواقع منه في القرآن أكثر من أن يحصى ،^(٢) .

ومكذا تجد ابن جوزي يؤكّد هذا المعنى عند قوله تعالى : « وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ يَشَاهِدُهُ »^(٣) ، يقول : مجاز ياتفاق ، وفيه دليل على وقوع المجاز في القرآن خلافاً لن منه ، وفي أسباب الترجيح التي ذكرها في مقدمته يقول : الثامن : تقديم الحقيقة على المجاز ، فإن الحقيقة أولى أن يحمل عليها اللفظ عند الأصوليين ، وقد يتراجع المجاز إذا كثر استعماله ، حتى يكن أغلب استعمالاً من الحقيقة ويسمى مجازاً راجحاً والحقيقة مرجوحة ،^(٤) .

وقد اختلف موقف ابن جوزي بالنسبة لترجيح الحقيقة على المجاز أو العكس ، فتارة نراه يرجح الحقيقة ، وتارة يرجح المجاز ، وتارة يذكر الاحتالين دون ترجيح ، وإن كان الغالب عليه ترجيح الحقيقة ، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى : « يَقُولُ لِجَهَنَّمَ كُلُّ أَمْلَأٍ تَنْقُولُهُ مَلِئَةٌ مِّنْ أَمْلَأِهِ »^(٥) ، يقول : الفعل مستند إلى جهنم وقيل إلى خزنتها من الملائكة ، والأول أظهر ، واختلف هل تتكلم جهنم حقيقة أو مجازاً بلسان الحال ، والاظهر أنه حقيقة ، وذلك على الله يسيراً ،^(٦) .

ومن ترجيحه للمجاز على الحقيقة بقرينة السياق ما ذكره ابن جوزي في قوله تعالى :

« وَمَنْ تَرَجَّحَهُ عَلَى الْحَقْيَقَةِ فَإِنَّهُ إِلَيْهِ أَنْتَنِي قَدْ مَكْتُوبٌ »^(٧) ، يقول فيها ثلاثة

(١) نفس : جـ ١ ، من ٧.

(٢) التسهيل في علوم التنزيل ، ١٢/١ .

(٣) البقرة : آية [٧] .

(٤)

(٥) إيه [٢] .

(٦) التسهيل في علوم التنزيل ، ٩/١ .

(٧) إيه [٨] .

أقوال :

الأول : أنها عبارة عن تمايمهم على الكفر ومنع الله لهم من الإيمان فتشبيهم بمن جعل في عنته غل يمنعه من الانتفاث ، وغطى على بصره فصار لايرى .

الثاني : أنها عبارة عن كفهم عن إذابة النبي حين أراد أبو جهل أن يرميه بحجر فرجع عنه فرغاً مرجوعاً .

الثالث : أن ذلك حقيقة في حالهم في جهنم ، والأول أظهر وأرجح ، قوله : « قَفُّمْ لَأَيْقِيْنُونْ » ، وقوله : « قِسْوَةَ عَلَيْهِمُ الْتَّذْرِقُمُ أَمْ لَمْ تَنْدِرْكُمْ لَأَيْقِيْنُونْ » (١) ، وابن جزي في هذا الرأي يجري مجرى الطبراني والزخشري ، وأبي حيان ، وابن المنير ، وابن كثير (٢) .

ويزوج المؤلف أحياناً بين المجاز والمبالغة كما في قوله تعالى : « فَمَا يَكُثُرُ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ » (٣) . ذكر فيها أقوالاً المرجح فيها قوله : إنه عبارة عن تحريفهم ، وذلك إذا مات رجل خطير قاله العرب في تعظيمه يكت عليه السماء والأرض على وجه المجاز والمبالغة ، والمعنى : أن هؤلاء ليسوا كذلك : لأنهم أحقر من أن يبالي بهم ، وبعد أن نظر المؤلف القولين عاد فقال : والأول أقصى ، وهو متزوج معروف في كلام العرب (٤) .

والجاز عند ابن جزي أنواع كثيرة منها : التشبيه والاستعارة والزيادة ، والقصاص ، وتنمية المجاز باسم المجاورة والملابس باسم ملابسه ، والكل ، وإطلاق اسم الكل على البعض ، وعكسه وتنمية باعتبار ما يستقبل ويعتبر ما مضى .

أما التشبيه فقد تكلم عليه ابن جزي بنوع من البسط كلما تعرض لأية من آيات القرآن تضمنت معنى التشبيه ، ونكتفي في ذلك بما ذكره في قوله تعالى : « كَعَصْبَيْ مَكَحُولٍ » (٥) يقول : العصف ورق الزرع وتبته ، والمراد أنهم ساروا رميماً ، وفي تشبيههم به ثلاثة أوجه :
الأول : أنه شبيهم بالتين إذا أكلته الدواب ، ثم رائته ، فجمع الثلث والخمسة ، ولكن الله كفي عن هذا على حسب أدب القرآن .
الثاني : أنه أراد ورق الزرع إذا أكلته الدود .

(١) س : آية [٨] .

(٢) التسهيل في طور التنزيل . ٦٤/٢ . وانظر : تفسير الطبراني . ١٩/٢٢ . والكتاف . ٣٥/٣ .

والبحر المحيط . ٣٤/٧ . وتقدير ابن كثير . ٤٩/٧ . وجاء كلام ابن كثير أدق وأعمق لاستشهاده بالقرآن والشعر .

(٣) الصخان : آية [٢٦] .

(٤) التسهيل : ٣٦/٤ .

(٥) الليل : آية [٥] .

٢١٩-

الثالث : إن أراد كمحض متكلل زرعه ويقي هو لاشيء^(١) .

ويحدثنا ابن جزي حديثاً سريعاً عن الاستعارة التي عدها من المجاز ، فهو يذكر المعنى المجازي ، أو المعنى العام للأية ، ويشير إشارة سريعة إلى الاستعارة ، دون أن يفصل أين وقعت هذه الاستعارة ، ويمثل ذلك قوله تعالى : « وافتغل الرأس ثنياً »^(٢) يقول : استعارة الشيب من اشتغال النار ، وكلام المؤلف هنا - في غاية الاختصار^(٣) مع أن السابقين على ابن جزي أجابوا في بيان المطافن البلاغية في هذه الآية بما لا يكاد نحصره في هذا المجال . ونرجي ذلك إلى الباب التطبيقي من البحث ، ونلحظ كذلك أن ابن جزي اختصر عبارة الزمخشري . وقد نوه ابن المباري بكلام الزمخشري في الآية من حدث البلاغة ، وقرر أنه يستحق من علماء البيان أن يكتبه بذوب التبر ، لا بالحبر^(٤) .

أما الكتابة فيعبر عنها ابن جزي - غالباً - بقوله : عبارة عن كذا ، وهو في هذا شديد الإيجاز والاختصار ، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى : « أَنْجَاهُ أَخْدَى مِنْكُمْ مِنْ أَقْنَاطِي »^(٥) . يقول : القائل : أصله المكان المنخفض ، وهو هنا كتابة عن الحديث الشارج من المخرجين ، وهو العترة والربيع ، والبلول ، لأن من ذهب إلى المانع يكون منه هذه الأحداث ثلاثة^(٦) .

ويفسر ابن جزي أحياً بعض الآيات التي وردت فيها الكتابة على ظاهرها ، كقوله تعالى : « كَاتَأَ يَكْلُلُنَ اللَّعَامَ »^(٧) ، ويرفض المؤلف أن تكون الآية كتابة عن الاحتياج إلى القائل ، لعدم الصدور الملجنة إلى ذلك^(٨) .

ويالرغم من أن ابن جزي يجعل الكتابة من جنس المجاز ، فإنه أحياً يخالف ذلك ويجعلها من جنس الحقيقة .

ومن خلال تتبع الدقيق لابن جزي نراه يخلط بين فروع علوم البلاغة الثلاثة ، وهذا يجعلنا نقر بأن علم البلاغة حتى عهد ابن جزي - وبخاصة في الأندرس - لم تستقر مصطلحاته على ما تعرفها اليوم ، وربما ذلك أحد الباحثين^(٩) بأن هذا يتضمن من مقدمته الإجمالية ، كما يتضمن من سرده لآدوات البيان حسب تسميته ، ففيه يتكلم عن الجنس والطباق والمشاكلة ، وهي من علم البديع ، إذ به يتكلم على التتميم ، والتكرار والتهمك ، وهي من علم المعاني^(١٠) .

(١) التسهيل : ٢٦٨/٤ .

(٢) التسهيل : ٢/٢ .

(٣) الكتاب : ٤٣١/٢ .

(٤) المائدة : آية [٧٥] .

(٥) التسهيل : ١٤٣/١ .

(٦) المائدة : آية [٧٥] .

(٧) التسهيل : ١٨٤/١ .

(٨) لنظر : التسهيل : ١٨٤/١ .

(٩) لنظر : ابن جزي ومتوجه في التسهيل : من ٥٣ . الدكتور محمد الزيدى . طب الرواشر سنة ١٩٨٦ .

كما تلاحظ - كذلك - أن ابن جزي حصر أنواع البيان ، وصناعة البديع الموجودة في القرآن في اثنين وعشرين نوعاً ، وهو حصر ناقص : لأن ابن أبي الإصبع - كما من - أوصلها إلى تسع وعشرة نوع في كتابه « بديع القرآن » ، كما لم يشر ابن جزي لبعض أنواع المعايير والبديع المشهورة كالتنبيه ، والتورية ، ومع أن ابن جزي ذكر بعض أنواع البديع في مقدمته كالجناس ، والالف والنشر ، غير أنه قد يغفل ذكر ذلك أثناه تفسيره .

ونلاحظ - كذلك - على المؤلف عدم دقة في التعريفات لبعض أنواع المحسنات البديعية التي أوردها في مقدمته كالتكرار مثلاً^(١) .

وتعرض ابن جزي للقضية إعجاز القرآن ، وأيان رأيه في المقدمة في الباب الحادي عشر الذي عَنِّي له بقوله : إعجاز القرآن وإقامة الدليل على أنه من عند الله عن وجہ ، ودليل على ذلك بعشرة أوجه منها : فصاحته التي امتاز بها عن كلام المخلوقين ، ونظمه العجيب وأسلوبه الغريب ، من قواعط آياته وقوام كلماته وذكر أن هذا الباب مفید للمتلهي فضلاً عن المبتدئ^(٢) .

ويرغم اعتماد المؤلف في تفسيره على علم أصول الفقه كأساس إلا أنه يختصر كثيراً كلام الزمخشري ، وينقل عن « المحرر الوجيز » لابن عطية ، واعتمد كذلك على « التك والعيون » للحاوردي ، والحجۃ لأبي علي الفارس ، ولا غير إذن أن نجد فنون البلاغة متباشرة في تفسيره : لأن مصادرها فيما نرجح تفسير الزمخشري ، وتفسير ابن عطية ، ومنهاج البلاغ ، أضاف إلى ذلك ما استفاده من كتاب العمدة ، لابن رشيق ، فقد كان مشهوراً عند أهل المذهب والأندلس .

وإذا صبح ما أدعاه ابن خلدون من أن المشارقة على هذا الفن أقوم من المغاربة ، فإن هذه المدعى - على أية حال - لا تنفي أن يكن بالقرب أو بالأندلس علماء ميزين في هذا الفن ، لأن حكم ابن خلدون على الأعم الأغلب ، وكل قاعدة شواذ بدليل أن الزركشي عندما تكلم على من صنف في هذا الفن قال : وأجمعها ما جمعه ابن القبب ، وما صنفه حازم السمسي « منهاج البلاغة وسراج الأدباء » : وحازن من شيخوخ أبي حيان ، ومن شيخوخ مشائخ ابن جزي .^(٣)

(١) انظر : التسهيل : ٦٤/٦ (٢) المصدر نفسه : ٦٣ .

(٣) انظر : البرهان في علم القرآن : ٢١١/٦ .

وهناك جهود أخرى لدى طائفة المفسرين ، لم تفرد لها بالدراسة لكونها تلخيصاً وتكراراً لما سبق ، ولأنه ليس فيها غنى من الناحية البينانية ، وإن كثنا أن ننقل بعض ملاحظاتهم في الجانب التطبيقي من هؤلاء المفسرين : البيضاوي ، والنسيفي ، والخانن وابن كثير .

أما البيضاوي المتوفي (٦٩١ هـ) فاختصر تفسيره من الكشاف للزمخشري ، واستمد من التفسير الكبير للرازي ، ولا نعدم في تفسيره من النكت البلاغية ، والاستنباطات الدقيقة بأسلوب موجز ، وبعبارة ناصعة ، ويرغم أن الكتاب اختصار له سبقه إلا أنه رُقِّ القبيل فعُكِّفَ القدماء عليه دراسة وتحشية .

و جاء من بعده النسيفي المتوفي (٧٠٢ هـ) (١) فاختصر تفسيره من البيضاوي وال Kashaf ، لدرجة لا يستطيع فيها الباحث من التمييز بينه وبين الزمخشري فالذكرة هي هي ، ولم يأت بجديد سوى اختصار لمباراته ، وترك ما فيه من اعتزال ، وجمع فيه التفسير بين التفسير والتزويل وسماه « مدارك التزويل وحقائق التزويل » .

ويتجه الخانن (٧٤١ هـ) (٢) نفس النهج الذي اختصر تفسيره من معالم التزويل للبغوي ، وسماه «باب التزويل في معاني التزويل» ، وضم إلى ذلك ما نقله ولخصه من تفاسير أخرى ، وليس له فيه – كما يقول – سوى النقل والانتساب مع حذف الأسانيد ، وتتجنب التطويل والإسهاب ، وهو أكثر من رواية التفسير بالتأثر .

وننتقل إلى ابن كثير (٧٧٤ هـ) (٣) في كتابه « تفسير القرآن العظيم » : وهو من أشهر ما دون في التفسير بالتأثر ، ويعتبر من هذه الناحية الكتاب الثاني بعد الطبرى ، اعتنى فيه ابن كثير بالرواية عن مفسرى السلف ، ويقتبس كثيراً من ابن جرير الطبرى من تفسيره «جامع البيان» ، وبعبارة فيه سهلة ومحاجة ، ويهتم بتفسير القرآن بالقرآن والحديث النبوى ، والكتاب ليس فيه شيء يستحق التسجيل من الناحية البينانية ، وإن كثنا لاتعدم بعض التعليقات البلاغية الوجزة جداً والمتقللة عن الطبرى : وقد رُقِّ تفسير ابن كثير قبله لدى المبتدئين من طلاب العلم وذيع صيته حتى وقتنا الحاضر .

(١) انظر ترجمته في : طبقات المفسرين للداروى : من ١٠٢ ، وطبقات الشافعية : ٥٩/٥ .

(٢) انظر ترجمته في : البرى الكامنة : ١٤٧/٢ .

(٣) المصدر نفسه : ٩٧/٢ ، طبقات المفسرين للداروى : من ٧٧٦ .

(٤) انظر ترجمته في البرى الكامنة : ١/٢٧٣ ، شذرات الذهب ٦/٢٣١ ، طبقات المفسرين للداروى : من ٣٢٧ .

ونكتفي بهذه الإشارة الخاطفة عن هؤلاء المفسرين ، لأن المرحوم الاستاذ الدكتور محمد حسين التميمي قتلهم بحثاً وتحميصاً^(١) ، فافتئنا عن الإعادة ، فضلاً عن أن اهتماماتهم كانت يمنى عن الدرس البياني إلا نادراً .

(١) انظر : التفسير والمسرحيت ، د. محمد حسين التميمي : ٢٨٧ / ٢٨٦ / ٢٨٥ / ٢٨٤ / ٢٨٣ / ٢٨٢ / ٢٨١ / ٢٨٠ ، ط. مكتبة وعيادة القاهرة ، سنة ١٩٨٨ .

**كتاب «الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز»
لعز الدين بن عبد السلام المتوفى (٦٦٠) هـ**

يعتبر هذا الكتاب دراسة بالغة قرآنية ، ذات قيمة علمية نفيسة ، لأن صاحبه من الشخصيات البارزة في القرن السابع الهجري ، والتي فرضت نفسها فرضاً في ميادين البحث ، أبرزها البحث الديني والبلاغي ، فضلاً عن أن التأليف العربي المفرد للدرس المجازى بمعنىه الاصطلاحى - تليل في ذلك العصر .

ولقد عرف الأقدمون للكتاب قدره ، وكذلك المحدثون ^(١) ، فقد لخصه السيوطي في مؤلف سماه «مجاز الفرسان إلى مجاز القرآن» : ولكن لم يصل إلينا . ولقد أغناهنا الأصل عن الموجز الشائع .

والكتاب يبحث في الإيجاز «الحذف» والمجاز ، وستكتفي بعرض مختصر لموضوعات الكتاب : نظراً لأنني تناولته بالدراسة والبحث الحصول على درجة الماجستير ^(٢) . والمؤلف يبدأ كتابه ببيان أهمية الحذف - وهو ضرب من ضروب المجاز - كمقاييس بلاغي يلتفت في كلية المانع ، مع تقليل الكلام ، وتقريب معانيه إلى الأفهام ، واعتبر كل كلمة يسيرة جمعت معانى كثيرة هي من جوامع الكلم ^(٣) .

واعتنى عز الدين بالحذف ، وأولاً اهتماماً كبيراً ، وذكر أدلة ، وأنواعه ، وتمثل لكل ذلك بحسب هائل من ذي الذكر الحكيم ، والحديث النبوي الشريف ، والكلام الجيد من أقوال البلغاء نثراً وشعرًا .

أما الأدلة التي ذكرها فهي شامية ، تدلنا على تعريف المحنوف في الفاظ الشارع منها :
- ما يدل العقل على حذفه ، والمقصود الأظفار على تعبيته ، وما يدل عليه العقل بمجرده ،
وما يدل العقل على حذفه ، والمادة على تعبيته ، وما يدل العقل على حذفه والشرع على تعبيته ...
وما يدل عليه السياق ، وما يدل عليه الشرع ^(٤) .

(١) انظر : الإنفاق في علوم القرآن السيوطي : ٣٧/٢ ، والبرهان في علوم القرآن للزركشي . جـ من دراسات الشخصية المصرية في الدراسات البينية . د. المساري الجورني . ص ٦٢٨ .

(٢) انظر : العز بن عبد السلام حياته وكتابه «الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز» للباحث .

(٣) انظر : «الإشارة إلى الإيجاز» : ص ٢ .

(٤) المصدر السابق : ص ٤ ، ص ٧ ، والعز حياته وكتابه «الإشارة» : ص ١٩٧ .

ثم يتحدث المؤلف عن أنواع الحذف ، وذكر منه تسعة عشر نوعاً ، منها سبعة عشر نوعاً في حذف المفردات ، وبنها في حذف الجمل من هذه الأنواع :

- حذف المضاف : كقوله تعالى : « حَرَمْتُ أَعْلَمَ طَبِيعَتِيَاتِ أَجِلَّتْ لَهُمْ » (١) ، أي : حرمنا عليهم أكل طيبات أحل لهم أكلها أو تناولها (٢) ، ومنه : حذف مضافين ، كقوله تعالى : « قَبَضْتَ قِبْضَةً يَنْ أَقْرَبُ الرَّسُولَ » (٣) ، تقديره : فقبضت قبضة من أثر حافر فرس الرسول ، ويرى العز أن تقدير ما ظهر في القرآن أولى في بابه من كل تقدير ، كقوله تعالى : « وَقَبَضْنَا لَهُ أَهْلَةً نَحْكَمُهُمْ رَحْمَةً هُنَّا » (٤) ، تقديره : رحمة من عندنا : لأنه قد ظهر في سورة الأنبياء « رَحْمَةً يَنْ عَلَيْنَا وَيَكْرَزُ إِلَيْنَا يَدِيهِنَّ » (٥) .

وحذف المضاف عند العز ليس من المجاز : لأن المجاز استعمال اللظف في غير ما وضع له أولاً ، والكلمة المحنونة ليست كذلك ، وإنما التحجز في أن ينسب إلى المضاف إليه ، ما كان منسوباً إلى المضاف ، كقوله تعالى : « وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كَانَتْ فِيهَا تَائِبَةُ الَّتِي أَقْبَلَتْ فِيهَا » (٦) .

ويوجه العز ذلك بتوجيهه دقيق في عبارة موجزة وواضحة ، وأسلوب سلس ، وفهم دقيق ، وشرئعه له على هذا النحو الدقيق ، الذي لا يصل إليه إلا أهل الاختصاص ، دليل على سعة علمه بهذا الفن وتمكنه منه (٧) .

ثم ذكر العز في آخر كتابه أمثلة من حذف المضافات ، على ترتيب السور والأيات ترتيباً تنازلياً ، ويفيد هذا الفصل من أطول فصول الكتاب ، وهو فصل تطبيقي طبع فيه العز أنواع الحذف التي شرحها ، وقررها في الباب الأول ، وختمه بقوله : « فهذا ما حضر من المضافات المحنونة ، ووراء ما ذكرته حذف كثير في مضافات خالية ، ومهمها تردد المضاف بين المجاز والحقيقة نظرت إلى أحستها ، وقدرته محدوداً ، فإذا استويا نظرت إلى أيهما أشد ملائمة للسياق ، وموافقته ، فقدرته ، وقد يتعدد المضاف بين أن يكون مجملأ أو بيبتاً ، وتقدير المبين أحسن » (٨) .

(١) النساء : آية [١٦] .

(٢) الإشارة إلى الإيجاز : ص ٢ .

(٣) طه : آية [٩٦] .

(٤) من آية [٤٣] .

(٥) الأنبياء : آية [٤١] .

(٦) يوسف : آية [٨٢] .

(٧) انظر : الإشارة إلى الإيجاز : ص ١ . رسالتنا : العز وكتاب الإشارة : ص ٢٦٦ .

(٨) انظر : الإشارة إلى الإيجاز : ص ٤ . رسالتنا : ص ٢٢٢ .

ولايكتفي عن الدين بمجرد التقرير وما يتبعه من شروح وشواهد ، ولكن يوان بن أرامل العلامة . ويرجع أقوالهم ، وينظر ذلك من خلال تعليله على قوله تعالى : « جَعَلَ اللَّهُ الْكَبِيْرَ أَنْتَهُ الْقَرَامَ قِيَامًا لِّلثَّانِي »^(١) . قال : « قدر أبو علي : جعل الله نصب الكعبة ، وقدر بعضهم : جعل الله حرمة الكعبة ، وهو أولى من تقدير أبي علي ، لأن تقدير الحرمة في المذهب والقلائد ، والشهر الحرام ، لاشك في فصاحته ، وتقدير النصب فيها بعيد عن الفصاحة »^(٢) .

ويلاحظ في هذا الباب - باب الحذف - أن العز قد طوّع كثيراً من التطبيقات الفقهية في المسائل البلاغية ، من خلال الأمة القرانية المختارة : وهذا بلا ريب انعكاس لثقافته الفقهية على مباحثه البينانية . بل وينرى العز يستخدم ثقافته الفقهية في الاستدلال البلاغي فينصب ثانية أدلة للتهدي بها في الحذف . عناصرها البساطة ستة : (العقل - المقصود الأظاهر - الواقع - العادة - السياق - الشرع)^(٣) .

والذي يحسب للعز في هذا الباب دراسته له دراسة تطبيقية تمحى فيها منحى بلاغياً ، جمع فيه بين النون والاصطلاح ، مستفيداً من جهود من سبقة من المفسرين والخواجيين^(٤) . ويرى استاذنا الدكتور الجوياني أن العز لم يذكر من أنواع الإيجاز غير الحذف ، وليس له من فضل فيه غير الجمع والتنظيم^(٥) .

وبالمقارنة بين كلام العز في الإيجاز ، وكلام غيره من البلاغيين يتتأكد لنا ما ذهب إليه استاذنا الجوياني ، فإن الآثير وهو معاصر للعز - تناول الإيجاز بصورة أوسع في الجملة والمفرد وقسمه قسمين مع عدم إغفال الشواهد القرائية والشعرية ، والمحللة تحليلاً أديبياً رائعاً^(٦) ، والعز في ذلك قريب الشبه بالسكاكيني الذي اكتفى بمجرد حصر الشواهد على الإيجاز^(٧) .

اما القسم الثاني من كتاب « الإشارة إلى الإيجاز » فقد خصمه المؤلف للمجاز ، والمجاز عنده ما ليس بحقيقة ، وهو فرع لها ، فالحقيقة أصل ، والمجاز فرع ، ولا يصح التجوز عنه إلا بنسبة ، وهذه النسبة تتدرج حسب المقام ، يقول : « المجاز فرع للحقيقة ، لأن الحقيقة استعمال اللفظ فيما وضع دالاً عليه أولاً ، والمجاز استعمال لفظ الحقيقة فيما وضع دالاً عليه ثانياً ،

(١) المائدة : آية [٦٧] . (٢) انظر : دراسة كتاب الإشارة إلى الإيجاز .

(٣) ملخص الشخصية المصرية : من ٦٢٢ ، ورسالتني : من ٦٩٧ ، وما يعدما .

(٤) انظر : رسالتني في العز وكتاب الإشارة : من ٦٩٥ .

(٥) ملخص الشخصية المصرية : من ٦٣٤ . (٦) انظر : المثل السائر لابن الآثير : ٦٧٧:٧١/٢ .

(٧) انظر : ملخص الطور من ٦٦٦ .

لتسبة وعلاقة بين مدلولي الحقيقة والمجاز ، فلا يصح التجوز إلا بنسبة بين مدلولي الحقيقة والمجاز ، وتلك النسبة متربعة ^(١) .

ويعدّ عرض العز لما تجوز به العرب من الأسماء ، والأفعال ، والحرروف ، ممثلاً بتصوص من القرآن والستة والشعر ، ويبدو أن العز في هذا التقسيم متاثر بعلماء النحو وينقل كثيراً عن سببوبه ، غير أنه يتسم بالاستقصاء وجمع الشواهد ، وتناولها تناولاً بلاغيّ ، يتفق معظمها مع وجهة نظر الزمخشري البلاغية ^(٢) .

وتحدث عن مجاز التضمين ، وذكر أن التجوز به من شأن العرب لغرض الاختصار والإيجاز ، ويكون في الأسماء والأفعال والحرروف ^(٣) ، وهو يعتبر أول من أشار إلى التضمين بهذا المعنى ، أما التضمين عند غيره من علماء البلاغة فهو أن يضمّن الشعر من شعر الغير ، بشرط أن يكون المضمن به مشهوراً ، أو مشاراً إليه ^(٤) .

أما أنواع المجاز فهي تظهر في الكتاب بمظاهر الصخامة ، والإسراف الشديد ، فقد ذكر له خمسة وأربعين فصلاً على طريقة الأصوليين ، وحشد لها كما هائلأً من الأمثلة القرآنية التي لم يسبق إليها ، وجمع فيه بين علاقات المجاز المرسل ، والمجاز العقلي ، والاستعارة يقدّم في الاستعارة : « واختلفوا في التعبير عن جميع أنواع المجاز بالاستعارة فمن العلماء من يجعل المجاز كله استعارة ومنهم من لا يجعل الجميع استعارة ، ويختص الاستعارة بما لم يذكر المستعار له ... وهذا خلاف لا فائدة فيه إلا في المحاورات » ^(٥) .

ونلاحظ على العز أنه يطلق المجاز على كثير من فروع البلاغة كالاستعارة ، والتشبّه ، غير أنّا إذا قارننا العز بغيره من العلماء الذين كتبوا في المجاز ، رأينا أنه مذهب ، وأصبح نظراً ، وأشمل دراسة لقضية المجاز من الذين سبقوه ، سواء الذين تناولوا القضية في مبحث متفرد ضمن كتبهم ، أو أفردوه بالتالييف والبيان كابي عبيدة ، والشريف الرضي ^(٦) .

وقد يذكر العز نوعاً واحداً أكثر من قسم من أنواع المجاز ، كما فعل في الفصل الثالث والأربعين ، وهو ما يسمى بـ « مجاز الزرم » ، الذي وضع تحته ستة عشر نوعاً منها :

(١) انظر : الإشارة إلى الإيجاز : ص ۱۸ ، والعز حياته وكتابه : الإشارة الباحث : ص ۲۷۲ .

(٢) انظر : المصدر السابق : ص ۲۱ ، ومذامن الرؤسات البيانية في مصر : ص ۶۴ .

(٣) انظر : الإشارة إلى الإيجاز : ص ۲۹ وما بعدها ، ورسالتي في الماجستير : ص ۳۱۰ .

(٤) انظر : البيان في علم المعانٍ والدبيع والبيان الطبيعي : ص ۴۱۲ .

(٥) انظر : الإشارة إلى الإيجاز : ص ۷۰ .

(٦) انظر : رسالتي بعنوان « العز وكتابه الإشارة » : ص ۴۱۴ .

التشبيه بالإذن عن المشتبه ، والتشبيه والتسهيل ، وتنسمية المسافر « بابن السبيل » ، والتجميد بالفط الريب عن الشك والتشبيه بالمساقحة عن الرثأ إلخ^(١) .

وإذا انتقلنا إلى الكتابة - وهي أحد فروع علم البيان - وجئنا العز يذكرها مع مجاز المجاز ، وجعل الذي جعل العز يدخل الكتابة ضمن مجاز المجازة ، أن الكتابة لفظ يراد به لازم معناه مع جوانب إبرادة المعنى الأصلي^(٢) .

وبالرغم من أن العز ذكر الكتابة ضمن أنواع المجاز ، غير أنه لم يجد حماساً شديداً في فصل القول فيها ، ويعيل إلى اعتبارها نوعاً من الحقيقة^(٣) ، والظاهر أن الكتابات ليست من المجاز ، لأنها استعملت للفظ فيما وضع له ، وأرادت به الدلالة ، على غيره ، ولم تخرجه عن أن يكون مستعملأً فيما وضع له^(٤) ، وإن العز قد تأثر في ذلك بالفتر الرانزي ، الذي لم يجد الكتابة من المجاز^(٥) ، فتردد العز بين البت فيها .

ونذكر عن الدين الكتابة أمثلة من القرآن والحديث ، ورغم تعليقه الذي جاء تصييرًا على شواهد ، إلا أنه كان تحليلًا فنيًّا رائعاً ، من ذلك قوله تعالى : « فَلَا تَقْرَأْ لَهُمَا أَذْكَرَ »^(٦) ، وما جاء في قول إحدى النساء في حديث أم دزع : « تَجْزِي رَفِيقَ الْيَمَادَ ، طَوِيلَ النَّجَادَ ، قَرِيبَ الْبَيْتِ مِنَ الْأَنَادِ »^(٧) ، وتقول الشاعر : (طرفة بن العبد) .

« ولَمْسَتْ بِتَحْلِيلِ الشَّلَاعِ مَخَافَةً » - « وَلَكِنْ مَتَّقْتَشِرِيَ الْقَمَرِ أَرْغَوْ »^(٨)

وتحدث في الفصل الرابع والأربعين عن مجاز التشبيه ، وأدخل في هذا الباب مائة نوع وتسعة أنواع ، خلط فيها أنواعاً أخرى كالاستعارة التمثيلية ، والمثل ، واسم الإشارة ، وكذلك فيه ما سبق أن تعرض له كالمجاز العقلي^(٩) ، ومن هذه الأنواع ، وصف المعاني بالإفراغ

(١) المصدر السابق : ص ٣٦٧ . وكتاب الإشارة إلى الإيجاز : ص ٥٩ .

(٢) انظر : الإيضاح القرآني : ج ٤، ٦٧.

(٣) انظر : الإشارة إلى الإيجاز : ص ٦٢ ، رسالتي للماجستير : ص ٣٦١ ، والقرآن والرسورة البشريّة . د. عبد القادر حسنين : ص ٢٦٩ . ط عالم الكتب .

(٤) انظر : الإشارة إلى الإيجاز : ص ٦٢ .

(٥) انظر : نهاية الإيجاز في دراسة الإيجاز : ص ٣٧٢ .

(٦) الإسراء : آية [٣٣] .

(٧) انظر : صحيح مسلم : ج ١٥ ، ص ٢١٦ . حديث أم دزع .

(٨) انظر : الإشارة إلى الإيجاز : ص ٦٢ .

(٩) انظر : السابق : ص ٦٤ ، ص ١٠٤ ، رسالتي « إيمستير » : ص ٣٧ .

والصب ، والكشف ، والمس والدخول ، والخروج ، والإدخال ، والإخراج ، وما إلى ذلك من التشبيقات ، والتقويمات الفلسفية المحببة ، التي تذكر صفو البلاغة وبيانها^(١) .

ولعل هدف العز من هذا الباب « مجاز التشبيه » ، هو تقصي التشبيه القرائي الواقع بغير أداة ، ومعنى ذلك أنه يخرج من المجاز كل ما كان فيه أداة تشبيه ، والتشبيه البليغ يعدد مجازاً لخلوه من الأداة ، وقد استرجى العز هذا المعنى عن الرماني في معرض تعريفه للاستعارة^(٢) . غير أننا لا نجد للعز جهوداً فنية في تحليل النص ، وإنما هي مجرد شرخ وتقسيمات التشبيه^(٣) .

وعقد المؤلف الفصل الخامس والأربعين لاسماء الله وصفاته ، وبين موقفه منها ، ونفرجه في هذا الفصل على طريقة المتكلمين ، توثيقاً لذهب الأشعرية ، إلا أنه ربطها ربطاً وثيقاً بعلم البيان ، فذكر أن المجاز في الصفات التي يتضمن بها العباد مما يتعارضها التنصيص والكمال ، إذا وصف بها الله عن وجہ ، كالرضا والغضب والضحك ، فإنها تكون على طريقة المجاز ، والمجاز فيها على ثلاثة أنواع : مجاز الملازمة ، أو مجاز التشبيه ، أو مجاز التشبيه ، واشترط لذلك أن يكون بين مطلب الحقيقة والمجاز ملزمه مصححة لجاز الملازمة ، وتسبيب مصحح لجاز التشبيه ، وعما ثبت مصححة لجاز الماشية أو الماء^(٤) .

وبالرغم من أن العز كان متراجحاً في منهجه ، فلا هو انشغل بالتفصيد المنضبط كما فعل السكاكني ، ولا هو صاحب بضاعة أدبية في عرضه للشوادر عرضًا إجماليًا واعيًا كما فعل ابن الأثير ، ولكنه اكتفى بعملية الاستقصاء ، وجمع الشوادر التي يتوقف عندها في قليل من الأحيان وفقطات جمالية طائرة ، أما الذي يميزه - بحق - في هذا الباب هو ابتكاره لبعض أنواعه ، وأختراعه لها كمجاز المجاز ، الذي لم يقل به أحد من قبله على حد علمنا^(٥) .

وختم العز كتابه بذكر ثنيه من مقاصد الكتاب العزيز ، تحدث فيها عن مدرج الفعل ترتيبياً فيه ، ونحوه ترتيباً منه ، وما يترتب على الفعل من ثواب أو خذلان . وذكر أن مقاصد القرآن أنواع منها : الطلب والإذن ، والإطلاق ، والنداء الذي يكثر في القرآن ، لتبيه المنادى : ليس مع ما يلقي إليه بعد النداء من الكلام ليُعمل بمقتضاه ، وتحظى على العز أيضًا - أنه يكرد نفس

(١) انظر : الإشارة إلى الإيجاز : من ٦٩ ، وما بعدها .

(٢) المصدر السابق : من ٦٤ ، والذكى في إعجاز القرآن الرماني . تحقيق آدم محمد زغلول علام من ٧٩ .

(٣) انظر : ملخص الدراسات البيانية في مصر ، الجويوني : من ٦٤٢ .

(٤) انظر : الإشارة إلى الإيجاز : من ١٠ ، درساتي في الماجستير : من ٣٩٩ ، وما بعدها .

(٥) انظر : الإشارة إلى الإيجاز : من ١١٢ ، رسائلة الباحث : من ٤٦٥ .

الفصول في كتابه : « الإمام في بيان أدلة الأحكام »^(١).

وأشار إلى « الأمثال » ، وتبَّه على أنها مؤكدة للكتاعال ترغيباً ، أو ترهيباً ، أو تحسييناً . وبين أن تكريرها في القرآن يدل على الاعتناء والإيساخ ، والبيان^(٢).

ومن فصول هذا الباب الطريقة ، والتي تدرج تحت علم المعاني « التكرار » الذي أحسن فيه عن الدين ، وأجاد ، وجعله أحد مقاصد القرآن الكريم . وهو لا يتناول تناولاً سطحياً كما فعل غيره من علماء الأصول ، بل نراه دقيقاً ، وعميقاً في تناوله ، ويرى المؤلف أن التكرار دال على الاعتناء ، والاهتمام بالذكر ، وأنه ياتي التركيد ، وسره البلاغي : الاعتمام والإيساخ والبيان ، لأنه من المؤكّدات المذكورة ، واستشهد على قوله بشهادت قرانية ، حلّها تحليلاً شبيهاً بتحليل المفسرين ، وتعقب المخترق في بعض آفواهه في هذا الفصل .

ثم ذكر فصولاً أخرى تخدم فنوناً متعددة ، كالتفسير ، والقراءات ، يتصل منها ببحث البيان فصل « الإعجاز » ، والإعجاز في نظره هو : الإيجاز ، والبلاغة ، والبيان ، والفصاحة^(٣) ، وكتابه كله يدور حولها ، وقد قمنا بدراسة كاملة لهذا الكتاب في الدرجة السابقة ، وتوصلنا إلى نتائج كثيرة أجملناها هناك - منها :

- ... دارت معظم أسئلته حول القرآن الكريم ، واستقصى ما في القرآن من حذف ومجاز ، وطُوِّرَ التطبيقات التحويية للقضايا البلاغية ، وجمع في كتابه بين التحو واللغة والتفسير بجانب الاهتمامات البلاغية ، ويحق في الكتاب يشهد للعز بأنه صاحب حس بلاغي دقيق .

- تطرق للكثير من المباحث البلاغية التي يدخل بعضها في علم المعاني ، وبعضها في علم البيان^(٤) :

ومن الملاحظات التي أخذناها عليه :

- ... توسمه في المجاز ، وإفراده فيه إفراداً غير محدود ، ومع كثرة شواهد القراءة ، فإنه يكتفي بالوقوف على الشواهد وحدها ، وبين ما في الآيات من مجاز ، من غير تعليق على النية الأبية لشواهد ، كما فعل البلاغيون كابن الأثير ، وأبن أبي الإصميج ... وجاء الكتاب غير منسق في عرضه للمسائل البلاغية . فهو يسهب في موقع ، ويوجز في موقع آخر^(٥) .

(١) انظر : الإمام في بيان أدلة الأحكام لوحة ١٨ . مخطوط بمحمد المخطوطات العربية .

(٢) انظر : رسالتي في الماجستير : ص ٤٢٢ . (٣) المصدر السابق : ص ٢٦٥ .

(٤) انظر : رسالتي في الماجستير : ص ٤٢٢ ، وما يمدها .

(٥) المصدر السابق : ص ٤٢٦ ، وما يمدها .

ولم يكن العز حلة منفصلة عن سبقه ، بل تاثر بالوارد السابقيين ، وصرح ببعضهم من غير أن يذكر المصدر الذي نقل عنه كسيبويه ، وأبي عبيدة ، وأبي علي الفارس ، والياقاني ، والمخشري ، وعنهما من لم يصرح بهم كالرامي ، وعبد القاهر ، والرازي ، وأبي قتيبة ، والشريف الرضي ، وأبي طلبة ، وغيرهم كثير .

أما تأثيره فيمن بعده ، ف واضح جلي ، سواء كان ذلك في مباحث الأصوليين أو البلاغيين ، كالقرنوفيل ، والسعد التفتاتاني صاحب المطول ، وابن القيم الجوزية ، والزركشي والسيوطى ، وهؤلاء جميعاً ينتظرون عنه في أماكن متفرقة من كتبهم ، ولم يصرّح بالأخذ عنه سوى ابن القيم ، والزركشي ، والسيوطى وعم من علماء الأصول ، أما البلاغيين فلم يذكروه بشيء ، برجم تأثرهم به ، ونقطتهم عنه في أكثر من موضع ، كما فعل الخطيب القرنوفيلي في إيضاحه ، والسعد في مطولة⁽³⁾ .

وعلى هذا يمكن أن يُعد عبد الدين بن عبد السلام في البلاغيين ، إذ أنه يجمع ، ويستقي ،
ويهدب ، ويصحح ، ويضيق ، ويؤثر في غيره من فعل هذا الاختصاص ، والكتاب أثرٌ من آثار
الدراسات القرآنية ، لأن موضوعه ، وماداته ، و مجال التطبيق فيه هو القرآن الكريم .

الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان (ت ٢٥١ هـ)
لابن القيم الجوزية

كان شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أبي الزعبي المشقى المعروف بابن القيم الجوزية^(١) بارعاً في علوم متعددة منها التفسير والفقه ، واللغة والشحو والحديث والأصول . لكن السؤال الذي يطرح نفسه علينا الآن هل كان ابن القيم بلاغياً ؟ والإجابة على هذا السؤال لا تكفي كلمة نعم أو لا ، لكنها تحتاج إلى أن نتعمق في الجهد الذي بذلها ابن القيم في الدرس البلاغي . وهي كثيرة في كتاب « الفوائد المشوق » وغيره ككتاب « الآثار في القرآن » ، و« البيان في أقسام القرآن » وبدائع الفوائد وغيرها .

ولذا إذن - لم يعرف ابن القيم بأنه بلاغي ؟ ربما توارت شهرته في هذا الصدد ، لأن البلاغة في ذاتها لم تكن قصداً ابن القيم ، وإنما كان قصداً الأساسية الدرس القراءتي . فجاء دراسته للبلاغة متعللاً في النص القراءتي ، وموازنته بالنصوص الأدبية الأخرى وذلك طريقة المتدوين ، بخلاف ما يتبع في مثل صنيع غيره من البلاغيين الذين يهتمون بالتعاريف كالمنطقة ، وعلماء الكلام^(٢) .

ويؤكد ما ذهبنا إليه كلام ابن القيم نفسه حيث يقول : « فكتاب الله أشرف ما صرُفت إليه الهم ، وأعظم ما جال فيي ذكر ، وقد به قلم وقد أودع الله أنافاذ هذا الكتاب العزيز من ضروب الفصاحة ، وأجناس البلاغة ، وأنواع الجزلة ، وفنون البيان ، المطلع من الكتاب العزيز على الخفايا وال دقائق » وصريح بأنّ من لم يعرف هذا العلم فهو عن فهم الكتاب العزيز بمعزل ، ويأسف المزلف لهجران العلماء^(٣) .

وإذا كان غرض ابن القيم من كتابه « الفوائد المشوق » - معرفة ما تضمنه الكتاب العزيز من أنواع البيان ، وفنون البلاغة وعيون الفصاحة . فمعنى ذلك أن القرآن كان المصدر الذي أمدَه في نظرته البلاغية : لأنه نظر إليه ثانية على أنه كتاب تشريع ، ونظر إليه مرَّة أخرى على أنه المثل الأعلى في البلاغة ، ولذلك قد ثبَّت أحد الباحثين على « أن العناية بالعلوم الشرعية كانت ثانوية في ذلك العصر ، لما للدين من منزلة ، وكانت اللغة العربية في المنزلة الثانية : لأنها تخدم الطروح الشرعية »^(٤) .

(١) انظر ترجمته في : البر الكافئ لابن حجر ٢٦٧/٢ ، والتلقوم الزاهرة ٢٤٩/١ ، ويشترات النسب ١٦٨/٦ . اليدر الطالب ١٤٢/٢ .

(٢) رسالة الباحث في الماجستير : من ٤٢٥ .

(٣) الفوائد المشوق لطعن القرآن : من ٨ - ٩ . ط دار الكتب العلمية - لبنان .

(٤) ابن القيم الجوزية صدره مذكوره في زاده : من ٨٨ . عبد العليم عبد السلام ط. القرمية العربية - القاهرة سنة ١٢٨٧ هـ .

ولايتعتني هذا أن ابن القيم اهتم بالعلوم الشرعية على حساب اللغة العربية ، ولكنه أبان أنه لا يعرف فضل القرآن إلا من عرف كلام العرب ، ونظر في أشعارها وخطبها ومقوالاتها في مواطن افتخارها ، درساتها وأراجيزها ، وأسجاعها ، وفنون البلاغة ، وضروب الفصاحة ، وأجناس التمجيد ، وبدائع الديع ، ومحاسن الحكم والأمثال^(١) .

و واضح من كلام المؤلف أنه لم يترك على من علم العربية التي تكون عنواناً له يريد دراسة القرآن ، وإدراك إعجازه ، وبيان عجز العرب وقصاصتهم عن مجاراته ، وذكر في مقدمته أنه سيرد في كتابه أصولاً مؤصلة ، وفوائد مفصلة من علم البيان ، وما ورد تقطيره في القرآن ، ولذلك فقد رفع المؤلف إلى أمهات المصادر التي أعادته على إخراج الكتاب .

ويالنظر إلى مصادر المؤلف التي رجع إليها نجدها تزيد على ثلاثة عشر مصدراً أصلياً منها : الديع لابن المعتز ، والمستعين لابن هلال العسكري ، والمثل المسائر لابن الأثير ، والعمد لابن رشيق وديع القرآن لابن الأصبع ، ومجاز القرآن للعن بن عبد السلام ونهاية الإيجاز للغفر الرازبي . وأضاف إلى ذلك كله فوائد مستعدية ، وفواود محسنة مستقررة نقلاً عن الآئمة الأعلام الأكابر من بطون الدفاتر ، وما أضافه من مهمل آياته ، ومجمل قصصه ، وشارد قيده .

وأعلم تأثر ابن القيم بابن الأثير ، وابن أبي الإسماعيل أبعده عن منهج السكاكي والتزويني ، ويرثم هذا التأثر الواضح إلا أنه مع ذلك كان مولاناً بالتقسيمات والتقريرات التي تبعث على السنة والشجر ، وهو العالم الذي انحرف عن منهج السكاكي ، وقد يكون سبب ذلك هو تأثره بكتاب الرازبي الذي كان من أهم مصادر السكاكي^(٢) .

غير أننا نلاحظ على ابن القيم من خلال تخصصنا لكتبه - سبع ملاحظات جديرة بالتسجيل في هذا الواقع ، وهي :

- الأولى : مزاجه بين الدراسات البayanية ، والقرآن الكريم .
- الثانية : الموارنة بين البيان العربي والبيان القرآني .
- الثالثة : قصد النص القرآني للتطبيق البayanي .
- الرابعة : اعتماده الكبير في الاستشهاد بالقرآن الكريم .
- الخامسة : الغوص في أعمق المعاني ، للاطلاع على الخفايا والدقائق .
- السادسة : الإقادة من أعمال السابقين وأقوالهم .
- السادسة : إحياء التأليف البayanي المعتمد على القرآن الكريم .

(١) الفوائد المشرق : ص ٧ .

(٢) انظر : التزويني وشرح التفسير : ص ٥٢ .

ثم قسم المؤلف كتابه قسمين : يبحث في الأول : الفصاحة ، والمجاز ، والاستعارة ، والتشبيه ، والتضليل ، والإيجاز ، والتقديم والتلخيص ، وتكلم في القسم الثاني على ضرورتين : الأول ما يختص بالمعانٍ ، وذكر فيه الكتابة والتعریف ، وموضوعات أخرى أدخل المتأخرين بعضها في الحسنات المعنوية . وعقد الثاني ليبحث ما يتعلق بالألفاظ من الفصاحة وغيرها من الموضوعات التي تدخل في علم البديع كالاشتقاق والتسيجع ، والترصيع ، وإنهم ما لايلزم^(١) .

وختتم كتابه كثيرة من الأصوليين - بفصول ذكر فيها ما اشتق منه القرآن ، والسورة ، والآية ، والكلمة ، والحرف ، وبيان معانٍ لها ، واردها بفصول في إعجاز القرآن ، ذاكراً فيها أقوال العلماء في الإعجاز ، وناقشهم فيها ، واقرب هذه الآثار إلى الصواب في نظره - أن إعجازه بحراسته من التبديل والتغيير والتصحيف ، والتعریف ، والزيادة والتقصان ، فإنه ليس عليه إبراد ولا مطعن^(٢) .

ثم أخذ المؤلف في فنن الكتاب وأقسامه ، فبدأها بالمجاز ، فوضع المؤلف المعنى الذي استعملت العرب المجاز من أجله وهو « ميلهم إلى الاتساع في الكلام » وكثرة معانٍ الألفاظ ليكثر الالتزام بها ، فإن كل معنى للنفس به لذة ، ولها إلى فهمه ارتياح^(٣) .

ولذلك كثر المجاز في كلام العرب بخلاف اللغات الأيزروبية الأخرى التي يبدو فيها الجرس على استخدام الكلمات في معناها الأصلي^(٤) .

ويلاحظ أن ابن القيم توسيع في بحث المجاز ، وأدخل فيه التشبيه ، والمجاز بتنوعه ، والإيجاز والاختصار ، والعدف ، والتقديم والتلخيص ، وهذا ما لا يوجد إلا عند عن الدين بن عبد السلام ، ولا يمكن أن نقول إنه استوحى منه هذا المعنى ، وإنما الذي يثبت عنه بالمقارنة الدقيقة النقل الحرفي شكلاً وموضوعاً .

أما أقسام المجاز عند ابن القيم فهي أربع وعشرون قسمًا ، هي ما ورد في القرآن - حسب قوله - وتحت كل قسم من هذه الأقسام أقسام كثيرة منها :

مجاز التعبير بلطف المتعلق به عن المتعلق ، وإطلاق اسم السبب على المسبب ، وإطلاق اسم المسبب على السبب ، وإطلاق اسم الفعل على غير فاعله ، والإخبار عن الجماعة بما يتعلق

(١) انظر : الفوائد المشورة : من ٢٦٨ ، من ٢٤٤ .

(٢) المصدر نفسه : من ٢٠٥ . (٣) المصدر نفسه : من ١٠ .

(٤) انظر : رسالة الباحث في دراسة كتاب الإشارة من : من ٣٧٨ ، من ٤١٧ ، وكتاب : الإشارة من من ١٨ ، من ٥١ ، والفوائد المشورة من : من ١٠ ، من ٣٦ ، من ٣٦ .

بيغضهم ، وإطلاق اسم البعض على الكل ، وإطلاق اسم الكل على البعض ، ووصف الكل بصفة البعض ، وإطلاق اسم الفعل على مقاربه ، وإطلاق اسم الشيء على ما كان عليه وإطلاق اسم الشيء على ما ينتمي إليه ، وإطلاق اسم المترهم على المتحقق ، وإطلاق اسم الشيء على الشيء الذي يطلقه المعتقد والأمر على خلافه .

وأشار ابن القيم إلى المجاز في الأسماء ، والافتخار ، والحرف ، وأدخل في هذا البحث خروج الحروف عن معاناتها الأصلية ، والتوجه بالمعنى عن المستقبل والتوجه بالمستقبل عن الماضي ، وذكر خروج الخبر والأمر والنفي عن معاناتها الحقيقة . ثم تحدث عن أنواع كثيرة من المجاز لم يتعرض لها أحد من القدماء غير ابن عبد السلام في كتابه «الإشارة إلى الإيجاز» منها : التعبير بالإذن عن المشينة ، والتعبير بالايد عن القدرة ، والتعبير بالأقواء عن الألسن ، وبالجمل من الحال ، وبالساحة من نازلها ، وبالقرية عن قاطنيها ، وبالنادي عن أهله ، وغيرها من الأنواع ، التي انخل فيها كثيراً مما يحصل بالمجاز المرسل ، ولكنه لم يسمه بهذا المصطلح المعروف ، وإنما اكتفى بالإشارة إلى علاقاته وأمثلته .

وتحدث ابن القيم أيضاً - عن مجاز التضمين ، ومجاز المجاز ، والجمع بين الحقيقة والمجاز ، والمأول في هذا البحث لم يُعرف جديداً ، ولم يذكر طرفة ، بل سلب آقوال العز وأزاء في المجاز بتنوعه المختلفة ، كما سطا على أمثلته سطواً ذريعاً مما نعده منقصة تهن كيانه العلمي والبيانى على حد سواء .

ولهذا السبب اكتفتنا بمجرد العرض الموجز من غير تمثيل أو تحليل حتى لا نذكر أنسنا^(١) : لأن ابن القيم اعتمد على صاحب «الإشارة إلى الإيجاز» في البيكل العام وفي التفصيات ، وما يثير دهشتنا أن ابن القيم لم يُشر لكتاب العز ضمن مراجعه ، ولكنها كانت إشارة عابرة أثناء حديثه عن المجاز .

وعلى الرغم من أن ابن القيم نسل هذا الباب - المجاز - عن العز ؛ إلا أنه قد أحسن فيه وأجاد ، حيث استعرضه بطريقة منتظمة ، غير طريقة العز الذي تحدث عنه حديثاً عاماً يخلو من النهائية والتخطيط الذي اتسم به ابن القيم في كتابه بوجه عام .

ثم يتناول ابن القيم الاستعارة ، وهي قسم من أقسام المجاز ، ويمهد للحديث عنها بالمقارنة بينها وبين التشبيه ، ثم يقول : «إذا تقرر هذا الكلام ، فالكلام في الاستعارة على

(١) انظر : رسالة الباحث في دراسة كتاب الإشارة من : ج ٢٧٦ ، من ٤١٧ ، وكتاب : الإشارة من ج ١٨ ، من ٥١ ، والواحد المشرق من ج ١٠ ، من ٣٦ ، من ٣٦ .

وجوه : الأول : هل هي من أنواع المجاز ؟ الثاني : في حدها . الثالث : في أقسامها . الرابع : في اشتغالها . الخامس : فيما تنتهي به الاستعارة وما انتهيا . السادس : في الاستعارة التخييلية . السابع : في الاستعارة المجردة . الثامن : في الاستعارة المرشحة . التاسع : في الاستعارة الحسنة . العاشر : في الاستعارة التبيحة . الحادي عشر : في بيان ما يظن أنه استعارة ، وليس باستعارة . الثاني عشر : في الاستعارة بالكتابية . الثالث عشر : فيما تنزل به الاستعارة منزلة الحقيقة^(١) .

ثم ماضى المؤلف يتحدث عن كل قسم على حده ثم ختم حديثه عن الاستعارة بما جاء في الكتاب العزيز ، والمألف - هنا - ينفرد عن غيره من علماء البلاغة بوضع خطة عامة لكل موضوع ي يريد تناوله ، ثم يشرع بعد ذلك في تطبيق الخطة ، وتوضيح التفاصيل .

وهو في هذا الباب ينتقل عن غيره من السابقين ، ويناقشهم من غير ترجيح منه ، أو إبراز لشخصيته البلاغية ، وصريح هو بذلك في قوله : « وقد أوردنا نحن في كتابنا هذا في باب الاستعارة تشبيهاً بالقوم ، واستثنينا بستينهم ، لأنهم السابقين في هذا الفن بالتصنيف »^(٢) .

وهذا التقرير الذي صرّح به ابن القيم يلقي عن كواهله علينا عبّاً ضخماً في الحكم على آرائه . وبين قيمتها العلمية ، ولذلك أن الإقرار على النفس أثبت وأقرى من شهادة الباحث ، وقراءة المتخصص ، أما إذا التقى الإقرار على النفس بشهادة المتخصص فهي القاعدة التي ليس فيها منفذ لطاعن ، ولا نقس لمدع .

ثم أخذ ابن القيم في تقسيم الاستعارة - حسب تقسيم الرازى - إلى استعارة محسوس لمحسوس كقوله تعالى : « وَاشْتَغَلَ الرَّازِيَ كُتُبَيَا »^(٣) . إذ المستعار منه النار ، والمستعار له الشيب ، والجامع بينهما الانبساط ، ولكنه في التأري يقرى^(٤) . وأما استعارة المحسوس للمحسوس لشيء مثلى ، فكقوله تعالى : « يَا يَاهُ لَهُمُ الظَّلَلُ تَسْأَلُونَ وَهَذَا النَّهَارُ »^(٥) . المستعار له ظهور النهار من ظلمة الليل ، والمستعار منه ظهور المسلط من جلته ، والجامع أمر عقلي . وهو ترتيب أحدهما على الآخر^(٦) . وأما استعارة المحسوس للمعقل ، فكقوله تعالى : « قَاتَشَدَعْ يَمَا تَبَرَّ »^(٧) .

(١) انظر : *الروايد المشفق إلى علوم القرآن* : من ٤٢ .

(٢) نفسه : من ٤١ .

(٣) مريم : آية [٤] .

(٤) *الروايد المشفق* : من ٤٦ .

(٥) يس : آية [٣٧] .

(٦) *الروايد المشفق* : من ٤٧ .

(٧) العجر : آية [١٤] .

وأما استعارة المقول المعمول ففقره تعالى : « مَنْ يَعْتَدْ مِنْ مُرْقِدِنَا »^(١) . استعارة الرقاد الموت ، وعما أمران مفترلان ، والجامع عدم ظهور الأفعال^(٢) . وأما استعارة المقول للمحسوس ففقره تعالى : « تَكَادَ تَمِيزُ مِنَ الْقَيْطَ »^(٣) ، لفظ الفيظ مستعار^(٤) .

ثم تحدث المؤلف عن الاستعارة المجردة والمشحة والمكتبة والتخييلية وعرف كلًّا منها ومثل لها بشواهد من القرآن الكريم يكتفي بالترجمة الاصطلاحية كما سبق ، غير أنه خالف ذلك في التبليغ والاستعارة المرشحة التي مثل لها بقول الشاعر :

رَأَتِي بِسَهْرِ بَيْشَةَ الْكَحْلِ لَمْ يَضُرْ

ولم يذكر المؤلف هنا - الشاهد القرآني الذي من أجله أله فوانده المشوق .

ومما ينبغي الإشارة إليه - في هذا الصدد - أن ابن القيم لفت انتباهنا في هذا الباب إلى الاستعارة البديعية ، و وبينها وبين الاستعارة القبيحة وبينها إلى ما يزيد الاستعارة حسنة ، فقال : « الاستعارة البديعية الباللة هي أن تتضمن المبالغة في التشبيه مع الإيجاز ، وبذلك استعارات الكتاب العزيز كذلك ، وفي أشعار فصحاء العرب منها كثير . أما الاستعارة القبيحة ظليس في الكتاب العزيز منها شيء ، وأما في أشعار العرب وغيرهم فكثير »^(٥) .

ونذكر ما يزيد الاستعارة حسنة وهو « أن يجمع بين عدة استعارات قصدًا لإلحاق الشكل بالشكل : لإتمام التشبيه » كقول أمريقي :

فَلَقَتْ آنَةً لَمْ تَنْطَشْ يَصْلَبْ . رَأَى نَفْرَ أَغْجَارًا وَتَاهَ بِكَلْكَلِ

قال : « لما جعل الليل صلبًا قد تعطى به بين ذلك فجعل له كلكلًا قد ثاء به فاستوفى جملة أركان الشخص ، وراعى ما يراه الناظر من جميع جوانبه »^(٦) .

وكذا ننتظر - كما سبق - أن يمثل لهذا النوع بشواهد من القرآن الكريم ، ليتبيننا إلى وجود ذلك في القرآن ، وهو الحريم دائمًا على ذلك ولكنه لم يفعل .

وإذا انتقلنا إلى التشبيه وجدناه يسير على نفس النطء الذي انتهجه في الاستعارة ، حيث لا تجد له نظارات جديدة ، ولا أفكارًا عميقة ، ولا إثراءً لفرض من الأعراض ، ولا تحليلًا ، ولا تعليلاً ، وإنما هو خبر من التقل والسرد ، أو الاكتفاء بالجمع والمشدد ، وهذا قصارى جهده الذي يذلل في التشبيه .

(١) بس : آية [٥٦] .

(٢) المثل : آية [٨] .

(٣) الفوائد المشوق : من ٤٧ .

(٤) المثل : آية [٨] .

(٥) المصدر نفسه : من ٤٢ .

(٦) المصدر نفسه : من ٤٢ .

ويبدو أن المؤلف كان مولعاً بالجاز حيث ثراه يستهل حديثه عن التشبيه هل هو من المجاز أو لا ؛ فذكر أن الذي عليه جمهور أهل هذه الصناعة أن التشبيه من أنواع الجاز ، ثم بين الفرض من التشبيه وفائدته : « الكشف عن المعنى المقصود مع ما يكتسب من فضيلة الإيجاز والاختصار »^(١) .

أما أقسام التشبيه عند ابن القيم فهي أربعة : تشبيه محسوس بمحسوس ، وتشبيه معمول بمعقول ، وتشبيه معمول بمحسوس ، وتشبيه محسوس بمعقول . أما أقوى وأظهر وجوه التشبيه عنده فهي التشبيه بالوجه المعمول : لأن تشبيه المحسوس بالمحسوس يمكن أن يكون لأجل الاشتراك في وصف محسوس ، ويمكن أن يكون لأجل الاشتراك في وصف معمول ، ويمكن أن يكون لأجلهما جميعاً : كقوله تعالى : « إِنَّمَا تَخْضُرُ النَّارُ » من الحسن الظاهر القبيح الباطن ، وهو أمر عظيم .

ويلاحظ ابن القيم في أقسام التشبيه ملاحظة جديرة بالتسجيل . وهي أن قسمه الرابع (تشبيه المحسوس بالمعقول) غير جائز : لأن العلوم المقلية مستقادة من الصواب ، ومتيبة إليها ، ولذلك قيل : من فقد حسناً فقد طلباً . وإذا كان المحسوس أصلاً للمعقول ، فتشبيهه به يكون جعل الفرع أصلًا ، والأسفل فرعاً ، وهو غير جائز^(٢) .

ويؤكد ابن القيم على أن المحسوس أعرف من التشبيه بالوصف المعمول ثلاثة أوجه : الأول : أن أكثر الفرض من التشبيه التخييل ، والخيال أقوى على ضبط الكيفيات المحسوسة منه على الأمور الإضافية . الثاني : أن الاشتراك في نفس الصفة أسبق من الاشتراك في مقتضاهما . الثالث : أن المتشابهة في الصفة قد تبلغ إلى حيث يتوجه أن أحدهما الآخر^(٣) .

وبعد هذا التقى المطفي يرى المؤلف أن هذا النوع من التشبيه لا يصح إلا إذا نزل منزلة المحسوسات فقال : « والذي يجمع بين هذا وبين القواعد العقلية أن هذه الأشياء المعقولة ، لتقريها في الذهن وتتحققها في العقل صارت بمنزلة المحسوسات ، فلما نزلت منزلة المحسوسات من التشبيه وقوى ، وصار المعمول للعبارة أثبت في النفس ، وأقوى من المحسوس ، فصار لذلك أصلًا يشبه به كما في قوله تعالى : « كَانَهُ رَؤُسَ الشَّيَاطِينِ »^(٤) : ولهذا قال أسرى القيس :

وَمَشْتَوْتَهُ تَدْرِي كَانِيَابِ أَغْوَالِ

(١) الفوائد المشرق : من ٤٠ .

(٢) المصدر نفسه : من ٥٨ .

(٣) المصدر نفسه : من ٥٩ .

(٤) الساندان : آية [٦٥] .

فإنهم وإن كانوا لم يشاهدو الفعل وأنيابها ، لكنهم لما اعتقدوا فيها، أي في أنيابها غاية الحدة : حُسن التشبيه^(١).

وصرح المؤلف بأن ابن الأثير زاد قسماً آخر في التشبيه ، وسماه : غلبة الفروع على الأصول ، والفرس بهذا النوع المبالغة في وصف المشبه به ، كان هذا المعنى ثبت له ، وصار أصلًا^(٢).

وتكلم ابن القيم عن أدوات التشبيه ، واردقها بالحديث يغير آداته وذكر أنه أبلغ وأوجز أنواع التشبيه^(٣) ، ومنه قوله تعالى : « سُمْ بِكُمْ عَنْ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ »^(٤).

ثم تناول المؤلف تشبيه الشترين بالشيء الواحد : وهو على ثلاثة أقسام : إما تشبيه معنى بمعنى ، وإما تشبيه معنى بصورة ، وإما تشبيه صورة بصورة ، وكل واحد من هذه الأقسام الثلاثة لا ينطلي من ثلاثة أقسام : إما تشبيه مفرد بمفرد ، ولما تشبيه مركب بمركب ، ولما تشبيه مفرد بمركب ، ومثل لهذه الأقسام يشواهد كثيرة من القرآن الكريم . ويبعد تأثر المؤلف الشديد في هذه الناحية بالرأي ، حيث تتحول شخصيته إلى الاهتمام بالتقسيم والتفرع العجيب.

وأشار إلى التشبيه المركب ، ومثل له قوله تعالى : « إِنَّمَا مُثُلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَثَامَ اِنْزَالِهِ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَطَطَ بِهِ بَنَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ ... كَانَ لَمْ تَقْنَنْ بِالْأَتْسِنِ »^(٥) : فتشبه حال الدنيا في سرعة زوالها وانفراطها تعيمها بعد الإقبال بحال نبات الأرض ، وذلك تشبيه معنى بصورة ، وهذا أبعد ما يجيء في هذا القسم^(٦).

ويرى ابن القيم أن كلية التقييدات يعظم بها حسن موقع التشبيه كما في الآية ، وتكون أدخل في التشبيه من غيرها : لأنها عقلية^(٧).

ويشترط المؤلف لحسن التشبيه بشرط لا يحيد عنه ، ويشير إليه في كثير من شواهده عند التطبيق حيث يقول : « أما الشرط الذي لا يليken التشبيه حسناً إلا به ، وهو أن يكون التشبيه جلياً ، ويكون بحال يتجاوز الذهن إليه ، وإلى إدراكه ، ولا يحتاج إلى إطالة فكرة ، وإلى إمعان نظر ، فإن الفرض بالتشبيه بيان حسن موقع التشبيه ، وظهور مزنة المشبه بحسن حال المشبه به أو قبحه »^(٨).

(١) الفوائد المشوق : من ٥٩ . (٢) المصدر نفسه : من ٥٨ .

(٣) المصدر نفسه : من ٦٠ . (٤) البقرة آية [١٨] .

(٥) يعنـ آية [٢٤] . (٦) الفوائد المشوقة : من ٦١ .

(٧) المصدر نفسه : من ٦٢ . (٨) نفسه : من ٦٢ .

وَهُدَا بِلَا شَكٍ يُشَدِّدُ إِلَى أَنَّ أَبْنَى الْقِيمَ يُعْلِمُ إِلَى التَّشْبِيهَاتِ الْوَاضِحَةِ غَيْرِ الْمُعْدَةِ ، وَلَذَلِكَ
فَقَدْ تَمَكَّنَ مِنَ الْوَصْلِ إِلَى نَتْيَةِ ذَاتِ بَالٍ ، وَهِيَ أَنَّ التَّشْبِيهَ أَحَدَ غَرْبَيِ الْاسْتِعَارَةِ^(١) .

وَيَعْدُ أَنَّ فَرْقَ الْمَوْلَفِ بَيْنَ التَّشْبِيهِ وَالْاسْتِعَارَةِ ، سَارِدًا أَقْوَالَ الْبَلَاغِيِّينَ فِي ذَلِكَ ، يَنْقُلُنَا إِلَى
الْتَّمَثِيلِ وَهُوَ كُلُّ تَشْبِيهٍ مُنْتَرِجٍ مِنْ أَمْرِ مُوْسَمَةٍ ، بِتَقْدِيدِ الْبَعْضِ بِالْبَعْضِ ، وَهُوَ قَرِيبٌ مِنَ
الْاسْتِعَارَةِ : وَهُنَّ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ قَوْلُهُ تَعَالَى : « مَكَّةَ كَمَّلَ الْكَلْبُ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَأْتِهَا
أَوْ تَنْرَكَهُ يَأْتِهَا »^(٢) .

وَمِنْ هَذَا التَّرْجُعُ – أَيْضًا – إِلَى السَّائِرِ ، وَمِنْهُ فِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ قَوْلُهُ تَعَالَى : « لَيْسَ
لَهَا مِنْ ذَنْبِ اللَّهِ كَايِفَةً »^(٣) ، وَمِنْهُ كَثِيرٌ فِي أَشْعَارِ الْعَرَبِ كَقُولُ أَبْنَى فَرَاسَ :

تَهَبُّنَ عَلَيْنَا فِي الْمَسَالِي تَفَوَّسَنَا وَقَنْ طَلَبَ الْخَسَنَةَ لَمْ يَقْبِلْ الْمَهْرَ^(٤)

وَمِنْ فَضْلِ الْبَيَانِ الْمُرْفَعِيَّةِ عَنْ أَبْنَى الْقِيمِ بِعَثَّةٍ فِي الْكِتَابِيَّةِ ، الَّذِي أَحْسَنَ فِي وَاجْدَادِهِ ، وَهِيَ
عِنْدَهُ عَدَدُ أَقْسَامٍ : التَّمَثِيلُ وَالْإِرْدَافُ وَالْجَارِيَّةُ . وَالْكِتَابِيَّةُ وَهِيَ إِطْلَاقٌ لِفَظُ حَسَنٍ يُشَدِّدُ إِلَى
مَعْنَى قَبِيحٍ : كَقُولُهُ تَعَالَى : « وَأَنْزَلَهُ قَاتِلَةً فَقَبِيقَتْ »^(٥) أَيْ حَاضِرٌ^(٦) .

وَمِنْ بَعْدِ التَّمَثِيلِ قَوْلُهُ تَعَالَى : « وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عَنْقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلُّ
الْبَيْسِطَ »^(٧) : فَمَمْلِكُ الْبَخْلِ بِأَحْسَنِ تَمَثِيلٍ : لَمْ يَخْيِلْ لَهُ يَدُهُ بِالْعَطْلِيَّةِ كَمَلْفَلُ الَّذِي لَا
يُسْتَطِعُ أَنْ يَدْ يَدَهُ ، وَإِنَّمَا قَالَ : وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عَنْكَ – وَلَمْ يَتَلَ : وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ
مَغْلُولَةً ، مِنْ غَيْرِ ذِكْرِ الْعَنْقِ : لَأَنَّهُ تَعَالَى قَالَ : وَلَا تَبْسُطْهَا كُلُّ الْبَيْسِطَ ، فَنَّابَ ذِكْرُ الْعَنْقِ
مِنْ قَوْلِهِ كُلَّ الْفَلْ : لَأَنَّ غَلَ الْبَيْدِينَ إِلَى الْعَنْقِ هُنَّ أَقْسَمُ الْغَايَاتِ الَّتِي جَرَتْ الْمَادَةُ بِغَلِ الْبَيْدِ
إِلَيْهَا^(٨) .

